بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القـــرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم ( ٨ )

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم ( رباعي ) : ليلى نوري الغامدي الحربي كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة
الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير في تخصص : العقيدة
عنوان الأطروحة : (( موقف أهل السنة والجماعة من الأسباب وآراء المخالفين ))

---

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٣/ ٨/ ١٤٢٦هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ،وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

| المشرف | المناقش الداخلي | المناقش الخارجي |
|---|---|---|
| الاسم : أ. د. [illegible] | الاسم : [illegible] | الاسم : [illegible] |
| التوقيع : [signature] | التوقيع : [signature] | التوقيع : [signature] |

يعتمد

رئيس قسم العقيدة .

الاسم : د. [illegible]

التوقيع : [signature]

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .




المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة



# موقف أهل السنة والجماعة من الأسباب وآراء المخالفين

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في قسم العقيدة

إشراف الأستاذ الدكتور
بركات عبدالفتاح دويدار

إعداد الطالبة
ليلى نوري المغامسي الحربي

[ الجزء الأول ]

١٤١٨هـ - ١٤١٩هـ


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

## ملخص الرسالة

تتناول هذه الرسالة الجانب العقدي في علاقة السبب بالمسبب عند أهل السنة والجماعة، وبعض الفرق المخالفة. وتوضح الاضطراب الحاصل بين الإفراط والتفريط في هذا المعتقد. وتعلقه ببعض قضايا العقيدة وتعرض بعض الأحكام والآثار المترتبة على ذلك.

ولقد ظهر لي فيها أن أهل السنة والجماعة يعتقدون بتأثير السبب في المسبب بإذن الله تعالى عند وجود الشروط وانتفاء الموانع، لذلك فلابد من الاعتماد على الله عز وجل عند الأخذ بالأسباب، استدلالاً بالكتاب والسنة وسير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والسلف الصالح رضوان الله عليهم، وأن الأسباب من قدر الله وقضائه، والدعاء سبب من الأسباب، والخوارق خارجة عن هذه العلاقة لإظهار الإعجاز.

فترتب من جراء ذلك إخلاص العبادة لله عز وجل، وتسخير مقدرات الكون لخدمة الإنسان، والاستعانة بذلك على أمور الآخرة.

وأثبتت الدراسة موقف السلف من السحر وردت على المخالفين لهم إفراطاً أو تفريطاً، كما بينت من معتقدات الفرق المختلفة في السببية مايلي:

١ - أن الفلاسفة يعتقدن بالحتمية الضرورية في الأسباب وعلاقتها بمسبباتها.

٢ - أن المعتزلة يعتقدون بالإيجاب في الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات.

٣ - أن الأشاعرة يعتقدون بالعادة - أي أن المسبب يحدث عند وجود السبب عادة ويعرف ذلك بتكرار المشاهدة - ولا يعترفون بتأثيرها.

٤ - أما الصوفية فيعتقدون أن من كمال التوحيد هو ترك الأسباب وإن كانوا يعترفون بتأثيرها.

ولقد نوقشت كل هذه الأفكار من وجهة نظر السلف الصالح وأجيب عن كل الاشكالات التي ترد عليهم.

**والله الموفق.**


| الطالبة | المشرف الدكتور | عميد كلية الدعوة وأصول الدين |
|---|---|---|
| ليلى نوري المغامسي الحربي | أحمد محمد البناني | |
| التوقيع : | التوقيع : | د. محمد سعيد محمد بخاري |

# المقدمة

# المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين..

قال تعالى: ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ «آل عمران: ١٠٢».

وقال تعالى: ﴿ **ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءا واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ «النساء: ١».

وقال تعالى: ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً..** ﴾ «الأحزاب: ٧٠، ٧١».

أما بعد . . .

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

لقد كان المسلمون حتى عهد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصدر من عصر الصحابة - رضوان الله عليهم - على منهج واحد، ووتيرة واحدة من الاتباع في القول والعمل والاعتقاد، لقرب عهد الوحي منهم، وتصحيح المنهج الخاطيء مباشرة، عن طريق توضيح رسول الله - صلى الله عليه وسلم- لهم ذلك. ففيهم السراج المنير، والهادي البشير نور يستضاء به إلى طريق الهداية، ويبين لهم طريق الزيغ والضلال.

وقبل وفاته صلى الله عليه وسلم، وبعد نزول آية التكميل والإختتام: قال تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾** «المائدة: ٣». قال لهم: ((قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها بعدي إلا هالك. من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعليكم بالطاعة، وإن عبدا حبشيا، عضوا عليها بالنواجذ فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد...»أ. هـ[١]. وفي رواية قال «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً. وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجد». أ. هـ[٢]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث العرباض بن سارية، ج٤، ص١٢٦. - وأخرجه ابن ماجة في سننه، المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ج١، ص٤، ح٥ برواية مقاربة.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ماجاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، ج٥، ص٤٤، حـ٢٦٧٦. - وأخرجه أبوداود في سننه، كتاب السنة، باب لزوم السنة، ج٥، ص١٣-١٥، حـ٤٦٠٧. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته من بعده رضوان الله عنهم، كان مصدرهم الكتاب والسنة، لايزيغ عنها إلا هالك، ثم التابعون من بعدهم.

قال صلى الله عليه وسلم: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً، ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون...»أ. هـ(١).

كان الطريق واضحاً لاشوائب فيه. لكن بعد ذلك بدأت الأهواء تتضارب لماذا؟ لترك منهج الكتاب والسنة، وتقديم الهوى ومايظنونه عقلاً عليهما. ثم كان تأثير البيئة التي انتشر فيها الإسلام.

فبدأ الخوض في القدر، والوعد والوعيد، والعدل الإلهي، ومرتكب الكبيرة، وفي فضل الصحابة، وفي أسماء الله وصفاته... وغيرها.

حتى تطور ذلك وأصبح هناك ملل ونحل... قال صلى الله عليه وسلم: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة...»أ. هـ(٢).

ولكن هل يعترفون أنهم على خطأ، لو كان أحدٌ يعترف بخطئه لصححت الأخطاء من زمن بعيد، ولكن مع الأسف كما قال الشاعر:

---

(١) راجع ص ١٢٣ من هذا البحث.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ماجاء في افتراق هذه الأمة، ج٥، ص٢٥.

قال أبوعيسى: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

**الناس شتى وآراء مفرقة كل يرى الحق فيما قال واعتقدا**

والكل - مع الأسف - يظن أنه متبع للكتاب والسنة بالتأويل الباطل. والقرآن والسنة يثبتان بعدهم عنهما بطريقة أو بأخرى.

فمن هذا المنطلق كان واجباً على المسلمين من (علماء، وطلبة علم) تبيين هذه الفرق والمذاهب، وعرض آرائهم، ونقد هذه الآراء على ضوء الكتاب والسنة، ومنهج السلف الصالح، وتبيين المنهج القويم والطريق الصحيح.

لذلك فقد شرعت في كتابة بحثي هذا من هذا المنطلق. واخترت له اسماً وهو:

**«موقف أهل السنة والجماعة من الأسباب ، وآراء المخالفين»**

## سبب اختياري لهذا الموضوع :

من خلال دراستي لبعض قضايا العقيدة المختلف فيها بين الفرق، لفت نظري موضوع الأسباب، الذي هو من أهم خصائص الحياة، فلكل شيء سبب، ولكل سبب مسبب، وقلة الكتابة عنه منفرداً، أو إدخاله في موضوع آخر، وعدم إعطائه حقه من الكتابة أو الردود على المنحرفين عن مذهب السلف الصالح.

فقد كتبت فيه كتابات سابقة إلا أنها إما بعيدة عن منهج أهل السنة والجماعة، أو قريبة من ذلك ولكن تعالج قضية في الفقه وأصوله، وبعيدة عن قضايا العقيدة المرجوة في هذا البحث.

فمن ذلك على سبيل المثال :

١ – السببية . للدكتور : أمين راشد . من كلية أصول الدين بالقاهرة . وجدتها بعيدة عن توضيح منهج السلف رضوان الله عنهم[١] .

٢ – مفهوم السببية عند الغزالي . لأبي يعرب المرزوقي[٢] .

٣ – السببية وأثرها في أحكام الفقه . للدكتور : حمزة الفعر . جامعة أم القرى[٣] .

٤ – مفهوم السببية بين المتكلمين والفلاسفة ، وبين الغزالي وابن رشد ، دراسة تحليلية[٤] .

ولكن هذه الدراسة جاءت بعيدة عن منهج السلف ، ومؤيدة لابن رشد في استخدامه للعقل .

وهناك رسائل كتبت في التوكل ، وتطرقت بشيء من الاختصار إلى الأسباب ، والمسببات لم أشاء أن أستعرضها .

ولما وجدت أن هذا الموضوع مهم في العلم النظري ، والعلم العملي ، وجدت لزاماً عليّ الكتابة فيه والتوسع في موضوعاته ، لما في هذا الموضوع من أهمية في زيادة الإيمان بالله

---

(١) هذا الكتاب يناقش القضايا مناقشة عقلية ، بعيدة عن منهج السلف في عرض القضايا على الكتاب والسنة ، وهو موجود لدى الدكتور : بركات دويدار .

(٢) أيضاً هذا الكتاب فلسفي بحت ، بحيث يناقش السببية عند الغزالي بمفهومها الفلسفي ، دون الرد عليها . والكتاب موجود في المكتبة المركزية بجامعة أم القرى .

(٣) رسالة دكتوراه من قسم الشريعة ، خاصة بأصول الفقه دون الخوض في أصول الدين (العقيدة) . والرسالة موجودة في قسم الرسائل بجامعة أم القرى بالمكتبة المركزية .

(٤) دراسة وتحليل للدكتور جيراد جهامي . لدى الباحثة صورة من الكتاب ، وهو موجود بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، بالرياض .

عز وجل، ومعالجة لكثير من الإشكالات التي طرأت على فكر الأمة الإسلامية، من ترك للأسباب، إيثاراً للكسل والقعود، والتقاعس عن العمل، والبحث عن حجة لذلك يحتمي بها من النقد، ويجد الكسول في دعوى التوكل حجة له. رغم أنه خرج من دائرة التوكل إلى دائرة مايسمى بالتواكل، ورضى بالصدقات، وإحسان الناس عليه. وسبب ذلك طعناً في الإسلام، من جهة أنه بهذا المفهوم يعتبر دين جمود على حسب منظور الأعداء لهؤلاء الشرذمة القليين.

وهناك في الجانب الآخر نجد غلواً في الأسباب ، والماديات لدرجة الشرك بالله عز وجل، أو نسيانه تماماً.

ومذهب السلف - والحمد لله - هو المذهب الوسط بين الإفراط والتفريط في استخدام الأسباب مع التوكل على الله عز وجل، وبيان شبه المغالين، والمفرطين والرد عليهم لتوضيح الطريق الحق وهو ماسأوضحه في هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

والرسالة تبدأ بالمقدمة. ثم تمهيد وضحت فيه بعض المصطلحات المتعلقة بالبحث لتسهيل الفهم للقاريء، ولمعرفة الأسباب في معناها اللغوي، والاصطلاحي قبل الشروع في تفصيل الاعتقاد.

ثم قسمت الرسالة إلى بابين، وتحت كل باب أربعة فصول، وتحت الفصول مباحث، وتحت بعض المباحث مطالب.

## أولاً : الباب الأول : الأسباب عند أهل السنة والجماعة :

هذا الباب مقسم إلى أربعة فصول :

### الفصل الأول : الأمر باتخاذ الأسباب :

هذا الفصل أربعة مباحث :

**المبحث الأول : الأدلة من القرآن الكريم :**

بعض الآيات الشرعية، وبعض الآيات الكونية التي تثبت الأمر باتخاذ الأسباب .

**المبحث الثاني : الأدلة من السنة النبوية :**

بعض الأحاديث الدالة على أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - لأمته بالأخذ بالأسباب .

**المبحث الثالث : من سير الأنبياء عليهم السلام :**

بعض الأمثلة العملية من حياة الأنبياء عليهم السلام، تدل على أخذهم بالأسباب سواء الشرعية، أو الكونية، ولنا فيهم أسوة حسنة .

**المبحث الرابع : من سير السلف الصالح رضوان الله عليهم :**

بعض الأمثلة العملية من حياة السلف الصالح من صحابة ، وتابعين رضوان الله عليهم، لقرب عهدهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

### الفصل الثاني : الأمر بعدم الاعتماد على الأسباب عند الأخذ بها:

تحت هذا الفصل أربعة مباحث .

المبحث الأول : الأدلة من القرآن الكريم .

المبحث الثاني : الأدلة من السنة النبوية .

المبحث الثالث : من سير الأنبياء عليهم السلام .

المبحث الرابع : من سير السلف الصالح رضوان الله عليهم .

## الفصل الثالث: علاقة الأسباب ببعض قضايا العقيدة عند أهل السنة والجماعة :

وتحت هذا الفصل أربعة مباحث :

**المبحث الأول : علاقة الأسباب بالتوكل عند أهل السنة والجماعة :**

العلاقة بين الأسباب والتوكل على الله عز وجل .

**المبحث الثاني : علاقة الأسباب بالقدر عند أهل السنة والجماعة :**

العلاقة بين الأسباب والقدر ، وأن الأسباب من قدر الله عز وجل .

**المبحث الثالث : علاقة الأسباب بالدعاء عند أهل السنة والجماعة :**

العلاقة بين الأسباب والدعاء، وكيف أن الله عز وجل جعل الدعاء مقتضياً للإجابة بإذنه تعالى .

**المبحث الرابع : علاقة الأسباب بالخوارق عند أهل السنة والجماعة :**

ففي هذا المبحث سوف أوضح العلاقة بين الأسباب والخوارق «المعجزة، الكرامة، السحر . . .» .

## الفصل الرابع : الآثار المترتبة على اتخاذ الأسباب :

وتحت هذا الفصل ثلاثة مباحث :

**المبحث الأول : الآثار المترتبة علي اتخاذ الأسباب الكونية، وأحكامها .**

**المبحث الثاني : الآثار المرتبة على اتخاذ الأسباب الشرعية .**

**المبحث الثالث :**

في هذا المبحث وضحت الأسباب الوهمية «كالتطير، والكهانة، والتشاؤم، والاستشفاء بآثار الصالحين. . . وغيرها»، وآثارها.

## ثانياً : الباب الثاني : الأسباب عند المذاهب المخالفة :

تحت هذا الباب أربعة فصول :

## الفصل الأول : الأسباب عند الفلاسفة :

قسمت هذا الفصل إلى أربعة مباحث :

**المبحث الأول : تقرير مذهب الفلاسفة في الأسباب .**

**المبحث الثاني : شبهة الفلاسفة في الأسباب والرد عليها .**

**المبحث الثالث : موقف الفلاسفة من العلاقة بين الأسباب وبعض قضايا العقيدة :**

**المبحث الرابع : الآثار المترتبة على المذهب والشبه .**

## الفصل الثاني : الأسباب عند المعتزلة :

قسمت هذا الفصل إلى أربعة مباحث :

المبحث الأول : تقرير مذهب المعتزلة في الأسباب .

المبحث الثاني : شبهة المعتزلة في الأسباب والرد عليها ، وموقفهم من ذلك .

المبحث الثالث : موقف المعتزلة من العلاقة بين الأسباب وبعض قضايا العقيدة .

المبحث الرابع : الآثار المترتبة على موقف المعتزلة من الأسباب .

## الفصل الثالث : الأسباب عند الأشاعرة :

قسمت هذا الفصل إلى أربعة مباحث :

المبحث الأول : تقرير مذهب الأشاعرة في الأسباب .

المبحث الثاني : شبهة الأشاعرة في الأسباب والرد عليها .

المبحث الثالث : موقف الأشاعرة من العلاقة بين الأسباب وبعض قضايا العقيدة .

المبحث الرابع : الآثار المترتبة على موقف الأشاعرة من الأسباب .

## الفصل الرابع : الأسباب عند الصوفية :

قسمت هذا الفصل إلى أربعة مباحث :

المبحث الأول : تقرير مذهب الصوفية في الأسباب .

المبحث الثاني : شبهة الصوفية في الأسباب والرد عليها .

المبحث الثالث : موقف الصوفية من العلاقة بين الأسباب وبعض قضايا العقيدة .

المبحث الرابع : الآثار المترتبة على موقف الصوفية من الأسباب .

## بعض الصعوبات التي وجدتها في أثناء البحث :

١ - قلة المادة العلمية المتعلقة بالأسباب في الكتب .

٢ - صعوبة الحصول على الكتب من خارج المملكة نظراً لظروفي الخاصة .

٣ - تغير المشرفين بأسباب خارجة عن إرادة الطالب .

## بعض ما التزمت به في هذا البحث :

١ - حاولت ما أمكنني مراعاة الصحيح في الأمثلة والأدلة، واستغنيت بالبخاري ومسلم عما سواهما إلا في بعض المواضع ذكرت للترمذي وأبي داود والحاكم، وذكرت حكم العلماء على تلك الأحاديث .

٢ - أسهبت في ذكر المصطلحات الأولية، وذلك لتوضيح معتقدات الفرق التي سنذكرها، وجعلتها جميعاً في تمهيد الرسالة لتسهيل الفهم على القاريء .

٣ - حاولت أن أصنع البحث بأسلوبي الخاص متجنبة التأثر بأي شخصية علمية عليَّ. فلذلك رجعت إلى الأمهات وتركت الكتب الحديثة ماأمكنني .

٤ - أحببت في هذا البحث أن أظهر الجانب التطبيقي للعقيدة، وأخرجه من المنظور النظري لها، إلى المنظور التطبيقي، فرجوت من الله - عز وجل - أن يوفقني في هذا البحث إلى أن أظهر شيئاً من التطبيق على الواقع، ليكون الاعتقاد بالأخذ بالأسباب شيئاً مشاهداً عملياً مع ربطه بالتوكل على الله عز وجل .

٥ - أجملت في الردود على الشبه، والآثار، ولم أفصلها تفصيلاً تاماً، لأن الغرض من البحث تبيين الشبه التي أدت إلى انحراف الاعتقاد، والآثار المترتبة على ذلك، لأن موضوعنا موقف أهل السنة والجماعة من الأسباب وآراء المخالفين، فموقف أهل السنة والجماعة قد وضح من خلال البحث إن شاء الله تعالى.

٦ - أما بالنسبة لما اتبعته في توثيق النصوص بالرسالة فكما يلي :

أ - بالنسبة للآيات القرآنية فسوف أكتب السورة، ورقم الآية مباشرة خلف الآية.

ب - بالنسبة للأحاديث النبوية :

١ - إذا كان الحديث له طرق عدة في البخاري ومسلم اكتفيت بطريق البخاري، وطريق مسلم. أو أحدهما.

٢ - في الهامش أخرج الحديث على حسب الترتيب التالي :

أخرجه فلان، في كذا، في كتاب كذا، في باب كذا، ج، ص.

جـ - أما بالنسبة للكتب والاقتباسات الأخرى فأذكر في الهامش حسب الطريقة التالية :

اسم المؤلف، اسم الكتاب، اسم المحقق، ج، ص.

١ - هذا إذا استخدمت الكتاب لأول مرة.

٢ - أما إذا تكرر الاقتباس منه فيكون كالتالي :

اسم المؤلف، اسم الكتاب (مختصراً)، ج، ص.

٣ - إذا اقتبست من الكتاب مرتين في نفس الصفحة، ولم يفصل بينهما شيء، أكتب المصدر نفسه، وإذا كان في الصفحة التالية لها، أكتب المصدر السابق، ص.

د - ذيلت البحث بفهارس توضيحية وهي على النحو التالي :

١ - فهرس الآيات القرآنية، السور حسب ترتيب القرآن، وتحت كل سورة آياتها المذكورة حسب ترتيب المصحف.

٢ - فهرس الأحاديث ، على حسب الترتيب الهجائي.

٣ - فهرس الأعلام المترجم لهم، وقد ترجمت لكل أعلام الرسالة. ورتبتهم على حسب الترتيب الهجائي. وهناك بعض الشخصيات ترجمت لهم في فهرس الأعلام، إما لعدم الانتباه لهم إلا بعد طبع الرسالة، أو لعدم حصولي على الترجمة إلا في وقت متأخر .

٤ - فهرس الكلمات الغريبة.

٥ - فهرس الفرق .

٦ - فهرس المصادر والمراجع.

٧ - فهرس الموضوعات.

ونسأل الله - عز وجل- أن يمدنا بعونه وتوفيقه في أثناء كتابة هذا البحث وبعده، ونحب أن نشير إلى قول العلماء :

أنه لايؤلف أحد كتاباً إلا في أحد أقسام سبعة ولايمكن التأليف في غيرها[١] :

١ - إما أن يؤلف من شيء لم يسبق إليه يخترعه .

٢ - أو شيء ناقص يتممه .

٣ - أو شيء مستغلق يشرحه .

٤ - أو طويل يختصره ، دون أن يخل بمعانيه .

٥ - أو شيء مختلط يرتبه .

٦ - أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه .

٧ - أو شيء مفرق يجمعه .

وأحسب أنني من القسم السابع ، جمعت شيئاً تفرّق في كتب العلماء .

وفي الختام أحمد الله تعالى ، وهو للحمد أهل ، أن وفقني لإنجاز هذا العمل ، على مافيّ من ضعف البشر ، وقصر النظر ، فما كان فيه من صواب وتسديد فهو من الله عز وجل ، وماكان فيه من نقص أو خطأ فمن نفسي والشيطان أعاذنا الله منه .

وأرى لزاماً عليّ أن أعترف بالفضل لأهله ، وأن أشكر كل من مدّ لي يد العون في هذا البحث .

مع اعترافي بالعجز عن تقديم الشكر الذي في نفسي لهؤلاء . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجعل لنا الخيرة في أمر من الأمور حيث قال : من صنع إليك معروفاً فقلت له : جزاك الله خيرا فقد أبلغت في الثناء .

فجزى الله - عز وجل - الوالدين خير الجزاء ، ثم الأخوة والأخوات الذين ساعدوني بكلمة أو بإرشاد . وأعترف بكل الفضل وكل الشكر بعد الله عز وجل لشيخنا

---

(١) شمس الدين البابلي المتوفى سنة ١٠٧٧هـ، ذكره ملا المليجي ، محمد بن آمين بن فضل الله ، في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٤/ ١ ، ط القاهرة ١٢٨٤هـ. نقلاً عن كتاب : دستور الأخلاق في القرآن ، لعبدالله دراز .

فضيلة الدكتور : **بركات عبدالفتاح دويدار** الذي كانت له اليد الطولى في هذا البحث، وهو المشرف على الرسالة، وأشكر الشيخ الدكتور : **أحمد البناني** الذي تولى الإشراف من بعده . فجزاهما الله عني وعن جميع من انتفع بهما خير الجزاء . وجعله في ميزان حسناتهما يوم القيامة .

وأشكر كل من كان له أي معونة مادية أو معنوية سواء كان قاصداً أو غير قاصد .

وأتقدم بالشكر الجزيل للشيخ الدكتور : **عبدالله الدميجي** ، والشيخ الدكتور **أحمد السايح** على موافقتهما على مناقشة الرسالة، مع انشغالهما الشديد . فأرجو من الله عز وجل أن يكلأ الجميع بعنايته ، وأن يتولى جزاءهم عني فهو نعم المولى ونعم النصير .

ولا يخلو قاريء للبحث أو كاتب من قول : لو زاد هذا لكان أحسن، ولو لم يفعل هذا لكان مستحسناً . لقول ابن القيم رحمه الله في مقدمة طريق الهجرتين : «فيأيها القارئ له، والناظر فيه، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك، وهذا فهمه وعقله معروض عليك، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه، ولك ثمرته وعليه عائدته، فإن عدم منك حمداً وشكراً، فلا يعدم منك عذرا، وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح . . . » .

فنسأل الله – عز وجل – أن يجعله في ميزان حسناتنا، ويكون علما نافعاً . قال صلى الله عليه وسلم : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» .

فنسأل الله عز وجل أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم .

**مقدمة البحث**

**ليلى نوري الحربي**

# التمهيد

المبحث الأول : تعريف الأسباب لغة .

تعريف الأسباب اصطلاحاً .

المبحث الثاني : تعريف ببعض المصطلحات المتعلقة بالسببية «الأسباب والمسببات» :

- السبب ، المسبب ، النتيجة .
- العلة ، المعلول .
- الفعل ، الفاعل ، المفعول .
- الحدث ، المحدث ، المحدث .
- الخلق ، الخالق ، المخلوق .
- الابتداع ، البديع .
- الغاية ، الهدف ، الحكمة .

# المبحث الأول

# تعريف الأسباب

- لغة .
- اصطلاحاً عند كل من :

* أهل السنة والجماعة .
* الفلاسفة .
* المعتزلة .
* الأشاعرة .
* الصوفية .

## تعريف الأسباب في اللغة :

من معانيها في اللغة :

هو كل مايتوصل به إلى الشيء[١] .

وهو يكون بأشياء منها « أو يقع في أشياء» :

أولها : المودة والصلات :[٢]

قال تعالى : ﴿ **وتقطعت بهم الأسباب** ﴾ «سورة البقرة : ١٦٦» قال ابن عباس : المودة . وقال مجاهد : تواصلهم في الدنيا .

ثانياً : المنازل :[٣]

قال الشاعر :

وتقطعت أسبابها ورمامها[*]

أسبابها : أي : منازلها .

ثالثاً : أسباب السماء[٤] : وهي بمعانٍ عدة منها :

١ - مراقيها :

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص١٣٩ . - السيد الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق إبراهيم الترزي، ج٣، ص٣٨. - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص١١٧ . - التهانوي، اصطلاحات العلوم الإسلامية، ج٣، ص٦٢٦ .

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص١٣٩ . - السيد الزبيدي، تاج العروس، ج٣، ص٣٩ . - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٩٣ .

(٣) المصدر نفسه .

(*) رمامها : أحبالها البالية . «ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٣٢٣» .

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص١٣٩ . - السيد الزبيدي ، ج٣، ص٣٩ .

قال زهير[*] :

ومن هاب أسباب المنية يلقها ولو رام[**] أسباب السماء بسلم

أسباب السماء : أي مراقيها .

٢ - نواحيها :

قال الأعشى[***] :

لئن كنت في جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم

ليستدرجنك الأمر حتى تهره[****] وتعلم أني لست عنك بمحرم[*****]

أسباب السماء : أي نواحيها .

٣ - أبوابها :

قال تعالى : ﴿ **لعلي أبلغ الأسباب . أسباب السموات** ﴾ « سورة غافر : ٣٦» .

الأسباب : أي أبوابها[١] .

---

(*) زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني، من مضر، ت١٣ق.هـ، حكيم الشعراء بالجاهلية. «الزركلي، الأعلام، ج٣، ص٥٢».

(**) رام: بمعنى الطلب، أي ولو طلب مراقي السماء بسلم. «ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٣٧٧».

(***) الأعشى: اسمه ميمون بن قيس بن جندل ، لقب بالأعشى لضعف بصره، عاش في أواخر العصر الجاهلي، ت٦٢٩م مقتولاً، سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم ولم يسلم ، كان شاعراً غزلياً فاحشاً. «شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص٣٣٣-٣٦٦».

(****) تهرة : تكره - .

(*****) بمحرم: أي الذي لايستبيح الدماء» . «ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص١٣٩».

(١) المصادر السابقة. - التهانوي، اصطلاحات العلوم الإسلامية، ج٣، ص٦٢٦. - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٨١.

رابعاً : الحبل[١] :

قال تعالى : ﴿ **فليمدد بسبب إلى السماء** ﴾ « سورة الحج : ١٥ » والسبب : أي الحبل .

## تعريف الأسباب في الاصطلاح :

## أصطلاحاً :

### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

أهل السنة والجماعة لم يعرِّفوا السبب تعريفاً اصطلاحياً وإنما اعتمدوا على التعريف اللغوي . والتعريف عند الأصوليين .

أ - يقول ابن حجر[*] : «يقول الطبري : الأسباب جمع سبب ، وهو كل مايتسبب به إلى طلبه وحاجته ، فيقال للحبل سبب ، لأنه يتوصل به إلى الحاجة التي يتعلق به إليها ، وللطريق سبب ، للتسبب بركوبه إلى مالا يدرك إلا بقطعه ، وللمصاهرة سبب للحرمة ، وللوسيلة سبب ، للوصل بها إلى الحاجة . . . »[٢] .

---

(١) المصادر السابقة . - التهانوي ، اصطلاحات العلوم الإسلامية ، ج٣ ، ص٦٢٦ . - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٣ ، ص ٢٠٤ .

(*) أحمد بن علي بن محمد بن حجر الكناني العسقلاني ، من أئمة العلم والتاريخ ، كان فصيح اللسان ، رحل إلى اليمن والحجاز وغيرها لسماع الشيوخ ، قال السخاوي : «انتشرت مصنفاته في حياته وتهاداها الملوك وكتبها الأكابر» ، منها «فتح الباري شرح صحيح البخاري» ، «لسان الميزان» ، «الاصابة في تمييز أسماء الصحابة» ، «تهذيب التهذيب» وغيرها كثير ، ولد وتوفي في القاهرة ، ولد عام ٧٧٣هـ ، وت عام ٨٥٢هـ . «انظر : شذرات الذهب ، لابن العماد ، ج٧ ، ص٢٧٠ . الزركلي ، الأعلام ، ج١ ، ص١٧٨» .

(٢) ابن جرير الطبري ، تفسيرجامع البيان في تفسير القرآن ، ج٢ ، ص٤٣ . - ابن حجر ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب قوله تعالى ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون﴾ ، ج١١ ، ص٤٠٠-٤٠١ .

ب - عند الأصوليين : «السبب . مايلزم من وجوده الوجود، ولا يلزم من عدمه العدم لذاته كقوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس . . . ﴾ الإسراء : ٧٨ . فالدلوك سبب لوجوب الصلاة عنده . . »[١] .

**٢ - عند الفلاسفة :**

يسمى بالمبدأ[*] أيضاً، وهو مايحتاج إليه الشيء، إما في ماهيته أو في وجوده وذلك الشيء يسمى مسببا[٢] .

وترادفه العلة[٣] .

وتنقسم إلى قسمين[٤] :

---

(١) ابن النجار، شرح الكواكب المنير، تحقيق الزحيلي، نزيه، ج١، ص٤٤٥-٤٤٧ .

(*) المبدأ : يقال لكل مايكون قد استتم له وجود في نفسه إما عن ذاته وإما عن غيره ثم يحصل عنه وجود شيء آخر ويتقوم به ثم لايخلو إما أن يكون كالجزء لما هو معلول له أو لايكون كالجزء - فإن كان كالجزء فإما أن يكون جزءاً ليس يجب عن حصوله بالفعل أن يكون ماهو معلول له موجوداً بالفعل - وهذا هو العنصر فإنك تتوهم العنصر موجوداً ولايلزم من وجوده بالفعل وحده أن يحصل الشيء بالفعل بل ربما كان بالقوة - وإما أن يجب عن وجوده بالفعل وجود المعلول له بالفعل وهذا هو الصورة . مثال الأول الخشب للسرير ، مثال الثاني الشكل والتأليف للسرير ، وإن لم يكن كالجزء فإما أن يكون مباينا أو ملاقيا لذات المعلول . فإن كان ملاقيا فإما أن ينعت المعلول به وهذا هو كالصورة للهيولي ، وإما أن ينعت بالمعلول ، وهذا هو كالموضوع للعرض وإن كان مباينا فإما أن يكون الذي منه الوجود وليس الوجود لأجله وهو الفاعل - وإما أن لايكون منه الوجود بل لأجله الوجود وهو الغاية . «انظر : ابن سينا، النجاة، ص٢١١» .

(٢) ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ج٢، ص٤٤١-٤٤٦ . - التهانوي، اصطلاحات العلوم الإسلامية، ج٣، ص٦٢٦ .

(٣) التهانوي، اصطلاحات العلوم الإسلامية، ج٣، ص٦٢٦ .

(٤) المصدر نفسه .

١ - السبب التام : هو الذي يوجد المسبب بوجوده فقط .

٢ - السبب الناقص : هو الذي يتوقف وجود المسبب عليه ولكن لايوجد المسبب بوجوده فقط .

وينقسم إلى أربعة أقسام[١] :

١ - سبب مادي : وهو ماكان داخلاً في الشيء، وكان الشيء معه بالقوة، كالخشب مثلاً .

٢ - سبب صوري : وهو ماكان داخلاً في الشيء، وكان الشيء معه بالفعل، كالسرير مثلاً .

٣ - سبب فاعلي : وهو ماكان غير داخل في الشيء، وكان مؤثراً في وجوده، كالنجار مثلاً .

٤ - سبب غائي : وهو ماكان غير داخل في الشيء، وكان مؤثراً في فاعلية فاعله، للراحة مثلاً .

وقيل : إنّ السبب هو[٢] : مايترتب عليه مسبب عقلاً أو واقعاً، فالمقدمات الصادقة سبب صدق النتيجة .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، ص ٩٦ .

وبعض الظواهر الطبيعية سبب ظواهر أخرى . وهذا هو المعنى العلمي السائد اليوم - بزعمهم - .

**٣ - عند المعتزلة :**

هو كل مايتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة .

قال تعالى : ﴿ **إنا مكنا له في الأرض واءتيناه من كل شيء سببا . فأتبع سببا** ﴾ «سورة الكهف : ٨٤-٨٥» .

قال الزمخشري(*) : « . . . ﴿من كل شيء﴾ أي : من أسباب كل شيء أراده من أغراضه ومقاصده في ملكه . ﴿سببا﴾ طريقاً موصلاً إليه ، والسبب مايتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة» أ . هـ[١] .

**٣ - عند الأشاعرة :**

قال الجرجاني(**) : «السبب عبارة عما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه . » أ . هـ[٢] وذلك بناء على مذهبهم وقولهم بالعادة «أن السبب غير مؤثر في الوجود ، إنما الخالق هو المؤثر ، والسبب ماهو إلا وسيلة إليه» .

---

(*) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري ، جارالله ، أبوالقاسم ، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب ، وكان معتزلي المذهب ، مجاهراً ، شديد الإنكار على المتصوفة ، أكثر من التشنيع عليهم في الكشاف وغيره ، له عدة مصنفات منها : «الكشاف» ، «أساس البلاغة» ، وغيرها . ولد سنة ٤٦٧هـ في زمخشر ، ت سنة ٥٣٨هـ في الجرجانية . « شذرات الذهب ، لابن العماد ، ج٤ ، ص١١٨ . - وانظر : سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ج٢٠ ، ص١٥١ . - الأعلام ، ج٧ ، ص١٧٨» .

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ج٢ ، ص٤٩٧ .

(**) علي بن محمد بن علي ، المعروف بالشريف الجرجاني : فيلسوف . من كبار العلماء بالعربية . له مصنفات عدة منها «التعريفات» ، «شرح المواقف للإيجي» ، وغيرها . ولد سنة ٧٤٠هـ في تاكو ، ت سنة ٨١٦هـ في شيراز . «الأعلام ، ج٥ ، ص٧» .

(٢) الجرجاني ، التعريفات ، ص ١١٧ .

يقول الزركشي(*) : «وهو في اللغة(**) : عبارة عما يحصل الحكم عنده لا به؛ لأنه ليس بمؤثر في الوجود، بل وسيلة إليه.» أ. هـ[1].

**٤ - عند الصوفية(***) :**

السبب الواحد العام هو الله.

وهناك أسباب نوعية :

«الأسباب الخاصة النوعية إنما هي أمور اختلقها العقل في محاولته فهم حقيقة الوجود» أ. هـ[2].

أما عند الصوفية غير الغلاة :

فالسبب هو : العمل فيما يتوصل به إلى غرض دنيوي[3].

---

(*) محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي، أبوعبدالله، بدر الدين، عالم بفقه الشافعية والأصول. له عدة مصنفات منها «البحر المحيط»، «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة»، وغيرها. ولد سنة ٧٤٥هـ، توفى سنة ٧٩٤هـ في مصر. «الأعلام، ج٦، ص٦٠، ٦١».

(**) ماقاله الزركشي في معنى السبب لغة مخالف لقول أهل اللسان فإنهم قالوا عن السبب: أنه كل شيء يتوصل به إلى غيره. وهو كذلك في عرف الفقهاء فإنهم يقولون عن السبب بإنه ماتوصل به إلى الحكم، وأما ماقاله الزركشي فهو إصطلاح المتكلمين لا تعريف اللغويين ولذلك ذكرناه هنا.» «انظر: المسائل المشتركة بين أصول الدين وأصول الفقه، لمحمد العروسي، ص١٨٠».

(١) الزركشي، البحر المحيط، ج٢، ص٦.

(***) وهذا التعريف يمثل تعريف أصحاب التصوف الفلسفي.

(٢) ابن عربي، فصوص الحكم، ج٢، ص٢٣٩.

(٣) الشيخ زروق، حكم ابن عطاء شرح العارف بالله الشيخ زروق، تحقيق: عبدالحليم محمود، محمود بن الشريف، ص٣٥.

# المبحث الثاني

## تعريف ببعض المصطلحات المتعلقة بالسببية

## «الأسباب والمسببات»

أولا: السبب ، المسبب ، النتيجة .

ثانياً : العلة ، المعلول .

ثالثاً : الفعل ، الفاعل ، المفعول .

رابعاً : الحدث ، المحدث ، المحدث .

خامساً : الخلق ، الخالق ، المخلوق .

سادساً : الابتداع ، البديع .

سابعاً : الغاية ، الهدف ، الحكمة .

## أولاً : السبب ، المسبب ، النتيجة :

### أ - السبب :

قد سبق بحثه[١] .

### ب - المسبب :

**في اللغة :** المسبِّب بالكسر هو الفاعل ، والمسبَّب بالفتح اسم مفعول من السبب ، يسبب مسبباً. وقد يأتي بمعنى النتيجة .

### اصطلاحاً :

#### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

يرى أهل السنة والجماعة أنّ الله - عز وجل - خلق الأشياء كلها، وأودع في كل منها خصائصها اللازمة لها والتي تنشأ عنها آثارها. وهذه الآثار هي النتائج والمسببات[٢] .

#### ٢ - عند الفلاسفة :

هو الشيء الذي يحتاج إلى السبب، إما في ماهيته أو في وجوده . وذلك الشيء يسمى مسببا[٣] .

#### ٣ - عند المعتزلة :

هو مايحدثه الفاعل بواسطة .

---

(١) راجع المبحث الأول من هذا التمهيد .

(٢) ابن تيمية، الفتاوي، ج٣، ص١١٣ . بتصرف. - ابن القيم، مدارج السالكين، ج٣، ص٤٠٧ . بتصرف. - محمد العبده، وطارق عبدالحليم، المعتزلة بين القديم والحديث ، ص ٦٠ .

(٣) التهانوي، اصطلاح العلوم الإسلامية، ج٣، ص٦٢٦ . - ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ج٢، ص٤٤١-٤٤٦ .

قال القاضي عبدالجبار[*] : « . . . لأن المسبب في أنه يتعلق بالفاعل كالسبب، وإنما يحدثه بواسطة . . . »[١] .

## ٤ - عند الأشاعرة :

هو ماينشأ عند السبب دون تأثير للسبب في ذلك، كالشبع عند الأكل[٢] .

## ٥ - عند الصوفية :

المسبب هو أثر من الآثار الناتجة عن السبب[٣] .

## جـ - النتيجة :

### في اللغة :

يقال نتجت الناقة إذا ولدت ، فهي منتوجة، وأنتجت إذا حملت .

ومن المجاز : الريح تنتج السحاب : تمريه حتى تخرج قطره .

فالنتيجة : ما تولد عن الشيء[٤] .

### في الاصطلاح[٥] :

من التعاريف السابقة للمسبب نجد أن النتيجة قد تأتي بمعنى المسبب، وهو مايهمنا في هذا التمهيد .

وهي بذلك - أي النتيجة - بعد أن يتحقق تأثير السبب يكون هذا التأثر أو الأثر الناتج هو المسبب أو النتيجة .

إذن النتيجة والمسبب هو التأثير أو الأثر الناتج عن السبب .

---

(*) عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبار الهمذاني الأسدآبادي، أبوالحسين، قاض، أصولي، كان شيخ المعتزلة في عصره. وهم يلقبونه قاضي القضاة، من مصنفاته «شرح الأصول الخمسة»، «المغني في أبواب التوحيد والعدل»، «المجموع المحيط بالتكليف». ولي الرَّي، ومات سنة ٤١٥هـ. «شذرات الذهب، لابن العماد، ج٣، ص٢٠٢. - وانظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج١٧، ص٢٤٤. - الأعلام، ج٣، ص٢٧٣»،

(١) القاضي عبدالجبار، المغني، ج٨، ص٩٩ . بتصرف.

(٢) الغزالي، تهافت الفلاسفة، ص ٢٤٠-٢٤١ . بتصرف . - راجع ص ٢٦ من هذا التمهيد.

(٣) ابن عربي، فصوص الحكم، ج٢، ص٢٤٠ .

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص٣٢. - الزبيدي، تاج العروس، ج٦، ص٢٣٠-٢٣٢ .

(٥) راجع تعريف المسبب في اللغة والاصطلاح في هذا التمهيد .

## ثانيا : العلة والمعلول :

### أ - العلة :

### في اللغة :

العلة في اللغة تأتي بعدة معاني :

١ - العلة بمعنى الضرة . وبنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شتى .

٢ - والعلة بمعنى المرض : عل يعل واعتل أي مرض ، فهو عليل .

٣ - والعلة بمعنى الحدث يشغل صاحبه عن حاجته .

٤ - العلة : السبب .

وفي المحكم : وهذا علة لهذا أي : سبب له .

وفي حديث عائشة - رضي الله عنها - : فكان عبدالرحمن(*) يضرب رجلي بعلة الراحلة(**)، أي : بسببها(١) .

---

(*) عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - «عبدالرحمن بن أبي قحافة» أبوبكر الصديق، القرشي التميمي، صحابي، ابن صحابي، كان أسمه في الجاهلية عبدالكعبة، وكان من أشجع قريش وأرماهم بسهم، حضر اليمامة، وشهد غزوة إفريقية، وحضر وقعة الجمل، مات بمكة سنة ٥٣هـ. «الاستيعاب، لابن عبدالبر، ج٢، ص٣٩٩-٤٠٢. - شذرات الذهب، ج١، ص٥٩. - سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٤٧١. - الإصابة، ج٢، ص٤٠٧-٤٠٨».

(**) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب وجوه الإحرام، وأنه يجوز افراد الجمع والتمتع والقران، وجواز ادخال الحج على العمرة، ومتى يحل القارن من نسكه، ج٢، ص٨٨٠.

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص٣٦٧. - الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص٣٢.

## في الاصطلاح :

### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

تعريف العلة عند أهل السنة والجماعة كالسبب سابقاً عرفت بمعناها اللغوي ومعناها عند الأصوليين :

أ - في اللغة : قد سبق عرضه .

ب - عند الأصوليين : يقول ابن تيمية[١] أن لفظ العلة فيه نزاع :

١ - تارة يراد به العلة التامة وهو مجموع مايستلزم الحكم، بحيث إذا وجد وجد الحكم، ولايتخلف عنه . وهذه العلة متى تخصصت وانتقضت فوجد الحكم بدونها دل على فسادها .

٢ - وقد يراد بلفظ العلة مايقتضي الحكم وإن توقف على ثبوت شروط وانتفاء موانع، وقد يعبر عن ذلك بلفظ السبب . يقول ابن حجر : «قوله «باب من قام» أي صلى «إلى جنب الإمام لعلة» أي : بسبب اقتضى ذلك»[٢] .

### ٢ - عند الفلاسفة :

مايحتاج الشيء في ماهيته، كالمادة والصورة، أو في وجوده، كالغاية والفاعل والموضوع، وذلك الشيء المحتاج يسمى معلولا[٣] .

---

(١) راجع ص ٢٣ من هذا التمهيد . - ابن تيمية، الفتاوى، ج٢١، ص٣٥٦ .

(٢) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من قام من جنب الإمام لعلة، ج٢، ص١٩٥ .

(٣) التهانوي، اصطلاحات العلوم الإسلامية، ج٤، ص١٠٣٨ .

ويقول الغزالي[*] : العلة : كل ذات وجود ذات آخر إنما هو بالفعل من وجود هذا الفعل، ووجود هذا بالفعل ليس من وجود ذلك بالفعل. وتطلق على أربعة أمور :

الأول : مامنه بذاته الحركة، وهو السبب في وجود الشيء ويسمى العلة الفاعلة، أو الفاعلية، كالنجار والكرسي.

الثاني : مالابد من وجوده لوجود الشيء، ويسمى العلة المادية.

الثالث : مابحصوله يتم الشيء، ويسمى العلة الصورية.

الرابع : الموجود عقيب الشيء، ويسمى العلة الغائية»أ. هـ[١].

## ٣ - عند المعتزلة :

العلة هي : الموجبة للحكم بذاتها، لابجعل الله.

وقالوا : هي وصف ذاتي لايوقف على جعل جاعل، ويعبرون عنه -أحياناً- بالمؤثر. وتارة بالعلة. بناء على قاعدتهم في التحسين والتقبيح[٢].

ويقول القاضي عبدالجبار : «العلة هو مايثبت الحكم بثباته، ويزول بزواله»[٣].

## ٤ - عند الأشاعرة :

عبارة عما يجب الحكم به معه[٤].

يقول الزركشي : «العلة مايتوقف المعلول عليه ويحصل الشيء به لا عنده. بعكس السبب»[٥].

---

(*) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبوحامد، حجة الأسلام، كان فيلسوفاً، متصوفاً، له نحو مائتي مصنف منها «تهافت الفلاسفة»، «الاقتصاد في الاعتقاد»، «إحياء علوم الدين». ولد سنة ٤٥٠هـ، ت سنة ٥٠٥هـ، في الطابران بخراسان. «انظر : شذرات الذهب، لابن العماد، ج٧، ص١٩٦. - سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج١٩، ص٣٢٢. - الأعلام، للزركلي، ج٧، ص٢٢».

(١) الغزالي، معيار العلم، ص ٢٩٣-٣٦٤، ص٢٥٨.

(٢) الزركشي، البحر المحيط، ج٧، ص١٤٤.

(٣) القاضي عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، ص٢٧٣.

(٤) الجرجاني، التعريفات، ص١٥٤.

(٥) الزركشي، البحر المحيط، ج٧، ص ١٤٧.

ويقول أيضاً - نقلاً عن فخرالدين الرازي[*] - : «العلة هي الموجبة بالعادة»[١].

### ٥ - عند الصوفية :

العلة : هي تنبيه الحق لعبده بسبب أو بغير سبب[٢].

## ب - المعلول :

### في اللغة :

اسم مفعول من العلة . علل معلولا .

### في الاصطلاح :

### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

المعلول الأثر الناتج عن العلة، والمسبب الأثر الناتج عن السبب، وقد سبق أن وضحنا أن العلة قد تأتي بمعنى السبب، فالمعلول قد يأتي بمعنى المسبب. وهذا مايهمنا هنا[٣].

### ٢ - عند الفلاسفة :

المعلول : هو كل ذات وجوده بالفعل من وجود غيره، ووجود ذلك الغير ليس من وجوده[٤].

---

(*) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبوعبدالله، فخرالدين الرازي : الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. له عدة مصنفات منها : «مفاتيح الغيب»، «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين»، «أساس التقديس». ولد سنة ٥٤٤هـ، ت سنة ٦٠٦هـ. «سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٥٠٠. - الأعلام، للزركلي، ج٦، ص٣١٣».

(١) الزركشي، البحر المحيط، ج٧، ص ١٤٤ .

(٢) الجرجاني، التعريفات، «الاصطلاحات الصوفية الواردة في الفتوحات المكية لابن عربي»، ص٢٣٨.

(٣) راجع ص ٣٢ من هذا التمهيد .

(٤) الغزالي، معيار العلم، ص٢٩٣، ص٣٨٠.

يقول التهانوي(*) : «هو الشيء الذي يحتاج إلى العلة إما في ماهيته، كالمادة والصورة، أو في وجوده، كالغاية والفاعل والموضوع»(١) .

وقيل : المعلول هو مايحدث عن علة ويقابلها تماماً(٢) .

## ٣ - عند المعتزلة :

المعلول : هو الحكم الذي يثبت بثبات العلة، ويزول بزوالها(٣) .

## ٤ - عند الأشاعرة :

المعلول : هو الشيء الذي يتوقف وجوده على العلة، وتكون خارجة عنه ومؤثرة فيه(٤) .

## ٥ - عند الصوفية :

المعلول هو : الشيء المفتقر افتقاراً كلياً إلى الله، أو إلى غيره .

ومعلولية العالم في جملته، ومعلولية أجزاء العالم بافتقار بعضه إلى بعض .

والافتقار النسبي ماهو إلا اسم على غير مسمى(٥) .

---

(*) محمد بن علي بن القاضي محمد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، باحث هندي. له عدة مصنفات منها : «كشاف اصطلاحات الفنون»، «سبق الغايات في نسق الآيات». ت سنة ١١٥٨هـ. «الأعلام، الزركلي، ج٦، ص٢٩٥ .

(١) التهانوي، اصطلاحات العلوم الإسلامية، ج٤، ص١٠٣٨ .

(٢) المعجم الفلسفي، ص١٨٧ .

(٣) القاضي عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، ص٢٧٣ . بتصرف. - راجع ص ٣٣ من هذا التمهيد.

(٤) الجرجاني، التعريفات، ص ١٥٤ . بتصرف.

(٥) ابن عربي، فصوص الحكم، ج٢، ص١١٦ .

## ثالثاً : الفعل ، الفاعل ، المفعول :

### أ - الفعل :

### في اللغة :

الفعل : كناية عن كل عمل متعد أو غير متعد. وقال الصنعاني(*) : هو إحداث كل شيء من عمل أو غيره، فهو أخص من العمل.

والفعل بالكسر : حركة الإنسان. وقيل : إنه كناية عن كل عمل متعدٍ، أو غير متعدٍ كما في المحكم.

وقيل : الهيئة العارضة للمؤثر في غيره بسبب التأثير أولاً، كالهيئة الحاصلة للقاطع بسبب كونه قاطعاً.

قال ابن الكمال(**) وقال الراغب(***) : الفعل : التأثير من جهة مؤثر، وهو عام لما كان بإيجاده أو بغيره.

ولما كان بعلم أو بغيره، ولما كان يقصد أو غيره، لما كان من إنسان أو حيوان أو جماد. والعمل والصنع أخص منه.

وقال الحراني(****) : الفعل : ماظهر من داعيه . . . الخ[1].

---

(*) الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي العمري الصاغاني الحنفي رضى الدين. أعلم أهل عصره في اللغة، كان فقيها محدثاً. له عدة مصنفات منها «مجمع البحرين»، «الشوارد في اللغات»، ولد سنة ٥٧٧هـ في لاهور بالهند، وتوفى سنة ٦٥٠هـ في بغداد. «انظر : سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ٢٨٢. - الأعلام، الزركلي، ج٢، ص٢١٤».

(**) لم أجده.

(***) الحسين بن محمد بن المفضل، أبوالقاسم الاصفهاني «أو الأصبهاني» المعروف بالراغب، أديب من الحكماء العلماء، من أهل أصبهان، له عدة مصنفات منها «المفردات في غريب القرآن»، «تحقيق البيان»، «أفانين البلاغة». ت سنة ٥٠٢هـ. «انظر : سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٢٨٢. - الأعلام، الزركلي، ج٢، ص٢٥٥».

(****) كلاب بن حمزة العقيلي أبوالهيذام، شاعر من علماءاللغة، من أهل حران، له مصنفات عدة منها : «مايلحن فيه العامة»، «جامع النحو». ت سنة ٢٩٠هـ. «الأعلام، الزركلي، ج٥، ص٢٢٩».

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٢٩٢. - الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص٦٤.

## في الاصطلاح :

### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

يقول أبوعبدالله البخاري(*) : « . . . فالفعل إنما هو إحداث الشيء . . »[١] .

### ٢ - عند الفلاسفة :

الفعل هو :

أ - سيكولوجيا(**) : حركة صادرة عن الكائن الحي لتحقيق غاية ، والأفعال إرادية وغير إرادية . والأفعال المنعكسة حركات بسيطة غير مكتسبة يقوم بها عضوبطريقة ثابتة ودون اختيار ، رداً على تنبيه معين ، وتكون دائماً مشتركة ومتشابكة .

ب - ميتافيزيقيا(***) : استعداد تهيؤ ، أو تحديد وتحقيق ، أو تمام وكمال ، والمصطلح من أصل أرسطي . وقد قسم أرسطو الوجود قسمين :

١ - وجود بالفعل .

٢ - وجود بالقوة .

وعلى هذا الأساس تقوم فكرة التغيير عنده ، فهو انتقال من القوة إلى الفعل ، إلى العكس[٢] .

---

(*) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، أبوعبدالله ، حبر الإسلام ، والحافظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . له عدة مصنفات منها : «الجامع الصحيح» ، «التاريخ» ، «الضعفاء» . ولد سنة ١٩٤هـ ببخارى ، ت سنة ٢٥٦هـ بخرتنك من قرى سمرقند . «انظر : سير أعلام النبلاء ، ج١٢ ، ص٣٩١ . - الأعلام ، الزركلي ، ج٦ ، ص٣٤» .

(١) أبوعبدالله البخاري ، خلق أفعال العباد ضمن مجموعة عقائد السلف ، ص٢١٠ .

(**) دراسة الظواهر النفسية والقوانين التي تحكمها . «انظر : المعجم الفلسفي ، ص٩٩» .

(***) قال أرسطو : هو علم المبادئ العامة والعلل الأولى . وعند ديكارت : معرفة الله والنفس . عند كانط : مجموعة المعارف التي تجاوز نطاق المعرفة . عند كونت : معرفة بين اللاهوت والعلم الوضعي تحاول الكشف عن حقيقة الأشياء . عند برجسون : معرفة مغلقة تعرف بها الحدس . «المعجم الفلسفي ، ص١٩٧» .

(٢) المعجم الفلسفي ، ص١٣٦-١٣٧ .

ويقول التهانوي : «الفعل عند الحكماء هو : قسم من العرض هو التأثير . كالمسخن مادام يسخن فإن له مادام يسخن حالة غير قارة هي التأثير التسخيني الذي هو من مقولة الفعل فهو غير ماهو مبدأ السخونة ؛ لأنه يبقى بعد التسخين . »أ . هـ[١] .

### ٣ - عند المعتزلة :

يقول التهانوي : الفعل عند المتكلمين «صرف الممكن من الإمكان إلى الوجود» . أ . هـ[٢] .

ويقول القاضي : «مايحصل من قادر من الحوادث» . أ . هـ[٣] .

### ٤ - عند الأشاعرة :

يقول الجرجاني : «الفعل : هو : الهيئة العارضة للمؤثر في غيره بسبب التأثير أولاً ، كالهيئة الحاصلة للقاطع بسبب كونه قاطعاً»أ . هـ[٤] .

### ٥ - عند الصوفية :

تعريف الفعل عند الصوفية على حسب مذهب الصوفي إن كان أشعريّا ، فالفعل : هو كما سبق عند الجرجاني ، وإن كان معتزلياً فكما سبق عند القاضي . . . وهكذا .

### ب - الفاعل :

### في اللغة :

يقول التهانوي : «هو عند النحاة ماأسند إليه الفعل أو شبهه وقدم عليه على وجه قيامه به . »أ . هـ[٥] .

---

(١) التهانوي ، اصطلاحات العلوم الإسلامية ، ج٥ ، ص١١٤٣ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) القاضي عبدالجبار ، شرح الأصول الخمسة ، ص٣٢٤ .

(٤) الشريف الجرجاني ، التعريفات ، ص١٦٨ .

(٥) التهانوي ، اصطلاحات العلوم الإسلامية ، ج٥ ، ص١١٤٨ .

## في الاصطلاح :

### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

الفاعل هو من فعل الفعل .

يقول البيهقي(*) : «ومنها - أي من أسماء الله تعالى - الفعال ، قال تعالى : ﴿**فعال لما يريد**﴾ . «البروج : ١٦» . قال الحليمي(**) : ومعناه الفاعل فعلاً بعد فعل كلما أراد فعل ، وليس كالمخلوق الذي إن قدر على فعل عجز عن غيره» . أ . هـ[١] .

### ٢ - عند الفلاسفة :

يقول ابن سينا(***) : «الفاعل هو الذي يفيد الشيء وجوداً بعد عدمه ، ويكون لمفعوله أمران : عدم سبق ، ووجود في الحال . . »أ . هـ[٢] .

---

(*) أحمد بن الحسين بن علي ، أبوبكر ، من أئمة الحديث . قال عنه إمام الحرمين : «مامن شافعي إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي ، فإن له المنة والفضل على الشافعي ؛ لكثرة تصانيفه في نصرة مذهبه وبسط موجزه وتأييد آرائه» . وقال الذهبي : «لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك لسعة علومه ، ومعرفته بالاختلاف» . له عدة مصنفات منها : «الأسماء والصفات» ، «السنن الكبرى» ، دلائل النبوة» . ولد سنة ٣٨٤هـ في خسروجرد من قرى بيهق بنيسابور ، وت سنة ٤٥٨هـ . «انظر : شذرات الذهب ، ج٣ ، ص٣٠٤ . - الأعلام ، الزركلي ، ج١ ، ص١١٦» .

(**) الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخارى الجرجاني ، أبوعبدالله . فقيه شافعي ، قاضي . كان رئيس أهل الحديث في ماوراء النهر . له مصنف مشهور وهو : «المنهاج» . ولد سنة ٣٣٨هـ بجرجان ، وتوفى سنة ٤٠٣هـ ببخارى . شذرات الذهب ، ج٣ ، ص١٦٧ . - وانظر : سير أعلام النبلاء ، ج١٧ ، ص٢٣١ . - «الأعلام ، الزركلي ، ج٢ ، ص٢٣٥» .

(١) الحليمي ، المنهاج ، ج ، ص . . - البيهقي ، الأسماء والصفات ، ج١ ، ص١١٣ ، بتحقيق الحاشدي .

(***) الحسين بن عبدالله بن سينا أبوعلي ، شرف الملك ، الفيلسوف الرئيس ، صاحب التصانيف في الطب ، والمنطق ، والطبيعات ، والإلهيات . قال عنه ابن تيمية : إنه من الاسماعيلية ، وهو من أهل الإلحاد . وقال ابن القيم : هو من القرامطة الباطنية ، له عدة مصنفات منها : «الشفاء» ، «الإشارات والتنبيهات» ، «المعاد» . وغيرها . ولد سنة ٣٧٠هـ ببلخ ، وتوفى سنة ٤٢٨هـ . «شذرات الذهب ، ج٣ ، ص٢٣٤ . - وانظر : سير أعلام النبلاء ، ج١٧ ، ص٥٣١ . - الأعلام ، الزركلي ، ج٢ ، ص٢٤٢» .

(٢) ابن سينا ، النجاة ، ص٢١٣ .

يقول نصير الدين الطوسي(*) : «الفاعل مايكون عله للإيجاد نفسه، بأن يكون به الإيجاد وهومن العلل للوجود». أ. هـ(١).

## ٣ - عند المعتزلة :

يقول القاضي : «الفاعل هو مايقع منه الفعل بحسب قصده وإرادته وداعيه.»أ. هـ(٢).

ويقول : «الفاعل لما كان مشتقاً من قولنا فعل، أجري على كل من فعل فعلاً. سواء فعله بآلة أو لم يفعله بآلة..». أ. هـ(٣).

## ٤ - عند الأشاعرة :

يقول الجرجاني : «الفاعل : ماأسند إليه الفعل أو شبهه على جهة قيامه به، أي : على جهة قيام الفعل بالفاعل؛ ليخرج عنه مفعول مالم يسم فاعله.

والفاعل المختار : هو الذي يصح أن يصدر عنه الفعل مع قصد وإرادة»(٤).

## ٥ - عند الصوفية :

الفاعل هو : أن الفاعل على الأطلاق والعلة على الأطلاق هو الله الحق(٥).

---

(*) محمد بن محمد بن الحسن، أبوجعفر، نصيرالدين الطوسي، فيلسوف. كان رأساً في العلوم العقلية، علامة بالأرصاد المجسطي والرياضيات. علت منزلته عند «هولاكو» فكان يطيعه فيما يشير به عليه. وابتنى بمراغة قبة ورصداً عظيماً، واتخذ خزانة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، له عدة مصنفات منها : «حل مشكلات الإشارات والتنبيهات لابن سينا»، «شرح قسم الإلهيات من إشارات ابن سينا»، «تلخيص المحصل للرازي»، ولد سنة ٥٩٧هـ بطوس، وتوفي سنة ٦٧٢هـ ببغداد. «الأعلام، الزركلي، ج٧، ص ٣٠-٣١».

(١) ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، شرح نصير الدين الطوسي، ج٣، ص١٣.

(٢) القاضي عبدالجبار، المغني، ج٨، ص ٩٢.

(٣) القاضي عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، ص ٣٧٠.

(٤) الشريف الجرجاني، التعريفات، ص ١٦٤.

(٥) ابن عربي، فصوص الحكم، ج٢، ص١١٦.

## جـ - المفعول :

### في اللغة :

يقول التهانوي : «هو لغة : الشيء المحدث، مشتق من الإحداث .

وفي اصطلاح النحاة : اسم قرن بفعل لفائدة، ولم يسند إليه ذلك الفعل وتعلق به تعلقاً مخصوصاً»[١] .

### في الاصطلاح :

### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

هو ماوقع عليه فعل الفاعل .

ويقول أبوعبدالله البخاري : « . . والمفعول هو الحدث لقوله : ﴿**خلق السموات والأرض**﴾ «الأنعام : ٧٣» فالسموات والأرض مفعول، وكل شيء سوى الله بقضائه فهو مفعول، فتخليق السموات فعله ؛ لأنه لايمكن أن تقوم سماء بنفسها من غير فعل فاعل . . . »[٢] .

### ٢ - عند الفلاسفة :

يقول ابن سينا : «إذا كان شيء من الأشياء معدوماً، ثم إذا هو موجود بعد العدم بسبب شيء ما، فإنا نقول له : مفعول . . »[٣] .

### ٣-٤ - عند المعتزلة والأشاعرة :

يقول الجرجاني : «المفعول به : هو ماوقع عليه فعل الفاعل بغير واسطة حرف الجر، أو بها، أي : بواسطة حرف الجر . . . »[٤] .

### ٥ - عند الصوفية :

على حسب مذهب الصوفي[٥] .

---

(١) التهانوي، اصطلاحات العلوم الإسلامية، ج٥، ص ١١٤٩ .

(٢) ابوعبدالله البخاري، خلق أفعال العباد، ضمن مجموعة عقائد السلف، ص٢١٠-٢١١ .

(٣) ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ج٣، ص٦٠ .

(٤) الشريف الجرجاني، التعريفات، ص٢٢٤ .

(٥) راجع ص ٣٨ من هذا التمهيد.

## رابعاً : الحدث ، المحدث ، المحدث :

### أ - الحدث :

### في اللغة :

حدث الشيء يحدث «حدوثا» وحداثة . والحديث : نقيض القديم .

والحدوث : كون شيء لم يكن ، وأحدثه الله فحدث . والحدث : الإبداء . وقد أحدث من الحدث .

ويقال : أحدث الرجل ، إذا صلع وفصع . . .(*) ، أي : ذلك فعل ، فهو محدث . وأحدثه : ابتدأه . وابتدعه ، ولم يكن قبل . »[1] .

### في الاصطلاح :

#### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

سبق أن عرفنا المفعول بمعنى الحدث . أي من وقع عليه فعل الفاعل[2] ، وحدث بعد أن لم يكن[3] .

#### ٢ - عند الفلاسفة :

يقول الغزالي : «الإحداث : يطلق على وجهين :

أحدهما : الإحداث الزماني ، وهو إيجاد الشيء بعد أن لم يكن له وجود في زمان سابق .

---

(*) فصع : فصع الرطبة يفصعها فصعا وفصعها إذا أخذها بإصبعه فعصرها حتى تتقشر ، ويدل على كل مادلك باليد لينفتح عما بداخله . «انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج١٠ ، ص٢٧٢» .

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج٣ ، ص٧٥ ، ٧٧ . - الزبيدي ، تاج العروس ، ج٥ ، ص٢٠٥ ، ٢١٠ .

(٢) راجع ص ٤١ من هذا التمهيد .

(٣) راجع المعنى اللغوي للحدث .

والآخر : الإحداث غير الزماني : وهو إفادة الشيء وجوداً، وذلك الشيء ليس له في ذاته الوجود . »أ . هـ[١] .

### ٣ - عند المعتزلة :

الحدث : أي ماكان له أولاً، ويجوز عليها العدم والبطلان بعد الوجود .

يقول القاضي عبدالجبار : « . . وأما حدوثها - أي الأعراض - فالذي يدل عليه هو ماقد ثبت أنه يجوز عليها العدم والبطلان . . »أ . هـ[٢] .

ويقول : « . . إذ لا فائدة تحت قولنا محدث إلا أن لوجوده أولاً . . »أ . هـ[٣] .

ويقول : « . . وفائدة وصف الشيء بالحدوث أن له أولا . . »أ . هـ[٤] .

ونضيف على ذلك القاعدة المتفق عليها عندهم إنه ماثبت قدمه استحال عدمه ، والقول بأنه يجوز عدمها قول بأنها موجودة بعد العدم .

### ٤ - عند الأشاعرة :

الحدوث : عبارة عن وجود الشيء بعد عدمه[٥] .

### ٥ - عند الصوفية :

على حسب مذهب الصوفي[٦] .

### ب - المحدث :

### في اللغة :

سبق بحثه[٧] .

---

(١) الغزالي ، معيار العلم ، ص ٢٩٤ ، ٣٥١ .

(٢) القاضي عبدالجبار ، شرح الأصول الخمسة ، ص٩٣ .

(٣) القاضي عبدالجبار ، المحيط بالتكليف ، ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) الشريف الجرجاني ، التعريفات ، ص٨١ ، ٨٢ .

(٦) راجع ص ٣٨ من هذا التمهيد .

(٧) راجع ص ٤٢ من هذا التمهيد .

## في الاصطلاح :

### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

المحدث هو من فعل الحدث، وأحدثه[١] . وأطلقه المتكلمون على الله عز وجل، وتوقف أهل السنة والجماعة في ذلك على قاعدتهم في أن أسماء الله عز وجل توقيفية .

### ٢ - عند الفلاسفة :

بالنسبة للمحدث للإحداث الزماني هو الموجد للشيء بعد أن لم يكن له وجود في زمان سابق[٢] .

### ٣ - عند المعتزلة :

المحدث : هو من يقع الفعل منه بحسب قصده وداعيه، ويبقى بحسب كراهيته صار[٣] .

### ٤ - عند الأشاعرة :

المحدث : هو الموجد للشيء بعد عدمه[٤] .

### ٥ - عند الصوفية :

المحدث : هو واجب الوجود لذاته، غني في وجوده بنفسه، غير مفتقر، وهو الذي أعطى الوجود بذاته لهذا الحادث فانتسب إليه»أ. هـ[٥] .

---

(١) راجع ص ٤٢ من هذا التمهيد .

(٢) راجع ص ٤٢ من هذا التمهيد .

(٣) القاضي عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، ص ٣٤٠.

(٤) راجع ص ٤٣ من هذا التمهيد .

(٥) ابن عربي، فصوص الحكم، ج١، ص٥٣ .

## جـ - المحدث ، الحادث :

### في اللغة :

سبق بحثه[١] .

### في الاصطلاح :

#### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

يقول ابن القيم[*] : «الحادث : هو الذي لابد له من محدث لاستحالة حدوث الحادث بنفسه . كما قال تعالى : ﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون**﴾ «الطور : ٣٥» . يقول سبحانه : «أحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم؟ ومعلوم أن المحدث لايوجد بنفسه» . أ . هـ[٢] .

#### ٢ - عند الفلاسفة :

مايكون مسبوقاً بالعدم ، فهو كائن بعد أن لم يكن ، ويختلف عن الممكن الذي لا وجود له ولا عدم في ذاته ، فإن وجد صار حادثاً ولابد له من موجد يوجده ، ويسمى المحدث أيضاً ، ويقابل القديم[٣] .

---

(١) راجع ص ٤٢ من هذا التمهيد .

(*) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ، أبوعبدالله ، شمس الدين . من أركان الإصلاح الإسلامي ، وأحد كبار العلماء ، تتلمذ على يد شيخ الإسلام ابن تيمية . حتى سجن معه ، وضرب بسببه ، وهذب كتبه . كان حسن الخلق محبوباً عند الناس . له عدة مصنفات منها : «أعلام الموقعين» ، «شفاء العليل» ، «الكافية الشافية» ، وغيرها . ولد سنة ٦٩١هـ بدمشق ، وتوفي بها سنة ٧٥١هـ . «انظر : شذرات الذهب ، ج٦ ، ص١٦٨ . - مختصر طبقات الحنابلة ، لابن شطى ، ص٦٨-٧٠ . - الأعلام ، الزركلي ، ج٦ ، ص٥٦» .

(٢) أحمد بن إبراهيم بن عيسى ، توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم ، ج١ ، ص١٧ .

(٣) المعجم الفلسفي ، ص٦٥ .

ويقول الغزالي : «فالحادث الزماني : هو الذي لزمان وجوده ابتداء . والذاتي : هو الذي لذاته مبدأ هي به موجودة . والعالم عند الفلاسفة حادث بالمعنى الثاني ، قديم بالمعنى الأول . »أ . هـ[١] .

## ٣ - عند المعتزلة :

المحدث هو ماكان له أولاً ، ويجوز عليه العدم والبطلان[٢] .

## ٤ - عند الأشاعرة :

المحدث : هو الموجود بعد العدم[٣] .

## ٥ - عند الصوفية :

المحدث : هو المفتقر إلى محدث أحدثه لإمكانه لنفسه ، فوجوده من غيره ، فهو مرتبط به ارتباط افتقار[٤] .

---

(١) الغزالي ، معيار العلم ، ص٤٣٤ .

(٢) راجع ص ٤٣ من هذا التمهيد .

(٣) راجع ص ٤٣ من هذا التمهيد .

(٤) راجع ص ٤٣ من هذا التمهيد .

## خامساً : الخلق ، الخالق ، المخلوق :

### أ - الخلق :

### في اللغة :

أصل الخلق : التقدير . والخلق في كلام العرب : ابتداع الشيء على غير مثال لم يسبق إليه .

قال أبوبكر الأنباري(*) : الخلق في كلام العرب على وجهين :

١ - الإنشاء على مثال أبدعه .

٢ - التقدير .

وكل شيء خلقه الله فهو مبتدؤه على غير مثال سبق إليه .

قال تعالى : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ «الأعراف : ٥٤» . وقال تعالى : ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ «المؤمنون : ١٤» .

قال ابن الأنباري : أي : أحسن المقدرين . قال تعالى : ﴿ **أني أخلق لكم من الطين...** ﴾ «آل عمران : ٤٩» خلقه : تقديره ، ولم يرد أنه يحدث معدوما . وقال : ﴿**وتخلقون إفكاً**﴾ . «العنكبوت : ١٧» أي : تقدرون كذباً . خلق الشيء خلقاً : ملسه ولينه»[1] .

---

(*) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار ، أبوبكر الأنباري ، من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة ، ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار ، له عدة مصنفات منها : «الزاهر» ، «شرح الألفات» ، «الأضداد» . ولد سنة ٢٧١ بالأنبار ، وتوفي سنة ٣٢٨هـ ببغداد . «انظر : سير أعلام النبلاء ، ج١٥ ، ص٢٧٤ . - الأعلام ، الزركلي ، ج٦ ، ص٣٣٤» .

(١) الزبيدي ، تاج العروس ، ج٢٥ ، ص ٢٥١ . - ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، ص١٩٢-١٩٣ .

## في الاصطلاح :

### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

يقول ابن أبي العز الحنفي[*] : «خلق : أي : أوجد وأنشأ وأبدع» ويأتي خلق أيضاً بمعنى : قدر . . . »أ . هـ[١] .

### ٢ - عند الفلاسفة :

يقول الغزالي : «هو اسم مشترك . فقد يقال : خلق لإفادة وجود كيف كان . وقد يقال خلق لإفادة وجود حاصل عن مادة وصورة كيف كان .

وقد يقال : خلق لهذا المعنى الثاني ، لكن بطريق الاختراع ، من غير سبق مادة ، فيها قوة وجوده ، وإمكانه . »أ . هـ[٢] .

### ٣ - عند المعتزلة :

يقول القاضي عبدالجبار : «فذهب شيخنا أبوعلي إلى أن الخلق إنما هو التقدير . . . وهو الصحيح من المذهب» . أ . هـ[٣] .

### ٤ - عند الأشاعرة :

يقول الجرجاني : «الخلق إيجاد شيء من شيء ، وهو أخص من الإبداع . »أ . هـ[٤] .

---

(*) علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الدمشقي ، فقيه ، كان قاضي القضاة بدمشق ، ثم بالديار المصرية ، ثم بدمشق ، وامتحن بسبب اعتراضه على قصيدة لابن أيبك الدمشقي . له عدة مصنفات منها : «التنبيه على مشكلات الهداية» ، «النور اللامع فيما يعمل فيه الجامع» ، وغيرها . ولد سنة ٧٣١ ، وتوفي سنة ٧٩٢هـ . «الأعلام ، الزركلي ، ج٤ ، ص٣١٣» .

(١) ابن أبي العز الحنفي ، شرح العقيدة الطحاوية ، ص٧٩ .

(٢) الغزالي ، معيار العلم ، ص ٢٩٤ .

(٣) القاضي عبدالجبار ، شرح الأصول الخمسة ، ص٥٤٨-٥٤٩ .

(٤) الشريف الجرجاني ، التعريفات ، ص٨ .

## ٥ - عند الصوفية :

يقول ابن عربي(*) : «الخلق ليس من العدم، بل وجود علمي إلى وجود عيني الله خالق».

والخلق :

١ - خلق تقدير .

٢ - خلق إيجاد .

٣ - خلق حق .

الخلق الحق : هو الإنسان .

خلق جديد : أن تصور الشيخ الأكبر للعالم تصور حي حركي فالعالم يفنى، ويخلق في لحظة خلق أزلياً أبدياً . »[1] .

## ب - الخالق :

## في اللغة :

قيل : رجل خالق، أي : صانع .

ويسمون «صانع الأديم ونحوه الخالق، لأنه يقدر أولاً، ثم يفري .

والخالق في صفاته تعالى وعز : المبدع للشيء، المخترع على غير مثال سبق .

---

(*) محمد بن علي بن محمد ابن عربي، أبوبكر الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بمحي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر، فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم. أنكر عليه أهل الديار المصرية «شطحات صدرت منه، فعمل بعضهم على إراقة دمه، كما أريق دم الحلاج وأشباهه. وحبس. يقول الذهبي عنه: «قدوة القائلين بوحدة الوجود». «له عدة مصنفات منها «الفتوحات المكية»، «فصوص الحكم». ، «مفاتيح الغيب». ولد سنة ٥٦٠هـ بمرسية بالأندلس. وتوفي سنة ٦٣٨هـ بدمشق. «شذرات الذهب، ج٥، ص١٩٠ . - وانظر : سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٤٨ . - الأعلام، الزركلي، ج٦، ص٢٨١-٢٨٢» .

(١) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، «الحكمة في حدود الكلمة»، ص٤٢٦ .

قال الأزهري(*) : هو الذي أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة .

وأصل الخلق : التقدير ، فهو باعتبار مامنه وجودها مقدر ، وبالاعتبار للإيجاد على وفق التقدير خالق . »(١) .

## في الاصطلاح :

### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

يقول ابن أبي العز الحنفي : «الخالق : هو المخرج للشيء من العدم إلى الوجود لاغير»أ . هـ(٢) .

ويقول البيهقي : «ومنها - أي من أسماء الله عز وجل - الخالق . قال تعالى : ﴿**هل من خالق غير الله**﴾ «فاطر : ٣» .

قال الحليمي : ومعناه الذي صنف المبدعات ، وجعل لكل صنف منها قدراً ، فوجد فيها الصغير والكبير ، والطويل والقصير ، والإنسان والبهيمة ، والدابة والطائر ، والحيوان والموات ، ولاشك في أن الاعتراف بالإبداع يقتضي الاعتراف بالخلق ، إذ إن الخلق هيئة الإبداع ، فلا يعرى أحدهما عن الآخر ، وهو في خبر الأسامي مذكور»أ . هـ(٣) .

### ٢ - عند الفلاسفة :

قد يقال خالق لإفادته وجود كيف كان ، وقد يقال خالق لإفادته وجود حاصل عن مادة وصورة كيف كان(٤) .

---

(*) محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي ، أبومنصور ، وأحد الأئمة في اللغة والأدب ، عني بالفقه فاشتهر به أولاً ، ثم غلب عليه التبحر في اللغة ، له عدة مصنفات منها : «تهذيب اللغة» ، «تفسير القرآن» ، . . وغيرها . ولد سنة ٢٨٢هـ ، وتوفي سنة ٣٧٠هـ . «انظر : شذرات الذهب ، ج٣ ، ص٧٢ . - الأعلام ، الزركلي ، ج٥ ، ص٣١١» .

(١) الزبيدي ، تاج العروس ، ج٢٥ ، ص٢٥١ . - ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، ص١٩٥ .

(٢) ابن أبي العز الحنفي ، شرح العقيدة الطحاوية ، ص٧٤ .

(٣) الحليمي ، المنهاج ، ج ، ص . - البيهقي ، الأسماء والصفات ، تحقيق الحاشدي ، ج١ ، ص٧٣ .

(٤) راجع ص ٤٨ من هذا التمهيد .

### ٣ - عند المعتزلة :

يقول القاضي عبدالجبار : «هو عبارة عمن يكون فعله مطابقاً للمصلحة ، وليس كذلك أفعالنا»[١] أي : أن الفعل المطابق للمصلحة يصدر من حكيم ، دليل على حسن التقدير وهو الخلق .

### ٤ - عند الأشاعرة :

الخالق الموجد لشيء من شيء وهو أخص من المبدع[٢] .

### ٥ عند الصوفية :

الخالق : الله خالق في فلسفة ابن عربي ، إن الله يُظْهر أو يخرج الأعيان الثابتة إلى الوجود الظاهر المحسوس الخارجي[٣] .

## جـ - المخلوق :

### في اللغة :

هو ماصدر من الخلق . قال ابن سيده[*] : خلق الله الشيء يخلقه خلقاً : أحدثه بعد أن لم يكن ، والخلق يكون مصدراً ويكون المخلوق .

قال تعالى : ﴿ **يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث** ﴾ «الزمر : ٦» .

---

(١) القاضي عبدالجبار ، شرح الأصول الخمسة ، ص ٣٨٠ .

(٢) راجع ص ٤٨ من هذا التمهيد .

(٣) سعاد الحكيم ، المعجم الصوفي ، ص ٤٢٦ ومابعدها .

(*) علي بن إسماعيل ، المعروف بابن سيده ، أبوالحسن ، إمام في اللغة وآدابها ، كان ضريرا . وكذلك أبوه . واشتغل بنظم الشعر مدة ، ونبغ في آداب اللغة ومفرداتها ، له عدة مصنفات منها : «المخصص» ، «المحكم والمحيط الأعظم» ، ولد سنة ٣٩٨هـ بمرسية شرق الأندلس ، وتوفي سنة٤٥٨هـ بها . «انظر : سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص١٤٤ . - الأعلام ، الزركلي ، ج٤ ، ص٢٦٣-٢٦٤» .

أي : يخلقكم نطفاً ، ثم علقاً ، ثم مضغاً ، ثم عظاماً ، ثم يكسو العظام لحماً ، ثم يصور وينفخ فيه الروح ، فذلك معنى (خلقاً من بعد خلق) في ظلمات ثلاثة في البطن والرحم والمشيمية . وقد قيل : الأصلاب[١] .

## في الاصطلاح :

### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

المخلوق هو : ما افتقر إلى خالقه ، يحدثه بعد أن كان معدوماً .

وقيل : هو المصنوع ، وقيل : قال البخاري في آخر «الصحيح» في كتاب الرد على الجهمية والزنادقة : باب ماجاء في تخليق السموات والأرض ونحوها من الخلائق ، وهو فعل الرب وأمره ، فالرب بصفاته وفعله ، وأمره وكلامه ، هو الخالق المكون غير مخلوق وماكان بفعله وأمره ، وتخليقه وتكوينه ، فهو مفعول مخلوق مكون[٢] .

### ٢ - عند الفلاسفة :

المخلوق هو الموجود الذي أفاد الخلق وجوده كيف كان ، أو هو الموجود الحاصل عن مادة وصورة قد أفاد الخلق كيف كان[٣] .

### ٣ - عند المعتزلة :

يقول القاضي عبدالجبار : « . . . والمخلوق : هو الفعل المقدر بالغرض والداعي المطابق له على وجه لايزيد عليه ولاينقص عنه ، على ما اخترناه ، وهو الصحيح من المذهب . . . . »[٤] .

---

(١) الزبيدي ، تاج العروس ، ج٢٥ ، ص٢٥١ . - ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، ص١٩٣ . - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص٤٧ .

(٢) أحمد بن إبراهيم ، توضيح المقاصد وتصحيح القواعد شرح قصيدة ابن القيم الموسومة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، ج١ ، ص١٧ ، ١١٢ .

(٣) راجع ص ٤٨ من هذا التمهيد .

(٤) القاضي عبدالجبار ، شرح الأصول الخمسة ، ص٥٤٨ .

### ٤ - عند الأشاعرة :

المخلوق : هو الشيء الموجود من شيء وهو أخص من المبدوع[١] .

### ٥ - عند الصوفية :

المخلوق : فعل الخلق لايستدعي اثنينية الخالق والمخلوق .

ومن هنا استبدل ابن عربي بلفظ خلق عبارات وتمثيلات ، حاول أن يشرح فيها تلك العلاقة بين وجه الحقيقة الواحدة[*] [٢] .

---

(١) راجع ص ٤٨ من هذا التمهيد .

(*) الحقيقة الواحدة : يقصد هنا وحدة الوجود .

(٢) سعاد حكيم ، المعجم الصوفي ، ص٤٢٦ ومابعدها .

## سادساً : الابتداع ، البديع :

### أ - الابتداع :

### في اللغة :[1]

أ - بدع الشيء يبدعه بدعاً وابتدعه : أنشأه وبدأه .

وبدع الركية[*] : استنبطها وأحدثها .

ب - والبديع والبدع : الشيء الذي يكون أولاً .

قال تعالى : ﴿ **قل ماكنت بدعاً من الرسل**﴾ «الاحقاف : ٩» . أي ماكنت أول من أرسل ، قد أرسل قبلي رسل كثير .

جـ - والبدعة : الحدث وما ابتدع من الدين بعد الإكمال . وبدعه : نسبه إلى البدعة . وأستبدعه : عده بديعاً .

د - والبديع : المحدث العجيب . والبديع : المبدع .

هـ - وأبدعت الشيء : اخترعته لا على مثال سابق[1] .

والجمع بين هذه المعاني في صفة البديع لله عز وجل بأنه بدأ الخلق على ماأراد أولاً على غير مثال سابق . وهو اسم من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها .

### ا - عند أهل السنة والجماعة :

يقول البيهقي : «ومنها - أي أسماء الله - البديع . قال تعالى : ﴿ **بديع السموات والأرض**﴾ «الأنعام : ١٠١» . . . . قال الحليمي في معنى البديع : إنه المبدع ، وهو محدث مالم يكن مثله قط . قال تعالى : ﴿**بديع السموات والأرض**﴾ «الأنعام : ١٠١» . أي مبدعها

---

(*) الركية : من الركي : وهو جنس للركية وهي البئر . «انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج٥ ، ص٣٠٦» .

(١) الزبيدي ، تاج العروس ، ج١ ، ص٣٠٧ . - ابن منظور ، لسان العرب ، ج١ ، ص٣٤٢ .

والمبدع من له إبداع، فلما ثبت وجود الإبداع من الله -جل وعز- لعامة الجواهر والأعراض، استحق أن يسمى بديعاً أو مبدعاً»[١].

إذن الإبداع: هو الإحداث مالم يكن مثله من قبل.

## ٢ - عند الفلاسفة :

الابتداع : اسم مشترك لمفهومين :

أحدهما : تأسيس الشيء لا عن مادة، ولا بواسطة شيء .

الثاني : أن يكون للشيء وجود مطلق، عن سبب بلا متوسط، وله في ذاته أن لايكون موجوداً وقد أفقد الذي له في ذاته، إفقاداً تاماً.

وبهذا المفهوم، العقل الأول مبدع في كل حال؛ لأنه ليس وجوده من ذاته، فله من ذاته العدم، وقد أفقد ذلك إفقاداً تاماً[٢].

وقيل : الإبداع هو : إيجاد الشيء من عدم، فهو خلق خاص[٣].

ويقول التهانوي: وفي اصطلاح الحكماء: إيجاد شيء غير مسبوق بالعدم، ويقابله الصنع وهو إيجاد شيء مسبوق بالعدم، كذا ذكر شارح الإشارات في صدر النمط الخامس.

قال الشيخ ابن سينا في الإشارات: الإبداع: هو أن يكون من الشيء وجود لغيره، متعلق به فقط ،دون متوسط من مادة أو آلة أو زمان ومايتقدمه عدم زمانا لم يستغن عن متوسط. . . »[٤].

ويقول ابن سينا: «الإبداع أعلى مرتبة من التكوين والإحداث»[٥].

---

(١) الحليمي، المنهاج، ج ، ص . - البيهقي، الأسماء والصفات، تحقيق الحاشدي، ج١، ص٧٠ .

(٢) الغزالي، معيار العلم، ص ٢٩٤ .

(٣) المعجم الفلسفي، ص٨١ .

(٤) التهانوي، اصطلاحات العلوم الإسلامية، ج١، ص١٣٤ .

(٥) ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ج٣، ص٩٥ .

## ٣ - ٤ - عند المتكلمين : المعتزلة والأشاعرة :

يقول الجرجاني : «الإبداع ، والإبتداع : إيجاد الشيء غير مسبوق بمادة ، ولا زمان كالعقول ، وهو يقابل التكوين ؛ لكونه مسبوقاً بالمادة ، والإحداث ؛ لكونه مسبوقاً بالزمان ، والتقابل بينهما تقابل التضادان كانا وجودين ، بأن يكون الإبداع عبارة عن الخلو عن المسبوقية بمادة ، والتكوين عبارة عن المسبوقية بمادة ، ويكون بينهما تقابل الإيجاب والسلب إن كان أحدهما وجودياً ، والآخر عدمياً ، ويعرف هذا من تعريف المتقابلين .

الإبداع : إيجاد الشيء من لاشيء ، وقيل : الإبداع : تأسيس الشيء عن الشيء ، والخلق : إيجاد الشيء من شيء . قال تعالى : ﴿ **بديع السموات والأرض**﴾ «البقرة : ١١٧» . وقال : ﴿**خلق الإنسان**﴾ . «الرحمن : ٣» والإبداع أعم من الخلق ، ولذا قال : «بديع السموات والأرض» وقال : «خلق الإنسان» ولم يقل : بديع الإنسان»[١] .

## ٥ - عند الصوفية :

على حسب اعتقاد الصوفي ومذهبه[٢] .

## ب - البديع :

### في اللغة :

سبق بحثه[٣] .

### في الاصطلاح :

## ١ - عند أهل السنة والجماعة :

سبق بحثه[٣] .

---

(١) الشريف الجرجاني ، التعريفات ، ص٨ .

(٢) راجع ص ٣٨ من هذا التمهيد .

(٣) راجع ص ٥٤ من هذا التمهيد .

(٤) راجع ص ٥٤ - ٥٥ من هذا التمهيد .

## ٢ - عند الفلاسفة :

البديع : هو موجد الشيء الغير مسبوق بالعدم، وقيل : هو العقل الأول[١] .

## ٣-٤ - عند المتكلمين «المعتزلة والأشاعرة» :

البديع : هو موجد الشيء عن لاشيء، أو مؤسس الشيء عن الشيء[٢] .

## ٥ - عند الصوفية :

على حسب اعتقاد أو مذهب الصوفي[٣] .

---

(١) راجع ص ٥٥ من هذا التمهيد .

(٢) راجع ص ٥٦ من هذا التمهيد .

(٣) راجع ص ٣٨ ، ٥٦ من هذا التمهيد .

## سابعاً : الغاية ، الهدف ، الحكمة :

### أ - الغاية :

### في اللغة :

الغاية تأتي بمعنى الغرض ويسمى علة غائية . والعلة الغائية : وهي مالأجله إقدام الفاعل على فعله، وهي ثابتة لكل فاعل فعل بالقصد والاختيار، فإن الفاعل إنما يقصد الفعل لغرض فلا توجد في الأفعال غير الاختيارية[١] .

### في الاصطلاح :

### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

الغاية : وهي مالأجله إقدام الفاعل على فعله، وهي ثابتة لكل فاعل فعل بالقصد والاختيار، فإن الفاعل إنما يقصد الفعل لغرض فلا توجد في الأفعال غير الإختيارية[٢] .

### ٢ - عند الفلاسفة :

الغاية : قد يطلق الحكماء الغاية على مايتأدى إليه الفعل وإن لم يكن مقصوداً إذا كان، بحيث لو كان الفاعل مختاراً لفعل ذلك الفعل لأجله، وهي بهذا المعنى أعم من العلة الغائية.

وبهذا الاعتبار أثبتوا للقوى الطبيعية غايات مع أنه لاشعور لها ولا قصد، وكذا أثبتوا للأسباب الاتفاقية غايات قالوا مايتأدى إليه الفعل، إن كان تأديه دائمياً أو أكثريا يسمى ذلك الفعل سبباً ذاتياً وما يتأدى هو إليه غاية ذاتية ، وإن كان تأديه مساوياً أو أقليا يسمى الفعل سببا اتفاقيا، ومايتادى هو إليه غاية اتفاقية[٣] .

---

(١) التهانوي، اصطلاحات العلوم الإسلامية، ج٥، ص ١١٠٢ .

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص١١٠٣ . .

وقيل : الغاية :

أ – مامن أجله يكون الشيء أو العمل .

ب – ماينزع إليه الإنسان أو الكائنات قصداً أو عن غير قصد[١] .

والغرض : مايريد المرء أن يبلغه، ويرادف الغاية ، والمرمى والقصد، وهو الباعث على الفعل . »أ. هـ[٢] .

## ٣ - عند المعتزلة :

الغاية : هي الغرض، ويسمى علة غائية أيضاً[٣] .

يقول القاضي عبدالجبار : «فأما الغرض متى أطلق، فالمراد به : العلم بالأمر المنتظر، الذي له فعل الفعل المقدم، فهو أخص من الدواعي ، فإذا كان للفعل ثمرة في المستقبل، صح أن يقال في فاعله بأن غرضه في الفعل هو ذلك الأمر ، كما نقول في التكليف : إن الغرض به منزلة الثواب، وإن الغرض بالآلام التعويض والإلطاف، إلى غير ذلك، واستعماله في هذا الوجه هو الأكثر والأقوى، ومتى استعمل في غيره حل محل المجاز .

وأما قول القائل : إن غرض الحكيم محمود، فالمراد به : أنه يقتضي حسن فعله، ودخوله في الحكمة والصواب» . أ. هـ[٤] .

## ٤ - عند الأشاعرة :

يقول الجرجاني : «الغاية : مالأجله وجود الشيء» . أ. هـ[٥] .

## ٥ - عند الصوفية :

على حسب اعتقاد ومذهب الصوفي[٦] .

---

(١) المعجم الفلسفي ، ص ١٣١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٢ .

(٤) القاضي عبدالجبار ، المغني، ج١٤ ، ص ٤٤-٤٥ .

(٥) الجرجاني، التعريفات، ص١٦١ .

(٦) راجع ص ٣٨ من هذا التمهيد.

### ب - الهدف :

### في اللغة :[١]

أ - الهدف محركة : كل مرتفع ، من بناء ، أو كثيب رمل ، أو جبل ، والجمع أهداف .

ب - والهدف يأتي بمعنى الغرض ، وهو المنتصل فيه بالسهام . وهو المطلوب هنا .

### في الاصطلاح :

### ١ - عند أهل السنة والجماعة :

الهدف : قد يأتي بمعنى الغرض ، والغاية قد تأتي بمعنى الغرض ، إذن الهدف والغاية قد تجتمع في معنى الغرض . فيكون لها نفس المعنى في هذا الوقت[٢] .

### ٢ - عند الفلاسفة :

الهدف يأتي بمعنى الغرض والغاية [٣] .

### ٣ - عند المعتزلة :

الهدف قد يأتي بمعنى الغرض ، والغاية قد تأتي بمعنى الغرض[٤] .

### ٤ - عند الاشاعرة :

الهدف قد يأتي بمعنى الغاية[٥] .

### ٥ - عند الصوفية :

على حسب اعتقاد أو مذهب الصوفي[٦] .

---

(١) الزبيدي ، تاج العروس ، ج٢٤ ، ص٤٨٧ . - ابن منظور ، لسان العرب ، ج١٥ ، ص٥٣ .

(٢) راجع ص ٥٨ من هذا التمهيد . معنى الغاية .

(٣) راجع ص ٥٨ من هذا التمهيد . معنى الغاية .

(٤) راجع ص ٥٩ من هذا التمهيد . معنى الغاية .

(٥) راجع ص ٥٩ من هذا التمهيد.

(٦) راجع ص ٣٨ ، ٥٩ من هذا التمهيد.

## جـ - الحكمة :

### في اللغة :

«أ - الحكمة بالكسر : العدل في القضاء، كالحكم .

ب - والحكمة العلم بحقائق الأشياء على ماهي عليه، والعمل بمقتضاها، ولهذا انقسمت إلى علمية وعملية .

جـ - ويقال هي هيئة القوة العقلية العلمية وهذه هي الحكمة الإلهية . قال تعالى : ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة**﴾ . «لقمان : ١٢» . فالمراد به حجة العقل على وفق أحكام الشريعة .

د - وقيل الحكمة : إصابة الحق بالعلم والعمل .

هـ - فالحكمة من الله عز وجل معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ولذلك سمي الحكيم . والحكمة في الإنسان معرفة وفعل الخيرات .

و - الحكمة يراد بها : الحلم وهوضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب فإن كان هذا صحيحاً فهو قريب من معنى العدل وهذه المعاني هي مانحتاجه في هذا البحث ، وإن كان هناك معانٍ أخرى للحكمة . . »أ. هـ[١] .

### في الاصطلاح :

#### ا - عند أهل السنة والجماعة :

يقول ابن حجر : «الحكمة : كل مامنع من الجهل وزجر عن القبيح . »أ. هـ[٢] .

ويقول البيهقي : «قال الحليمي في معنى الحكيم : الذي لايقول ولا يفعل إلا الصواب، إنما ينبغي أن يوصف بذلك لأن أفعاله سديدة، وصنعه متقن، ولايظهر الفعل

---

(١) الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص٢٥٢ . - ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٢٧٠-٢٧١ .

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، ج١، ص٢٠١ .

المتقن السديد إلا من حكيم، كما لايظهر الفعل على وجه الاختيار إلا من حي عالم قدير. . . . »أ. هـ[1].

ويقول ابن تيمية[*]: «وقال الجمهور من أهل السنة وغيرهم: بل هو حكيم في خلقه وأمره، والحكمة ليست مطلق المشيئة، إذ لو كان كذلك، لكان كل مريد حكيماً، ومعلوم أن الإرادة تنقسم إلى محمودة ومذمومة، بل الحكمة تتضمن ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة». أ. هـ[2].

إذن الحكمة هي كل مايتضمن ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة.

## ٢ - عند الفلاسفة:

قيل: «الحكمة أطلقت قديماً على مايرادف الفلسفة فتبحث بوجه عام في الله والعالم والإنسان». أ. هـ[3].

ويقول ابن سينا: «الحكمة: العلم التام والحكيم هو الأول». أ. هـ[4].

---

(١) الحليمي، المنهاج، ج . ، ص . - البيهقي، الأسماء والصفات، تحقيق الحاشدي، ج١، ص٦٦-٦٧.

(*) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبوالعباس، تقي الدين ابن تيمية، الإمام، شيخ الإسلام، كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان، وفي الدرر الكامنة أنه ناظر العلماء واستدل وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرس وهو دون العشرين، له كثير من المصنفات قيل إنها تزيد على أربعة آلاف، منها: «السياسة الشرعية»، «منهاج السنة النبوية»، «مجموعة رسائل»، «الرسالة التدمرية»، وغيرها كثير، ولد سنة ٦٦١هـ بحران، وتوفي سنة ٧٢٨هـ بدمشق في أحد سجونها. «انظر: شذرات الذهب، ج٦، ص٨٠. - ومختصر طبقات الحنابلة، ص٦١-٦٦. - والعقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، لأبي عبدالله عبدالهادي. - والأعلام، الزركلي، ج١، ص١٤٤».

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم، ج١، ص١٤١.

(٣) المعجم الفلسفي، ص٧٥-٧٦.

(٤) ابن سينا، التعليقات، ص٢٠.

## ٣ - عند المعتزلة :

الحكمة تأتي بمعنى العدل .

يقول القاضي عبدالجبار : «ووصفنا للفعل بأنه حكمة ، يفيد ماذكرناه في العدل . . . » . أ . هـ[١] .

والعدل : هو كل فعل فعله لينتفع المفعول به على وجه يحسن ، أو يضر .

يقول القاضي : «اعلم أن الذي يختص بهذه الصفة - أي وصف الفعل بالعدل والحكمة - من الأفعال كل فعل فعله لينتفع المفعول به على وجه يحسن ، أو يضر به . . . » . أ . هـ[٢] .

## ٣ - عند الأشاعرة :

يقول الجرجاني : «الحكمة : علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ماهي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية ، فهي علم نظري غير آلي ، والحكمة أيضاً هيئة القوة العقلية والعلمية المتوسطة بين الجربزة التي هي إفراط هذه القوة ، والبلادة التي هي تفريطها . . . . »أ . هـ[٣] .

## ٥ - عند الصوفية :

«الحكمة عند الصوفية : المعرفة الذوقية بحقيقة الوجود .

وعند ابن عربي : هي المعرفة الذوقية لوحدة الوجود»أ . هـ[٤] .

---

(١) القاضي عبدالجبار ، المغني ، ج٦ ، قسم التعديل والتجوير ، ص٤٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص٤٨ .

(٣) الشريف الجرجاني ، التعريفات ، ص٩٠-٩١ .

(٤) ابن عربي ، فصوص الحكم ، ج٢ ، ص٢٧٦ .

## نتيجة هذا المبحث :

١ – نجد أن المصطلحات التي مررنا بها عند كل من أهل السنة والجماعة والفلاسفة والمعتزلة والأشاعرة، أو معظمها لها نفس المعنى .

٢ – ولكن بعد نهاية هذه الرسالة إن شاء الله سنعرف من خلال الباب الأول والثاني التاليين هل الاعتقاد في هذه المصطلحات عند هؤلاء الفرق متفق أم مختلف ؟!!

٣ – من خلال دراستنا لمصطلحات الصوفية وجدنا أنهم قد تأثروا بالفرق الباطنية في وضع المعنى أو المصطلح في غير مكانه .

# الباب الأول

# الأسباب عند أهل السنة والجماعة

لقد سبق تعريف الأسباب عند أهل السنة والجماعة في تمهيد الرسالة[١] وقد عرفنا ماذا يقصد بها . والآن في هذا الباب سوف نتحدث عن ضوابط الأسباب التي يتوقف عليها معرفة الأسباب المشروعة .

فللأسباب ثلاثة ضوابط يتوقف عليها معرفة الأسباب المشروعة التي جاءت في الكتاب والسنة وأثرت عن السلف الصالح وهي[٢] :

أحدها : ألاَّ يجعل منها سبباً إلا ماثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً .

ثانيها : ألاَّ يعتمد العبد عليها ، بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها وحرصه على النافع منها .

ثالثها : أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه .

---

(١) راجع التمهيد من هذه الرسالة ص ٢٣ .

(٢) عبدالرحمن ناصر السعدي، القول السديد شرح كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبدالوهاب، ص٣٦-٣٧.

# الفصل الأول

## الأمر باتخاذها

المبحث الأول : في القرآن الكريم .

المبحث الثاني : في السنة النبوية .

المبحث الثالث : في سير الأنبياء .

المبحث الرابع : في سير السلف الصالح .

# المبحث الأول

# الأمر باتخاذ الأسباب في القرآن الكريم

**تمهيد :**

قد سبق أن وضحنا معنى السبب والعلة، والمسبب والمعلول، وأن المسبب والمعلول ماهما إلا نتيجة استخدام، وحصول السبب والعلة بإذن الله عز وجل على حسب أمره تعالى، فنجد أن الله عز وجل أمرنا في كتابه الكريم الحكيم باتخاذ الأسباب سواء كانت شرعية أو كونية، وأن ذلك أمر مطلوب، ولايؤثر على التوكل على الله عز وجل، كما سنوضح ذلك في الفصل الثالث من هذا الباب، وسوف نذكر هنا بعض الآيات البينات الموضحة لاتخاذ الأسباب، والحث على ذلك، والقرآن مليء بالآيات الدالة على هذا الاتخاذ.

يقول ابن القيم: «ولقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم - على اختلاف أجناسهم ومللهم ونحلها - على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمته بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه.

وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب. وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع.

١ - فتارة يرتب الجزاء على الحكم الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له كقوله تعالى: ﴿ **فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ (الأعراف: ١٦٦).

٢ - وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى : ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم** ﴾ (الأنفال : ٢٩).

٣ - وتارة يأتي بلام التعليل كقوله تعالى : ﴿ **ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾ (ص: ٢٩).

٤ - وتارة يأتي بأداة كي التي للتعليل كقوله تعالى : ﴿ **كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾ (الحشر : ٧).

٥ - وتارة يأتي بباء السببية كقوله تعالى : ﴿ **ذلك بما قدمت أيديكم** ﴾ (آل عمران : ١٨٢).

٦ - وتارة يأتي بالمفعول لأجله ظاهراً أو محذوفاً كقوله تعالى : ﴿ **وأن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ (الأعراف : ٢٨٢).

٧ - وتارة يأتي بفاء السببية كقوله تعالى : ﴿ **فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها** ﴾ (الشمس : ١٤) .

٨ - وتارة يأتي بأداة لما الدالة على الجزاء كقوله تعالى : ﴿ **فلما آسفونا انتقمنا منهم** ﴾ (الزخرف : ٥٥) ونظائرها.

٩ - وتارة يأتي بإن وما عملت فيه كقوله تعالى : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات** ﴾ (الأنبياء : ٩٠).

١٠ - وتارة يأتي بأداة لولا الدالة على ارتباط ماقبلها بما بعدها قوله تعالى : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾ (الصافات : ١٤٣ - ١٤٤).

١١ - وتارة يأتي بـلو الدالة على الشرط كقوله تعالى : ﴿ **ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم** ﴾ (النساء : ٦٦) .

وبالجملة، فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتيب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال...». أ. هـ[١]

فلذلك نذكر منها :

## أولاً : الأسباب الشرعية في القرآن الكريم :

١ - قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم** ﴾ «الأنفال : ٢٩».

يقول ابن كثير[*] : «... فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته، ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه (وهو محوها)، (غفرها وسترها عن الناس)، وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ «الحديد : ٢٨» »أ. هـ[٢].

فالله عز وجل أمر بالتقوى ، ورتب على ذلك الأجر والثواب .

---

(١) ابن القيم، الداء والدواء، تحقيق الآثري، ص ٢٥، ٢٧ .

(*) إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبوالفداء، عماد الدين: حافظ مؤرخ فقيه. رحل في طلب العلم. له عدة مصنفات منها «البداية والنهاية»، «تفسير القرآن العظيم»، «الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث». ولد سنة ٧٠١هـ في قرية من أعمال بصرى الشام، وتوفي سنة ٧٧٤هـ بدمشق. « انظر: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٣١. - تذكرة الحفاظ، للذهبي، ج١، ص٢٥٠. - الأعلام، للزركلي، ج١، ص٣٢٠».

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٢٨٩ .

٢ – قال تعالى: ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ «آل عمران: ١٠٤».

يقول ابن كثير: «يقول الله تعالى: ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأولئك هم المفلحون» أ.هـ[١].

ويقول عبدالرحمن ناصر السعدي[*]: «....، وأن يقيموا دينهم ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم وجعله السبب بينهم وبينه وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.... وأمرهم بتتميم هذه الحالة والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم... «وأولئك هم المفلحون» المدركون لكل مطلوب الناجون من كل مرهوب...» أ.هـ[٢].

فالله – عز وجل – في هذه الآية الكريمة رتب الفلاح على أسباب شرعية يجب القيام بها وإن كانت من فروض الكفاية إلا أن من أراد الفلاح فليأخذ منها، ويجعل نفسه من هذه الفئة الذين خصهم الله عز وجل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٦٨.

(*) عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله التميمي، مفسر، من علماء الحنابلة، من أهل نجد، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها. له عدة مصنفات منها «تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن»، «القواعد الحسان في تفسير القرآن»، «طريق الوصول إلى العلم المأمول من الأصول». ولد سنة ١٣٠٧هـ بعنيزة بالقصيم، وتوفي سنة ١٣٧٦هـ أيضاً بعنيزة. «الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٣٤٠»، «انظر: علماءنا، البدراني، البراك، ص٧-١٢».

(٢) عبدالرحمن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج١، ص١٩٤.

فهذه الآية وماقبلها من الآيات في نفس السورة فيها وجوب شكر الله -عز وجل- على نعمته العظيمة التي امتن بها على المؤمنين، بأن جعل قلوب المؤمنين كالجواهر اللامعة، لاغيظ ولا حسد ولا حقد، إخواناً على سرور متقابلين في الدنيا قبل الآخرة، وإن كان هذا من نعيم الجنة إلا أنه تحقق في زمن صحابة رسول الله ﷺ عند الهجرة والإيمان بالله -عز وجل- والقيام بالطاعات وترك المعاصي، فتحقق الفلاح فيكون هذا سبباً من الله تعالى.

٣ - قال تعالى: **﴿ولوأنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء مايعملون﴾** «المائدة: ٦٦».

يقول ابن كثير: «أي: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ماكانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم «لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم» أي: لأزلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود «ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وماأنزل إليهم من ربهم» . . . . «لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» . . . يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض . . . كذا قال مجاهد(*) وسعيد بن جبير(**)

---

(*) مجاهد بن جبر، أبوالحجاج المكي، مولى بني مخزوم، تابعي، مفسر من أهل مكة، قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين. أخذ التفسير عن ابن عباس. وله مناقب كثيرة. ولد سنة ٢١هـ بمكة. وتوفي سنة ١٠٤هـ بمكة. «شذرات الذهب، لابن العماد، ج١، ص١٢٥. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٤٤٩. - والأعلام، للزركلي، ج٥، ص٢٧٨».

(**) سعيد بن جبير الأسدي، بالولاء، الكوفي، أبوعبدالله: تابعي، كان أعلمهم على الأطلاق، وهو حبشي الأصل، من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد. أخذ العلم عن عبدالله بن عباس وابن عمر. ثم كان ابن عباس، إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، قال: أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء؟ يعني سعيداً. ولد سنة ٤٥هـ، وتوفي مقتولاً على يد الحجاج بواسط سنة ٩٥هـ. «شذرات الذهب، ج١، ص١٠٨. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٣٢١. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٧٦-٧٧. - الأعلام، الزركلي، ج٣، ص٩٣».

وقتادة(*) والسدي(**) .»أ.هـ[1].

ويقول الشوكاني(***): «. . . ذكر فوق وتحت ؛ للمبالغة في تيسير أسباب الرزق لهم وكثرتها وتعدد أنواعها»[2]أ.هـ

فالله -عز وجل- قد بين للناس في هذه الآية أن التقوى والإيمان واتباع الأنبياء وكتبهم هو سبب الفلاح في الدنيا والآخرة، كما سبق في الآية السابقة، وهنا تتحدث الآية عن تيسير أسباب الرزق في الدنيا والآخرة وسبب السعادة في الدارين، وهي إقامة الدين الحق، وإقامة مافي الكتب؛ لأنها المنهج الإسلامي الصحيح الذي حثنا عليه أنبياء الله -عز وجل- . فلا سعادة ولا رزق إلا باتخاذ هذه الأسباب الإيمانية والعمل الصالح بها، لذلك خاطب الله -عز وجل- من لم يقمْها بخطاب الماضي عبرة لمن يعتبر من الخلف، إن هؤلاء

---

(*) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز ، أبوالخطاب السدوسي البصري. مفسر، حافظ ضرير أكمة. قال الإمام أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة، وكان مع علمه بالحديث، رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب. ولد سنة ٦١هـ، وتوفي سنة ١١٨هـ بواسط بالطاعون. «شذرات الذهب، ج١، ص١٥٣. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٢٦٩. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٢٢. - الأعلام، للزركلي، ج٥، ص١٨٩».

(**) إسماعيل بن عبدالرحمن السدي، تابعي، حجازي الأصل، سكن الكوفة. قال ابن تغري بردي: «صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إماما عارفا بالوقائع وأيام الناس. توفي سنة ١٢٨هـ، «شذرات الذهب، ج١، ص١٧٤. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٢٦٤. - الأعلام، للزركلي، ج١، ص٣١٧».

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٧٢.

(***) محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني: فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء، له عدة مصنفات منها «فتح القدير»، «نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار»، «إرشاد الثقات إلى إتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات». ولد سنة ١١٧٣هـ بهجرة شوكان من بلاد خولان باليمن، توفي سنة ١٢٥٠هـ بصنعاء. «الأعلام، للزركلي، ج٦، ص٢٩٨».

(٢) الشوكاني ، فتح القدير، ج٢، ص٥٩.

اليهود والنصارى الذين سبقوكم ياأمة محمد قد تركوا إقامة التوراة والإنجيل ومافيها من أوامر ونواهي، فكان سبباً في حرمانهم من أسباب الرزق وتيسيرها، وهي بركات السماء من ماء ورحمة ومايترتب عليها من رزق أرضي، من إنبات للزرع وطهارة للنفوس وغيرها كثير.

فهكذا دلت الآية الكريمة على الميزان الشرعي الصحيح وهو قيام الأسباب يكون سبباً لقيام المسببات. وعدم قيامها كان سببا في عدم قيام المسببات.

٤ - قال تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾** «الأحزاب: ٧٠-٧١».

يقول ابن كثير: «يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا «قولاً سديداً» أي: مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه، بأن يصلح لهم أعمالهم، أي: يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وماقد يقع منهم في المستقبل، يلهمهم التوبة منها، ثم قال تعالى: «ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً» وذلك أنه يجار من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم.»أ.هـ(١).

فهاهي الآيات الكريمات الدالة على اتخاذ الأسباب الشرعية الموصلة إلى الجنة وإلى خير الدنيا والآخرة، نجدها على منوال واحد وهو الميزان الشرعي الذي نزل الوحي به على الأنبياء، وتكلمت به الكتب من عند الله عز وجل، وهو ميزان العدل والتسوية بين المتماثلات والتفريق بين المختلفات من الأسباب والأعمال، فكانت سبب صلاح الأمم السابقة، وسبب هلاك بعضها. بسبب الطاعة للرسل وترك ذلك، فكان ميزاناً

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥٠٠.

واحداً عادلاً في الجزاء بالأسباب واتخاذها[١] . قال تعالى : ﴿**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق والذين يصلون مأمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من ءابائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾ «الرعد : ١٩-٢٤» .

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : «يقول الله تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار ، وهي العاقبة في الدنيا والآخرة»أ . هـ[٢] .

ويقول عبدالرحمن بن ناصر السعدي : «قال تعالى «بما صبرتم» أي بسبب صبركم وهو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية والجنات الغالية»أ . هـ[٣] .

ويقول تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ «المؤمنون : ١-١١» .

رتب الفلاح والفوز بالفردوس على هذه الأعمال ، فكل أمة تحاسب وتجازى على حسب أعمالها وماجاءت به أنبياؤهم وكتبهم من عند الله عز وجل .

---

(١) ابن تيمية ، الرد على المنطقيين ، ص٣٧١-٣٨٤ .

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٢ ، ص٤٩١ .

(٣) عبدالرحمن السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ج٤ ، ص٥٢ .

يقول تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون** ﴾ «الجاثية : ٢١» .

ويقول : ﴿**أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون**﴾ «القلم : ٣٥-٣٦» .

وحكم الله عز وجل عادل لكل إنسان حسب عمله إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر . وهل بعد هذه الأدلة يكون العمل كترك العمل؟ واتخاذ الأسباب كتركها؟!!!

تعالى الله -عز وجل- عما يقولون علواً كبيراً .

في تعطيلهم لسننه الكونية ، وهذا ماأثبته شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح الميزان الشرعي[1] .

---

(١) ابن تيمية ، الرد على المنطقين ، ص٣٧١-٣٨٤ .

## ثانياً : الأسباب الكونية في القرآن الكريم :

سبق وأن تحدثنا عن الأسباب الشرعية في القرآن الكريم، وهنا سوف نذكر بعض الأسباب الكونية إن شاء الله عز وجل.

١ - قال تعالى : **﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولي الألباب﴾** «البقرة : ١٩٧».

الشاهد من الآية : وتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

يقول ابن عباس(*) : «كان أهل اليمن يحجون ولايتزودون، ويقولون : نحن متوكلون فيحجون فيأتون مكة فيسألون الناس فأنزل الله : «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى». »أ. هـ[1].

ويقول مجاهد : «كانوا يحجون ولايتزودون فرخص لهم في الزاد فأنزل : «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى». أ. هـ[2].

---

(*) عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي، أبوالعباس : حبر الأمة، الصحابي الجليل. نشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ، وروى عنه الأحاديث، وشهد مع علي الجمل وصفين. وكف بصره في آخر عمره. له في الصحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديثا، كان له مجالس العلم المتنوعة، قال ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس، وله مناقب كثيرة. ولد سنة ٣ق. هـ بمكة، وتوفي سنة ٦٨هـ بالطائف. «الاستيعاب، ج٢، ص٣٥٠-٣٥٧. - وانظر : سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٣٣١. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٤٠-٤١. - الإصابة، ج٢، ص٣٣٠-٣٣٤. - الأعلام، الزركلي، ج٤، ص٩٥».

الحديث : أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب قول الله تعالى : «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى»، ج٢، ص١٤١-١٤٢..

(١) أبوبكر الخلال، الحث على التجارة والصناعة والعمل، ص١٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٦.

يقـول ابن كـثـيـر في تفسـيـر هذه الآية : « . . وأمـروا أن يتزودوا الدقـيق والسـويق والكعك . . . . وقوله «فإن خير الزاد التقوى» . لما أمرهـم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة ، وهو استصحاب التقوى إليها»أ . هـ[١] .

فسبب الآية ونزولها عدم أخذ أهل اليمن للزاد وهو سبب كوني مأمور به ، فأمرهم الله عز وجل بأخذه ، ونبههم إلى أمر آخر وهو سبب شرعي وهو التقوى للآخرة . فحمل الزاد والراحلة إلى الحج من الأسباب الكونيةالتي أمر الله عز وجل عباده بها .

يقول الإمام أحمد بن حنبل[*] رحمه الله تعالى : «وفي هذا إن الله تعالى أمر زوار بيته بالتزود ، وقال : «إن خير الزاد التقوى» يعني : - والله تعالى أعلم - فإن خير الزاد ماعاد على صاحبه بالتقوى . »أ . هـ[٢] .

ويقـول الحليمي : «وهو أن لايتوكل على أزواد الناس فيؤذيهم ويضيق عليهم ، ومن دخل البادية بلا زاد متوكلاً فإنما يرجو أن يقيض الله تعالى من يواسيه من زاده ، وهذا عين ماأشارت الآية إلى المنع منه ، فبان أنه لامعنى لاستحبابه ، وإنما المستحب هو التزود أو الجلوس إذا لم يكن زاد حتى يكون»أ . هـ[٣] .

وهذه الآية أمر صريح بالأخذ بالأسباب الكونية .

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج١ ، ص٢٢٧ .

(*) أحمد بن محمد بن حنبل ، أبو عبدالله ، الشيباني الوائلي ، إمام المذهب الحنبلي ، وأحد الأئمة الأربعة . نشأ منكباً على العلم وسافر في سبيل ذلك إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والثغور . . . . وغيرها كثير ، وله عدة تصانيف منها : «المسند» ، «الرد على الزنادقة فيما أدعت به من متشابه القرآن» ، «الزهد» ويعتبر صاحب المحنة في خلق القرآن . ولد سنة ١٦٤هـ ببغداد ، وتوفي سنة ٢٤١هـ . «شذرات الذهب ، ج١ ، ص٦٥ ، وانظر : سير أعلام النبلاء ، ج١١ ، ص١٧٧ . - مختصر طبقات الحنابلة ، ص٧-١٧ . - الأعلام ، للزركلي ، ج١ ، ص٢٠٣» .

(٢) الحليمي ، المنهاج ، ج . ، ص . . - البيهقي ، شعب الإيمان ، ج٢ ، ص٧٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ج٢ ، ص٧٥ .

٢ - قال تعالى: ﴿**وجعلنا الليل والنهار ءايتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا**﴾ «الأسراء: ١٢».

وقال تعالى: ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾ «يونس: ٥».

يقول الطبري(*) : «يقول تعالى ذكره: ومن نعمه عليكم أيها الناس مخالفته بين علامة الليل وعلامة النهار، بإظلامه علامة الليل وإضاءته علامة النهار؛ لتسكنوا في هذا وتتصرفوا في ابتغاء رزق الله الذي قدره لكم بفضله في هذا، ولتعلموا باختلافهما عدد السنين وانقضاءها، وابتداء دخولها، وحساب ساعات النهار والليل وأوقاتها، وكل شيء بيناه بيانا شافيا لكم أيها الناس لتشكروا الله على ماأنعم به عليكم من نعمة، وتخلصوا له العبادة دون الآلهة...»أ.هـ[١].

فابن جرير يبين أن معنى الآية أن الله -عز وجل- ماجعل هذه الآيات والتسخيرات إلا لنتصرف فيها، ونبتغي رزق الله عز وجل بواسطتها.

---

(*) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبوجعفر، المؤرخ المفسر الإمام. عرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى، له عدة مصنفات منها «جامع البيان في تفسير القرآن»، «اختلاف الفقهاء»، «المسترشد». يقول ابن الأثير: «أبوجعفر أوثق من نقل التاريخ، وفي تفسيره مايدل على علم غزير وتحقيق». وكان مجتهدا في أحكام الدين لايقلد أحدا. ولد سنة ٢٢٤هـ في آمل طبرستان، وتوفي سنة ٣١٠هـ. «شذرات الذهب، ج٢، ص٢٦٠. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص٢٦٧. - تهذيب التهذيب، لابن حجر، ج١، ص٦٦-٦٨. - الأعلام، للزركلي، ج٦، ص٦٩».

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج١٥، ص٣٨.

ويقول أيضاً: «وقوله لتعلموا عدد السنين والحساب، يقول: وقدر ذلك منازل لتعلموا أيها الناس عدد السنين، دخول مايدخل منها، وانقضاء مايستقبل منها، وحسابها، يقول: وحساب أوقات السنين وعدد أيامها، وحساب ساعات أيامها...»أ. هـ[١].

ويقول ابن كثير: «... وقوله تعالى «وقدره» أي: القمر «منازل لتعلموا عدد السنين والحساب» فبالشمس تعرف الأيام وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام»أ. هـ[٢].

فالله عز وجل لم يخلق الشمس والقمر عبثاً لا لحكمة ولا غاية، ولكن بين فوائدهما في عدد من الآيات الكريمات كقوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج...الآية**﴾ «البقرة: ١٨٩».

وقوله: ﴿**إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم**﴾ «التوبة: ٣٦».

وقوله: ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾ «البقرة: ١٨٥».

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فقال: لاتصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غم عليكم فاقدروا له»[٣].

فمن الآيات السابقة والأحاديث بين الله- عز وجل- ونبيه محمد ﷺ استخدامات القمر والشمس في معرفة الشهور والأيام، وخاصة شهر رمضان والحج.

فهنا نجد الآيات والأحاديث أمره بأخذ الأسباب، على سبيل الترغيب فيها، عن

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تسير القرآن، ج١١، ص٦٢.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج٢، ص٣٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ «إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا»، ج٢، ص٢٢٩.

طريق معرفة فوائدها . وعلة وجودها . وليست فوائد القمر مقتصرة على ذلك ، بل للقمر فوائد دينية ودنيوية ، فبالقمر يعرف به مواعيد الحصاد والزرع ، ومواسم الصيد ، والإبحار في أقطار الأرض ، ومعرفة مواعيد الزكاة ، وتوقيت عدد النساء ، سواء كن ممن طلقن أو توفي أزواجهن عنهن ، كذلك معرفة الأشهر الحرم ومراعاة أحكامها .

فإن الله عز وجل قد سخر القمر لمنافع جمة للبشر ، وعلى البشر الأخذ بها ، وأستخدامها على الوجه الشرعي المطلوب(*) ، الذي سبقت الإشارة إليه في الآيات والأحاديث المذكورة آنفاً .

---

(*) إن استخدام القمر في معرفة الزمن ، ومواقيت العبادات ، وكذلك في الدنيا من مواعيد الحمل والرضاع ، وتسجيل الأحداث الهامة ، وتواريخها ، والمواليد ، والوفيات ، كما كان يستخدمها علماء الحديث ، هذه بعض الفوائد التي يجنيها البشر من القمر ، وكلها شرعت لخير الفرد ولمصلحة الجماعة ، وعمار الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة .

ولكن كيف يكون ذلك الحساب ، وذلك التقدير ؟!

أثبت العلم الحديث كيفية استخدام القمر في معرفة هذه الأمور بمنازل الأهلة ، أي الشهور القمرية دون الشهور الشمسية ، لأن الأشهر القمرية يسهل معرفتها من الناس بعكس الأشهر الشمسية . لذلك حدد الله عز وجل مكث أهل الكهف في كهفهم بالهلالية ، ولأن يسهل مراقبة الهلال وحركته ونقصانه وزيادته . بعكس الأشهر الشمسية التي تحتاج وتتطلب معرفة دقيقة بحساب حركة الأفلاك والرياضيات المعقدة .

ولا شك أن معرفة هذه المواقيت والمعالم من الفوائد التي ينتفع بها العباد من القمر الذي سخره الله لمنفعتهم .

فالقمر عند بزوغه بشكل بسيط عرف أنه أول الشهر ، وإذا كمل حجمه عرف نصفه ، وإذا عاد مرة أخرى إلى النقصان ثم الاختفاء عرف نهايته .

وكذلك ظاهرة المد والجزر التي تحدث بسبب حركات القمر التي فيها فوائد جمة .

ونخرج من ذلك بأن القمر آية من آيات الله خصصها الله -عز وجل- للإنسان كي يتمكن من العيش على هذه الأرض باستخدام الوسائل والأسباب المسخرة له . «عبدالعليم عبدالرحمن خضر ، المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم ، ص١٣٨-١٨٦» .

وإذا كانت هذه الآيات الإلهية كلها مسخرة للإنسان فهل خلقت عبثاً، وتركها والأخذ بها سواء؟! أم فيها دليل على الأمر باتخاذها؟!!

٣ - قال تعالى: ﴿**الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر ءآيتين وسخر لكم الليل ولنهار * واءتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمت الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار**﴾ «إبراهيم: ٣٢-٣٤».

يقول الطبري في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره: الله الذي أنشأ السموات والأرض من غير شيء أيها الناس، وأنزل من السماء غيثاً أحيا به الشجر والزرع، فأثمرت رزقا لكم تأكلونه، وسخر لكم الفلك (وهي السفن) لتجري في البحر بأمره لكم تركبونها وتحملون فيها أمتعتكم من بلد، إلى بلد وسخر لكم الأنهار ماؤها شراب لكم...»أ. هـ[1].

فيتضح من ذلك أن المطر كان سبباً للزرع والإنبات، فأثمر لكم رزقاً أمركم الله عز وجل بأكله، وإن كان على الأباحة.

وسخر الفلك، وأمر بركوبها، وحمل الأمتعة فيها، وسخر الأنهار وأمر بشرب مائها.

وهذا مايتضح من الآية.

وقال تعالى: ﴿**ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما**﴾ «الأسراء: ٦٦».

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده، لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم...»أ. هـ[2].

---

(١) ابن جرير الطبري، تفسير الطبري، ج١٣، ص١٤٩.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥٠.

فالله -عز وجل- قد خلق الفلك وسخرها لاستخدامها للسفر، والتجارة، فاستخدام الأسباب الكونية تسخير من الله عز وجل ، ومأمور بها وإن كان أمر استحباب وترغيب.

وقال تعالى: **﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون* ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾** «النحل: ١٠-١١».

هنا ذكر الله عز وجل سبب إنزال الماء، والحكمة من ذلك وهو للشراب، وإنبات الزرع رزقاً للعباد. فالأمر باتخاذها واضح من الحكمة من وجودها.

يقول ابن كثير في تفسيرها: «لما ذكر تعالى ماأنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء، وهو العلو مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال «لكم منه شراب» أي: جعله عذباً زلالا يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أجاجاً «ومنه شجر فيه تسيمون» أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم. . . . »أ. هـ[1].

فالله - عز وجل - بين في هذه الآية أن الآيات الكونية خلقت لتكون سبباً للحياة وتسهيلها.

قال تعالى: **﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾** «النحل: ١٤»

وهناك في هذه الآية وضح سبب تسخير البحر، وهو للأكل، واتخاذ الزينة من الحلي، والإبحار بالفلك.

يقول ابن كثير: «يخبر الله تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمن على عباده بتذليله لهم وتسييرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٥٤٤.

لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخرها أي: تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح، وقيل: تمخره بجؤجئها وهو صدرها المسنم الذي أرشد العباد إلى صنعتها وهداهم إلى ذلك إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ماهنالك إلى هنا، وماهنا إلى هنالك...» أ. هـ[١].

قد وجدنا في الآيات السابقة كلمة «لكم» متكررة وهي بمعنى مسخرة وموجودة لكم، للانتفاع بها، فهل يملك الإنسان شيئاً عنده، ويمكنه الاستفادة منه ويتركه، وهو يحتاج إليه؟!

فهذا دليل على الأمر باتخاذها.

فالماء من السنن الكونية[*] المأمور باتخاذها، والانتفاع بها في مجالاته المختلفة.

---

(١) المصدر السابق، ج٢ ص ٥٤٥.

(*) هاهو قد جاء دور الماء الذي يعتبر أكبر سبب للحياة قال تعالى ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ السبب الذي قد أمرنا بالأخذ به من خلال الآيات البينات سواء كان في الغذاء اليومي أو في الزراعة أو الصناعة وغيرها.

فمن أين يأتي الماء؟ وما دوره في الحياة؟

قال تعالى ﴿والله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ «الروم: ٤٨».

وقال: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ «الحجر: ٢٢».

هذه الآيات تدل على أن البداية رياح ثم سحاب ثم مطر. فكيف يحدث ذلك؟

تقوم الرياح بتلقيح السحب بنويات السحب أو نويات التكاثف، ويعتقد أنها «سلفات الأمونيا». ==

---

== هذه النويات مع فعل الرطوبة الناتجة من تبخر المحيطات والبحار والرياح هي وسيلة النقل لهذه المياه المتبخرة من المحيطات إلى اليابس. فإذا صعدت هذه الرطوبة، وهذه النويات إلى طبقات الجو العلية كان لفعل البرودة العامل الأخير في تكون السحب وهو بفعل التكثف. وهذا معنى قوله تعالى ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾.

بعد ذلك يقول علماء الأرصاد الجوي: «إن المطر يتوقف على تكوين السحب الماطرة «المزن» قال تعالى: ﴿أفرءيتم الماء الذي تشربون . ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون﴾ «الواقعة: ٦٨-٧٠». فهذا المزن الركامي ينمو إلى الأعلى، ويتكون من ثلاث طبقات:

١ - الطبقة الأولى نقط نامية من الماء.

٢ - الطبقة المتوسطة نقط درجة حرارته تحت الصفر، ولكنها سائلة.

٣ - الطبقة العليا نقط ثلجية.

فالطبقة العليا تسقط نقط الثلج على الطبقة المتوسطة ثم الطبقة السفلى، فتكون نقط ثلجية يعجز الهواء عن حملها مما يؤدي إلى سقوطها على هيئة مطر، وبعضها يذوب قبل وصوله إلى الأرض. والبعض الآخر يصل إلى الأرض جامداً وهو مايسمى البرد. قال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ «النور: ٤٣».

فما علاقة البرد بالبرق والرعد؟

فلحجم البرد وذوبانه دور في عمليات شحن السحابة بالكهرباء التي تسبب البرق والرعد. لأنه عند النمو يشحن بشحنة، وعند الذوبان يشحن بشحنة مضادة. مما يؤدي إلى التآلف بين السحب في السماء، وهذا من دلائل إعجاز الله عز وجل.

أبعد هذه الآيات العظام وهذا النظام الكوني المنتظم يكون نزول المطر ووجود الماء هباءاً منثورا؟ أم هناك فوائد لهذا المطر؟.

نعم هناك فوائد واستخدامات كثيرة كما سبق. «هيئة الإعجاز العلمي، أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة في عالم النبات، ص١١-٤٣»، «هيئة الإعجاز العلمي، إعجاز القرآن الكريم في وصف أنواع الرياح، السحاب، المطر، ص٣٧-٥١»، «مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص١٨٧-١٩٠».

٤ - قال تعالى : **﴿وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون﴾** «الأنفال : ٦٠» .

هذه الآية صريحة في الأمر بالأخذ بالأسباب الجهادية في سبيل الله عز وجل، وذلك بإعداد العدة لمواجهة العدو بكل مايمكن من سلاح وزاد وقوة وخيل وغيرها .

يقول ابن كثير : « . . . ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم - أي الكفار - حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة . . . »أ. هـ[1] .

ويقول عبدالرحمن بن ناصر السعدي : « . . . قال تعالى : «ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته فإذا كان موجودا الشيء الأكثر إرهاباً منها كالسيارات البرية والهوائية المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد كانت مأمورا بالاستعداد بها والسعي لتحصيلها حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة وجب ذلك ، لأن مالايتم الواجب إلا به فهو واجب»أ. هـ[2] .

٥ - قال تعالى : **﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾** «الجمعة : ١٠» .

هذه الآية الكريمة فيها الأمر باتخاذ الأسباب الكونية في قوله تعالى : ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ . وفيها الأمر باتخاذ الأسباب الشرعية في قوله تعالى : ﴿واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ .

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٢ ، ص٣٠٧ .

(٢) عبدالرحمن بن ناصر السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ج٣، ص٨٨ .

يقول ابن كثير: « «فإذا قضيت الصلاة» أي: فرغ منها «فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله» لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله كما كان عراك بن مالك(*) -رضي الله عنه- إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: «اللهم إني أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين. . . »أ. هـ[1].

وذكر أيضاً أن عبدالله بن بسر المازني(**) أنه كان إذا صلى الجمعة خرج إلى السوق يتأول هذه الآية: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ إلى آخر الآية. »أ. هـ[2].

وقيل: إنّ عبدالله بن أحمد(***) قال: سألت أبي عن قوم يقولون: نتكل على الله ولا نكتسب، فقال: «ينبغي للناس كلهم يتوكلون على الله - عز وجل - ولكن

---

(*) عراك بن مالك الغفاري المدني، أحد العلماء العاملين. روى عن أبي هريرة، وعبدالله بن عمر، وزينب بنت أبي سلمة، وعن عائشة. وثقه أبوحاتم وغيره، وكان يسرد الصوم، وقال عمر بن عبدالعزيز: ماأعلم أحداً أكثر صلاة من عراك بن مالك. مات في عهد يزيد بن عبدالملك باليمن سنة ١٠٤هـ وقيل قبلها. «سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج٥، ص٦٣-٦٤».

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٣٦٧.

(**) عبدالله بن بسر المازني، أبوصفوان، ويقال أبوبسر، من بني مازن ابن منصور، صحابي. كان ممن صلى إلى القبلتين، له ٥٠ حديثا. توفي سنة ٨٨ هـ بحمص، عن عمر ٩٥ عاما، وهو آخر الصحابة موتا بالشام. «الاستيعاب، ج٢، ص٢٦٧. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٤٣٠. - الإصابة، ج٢، ص٢٨١-٢٨٢. - الأعلام، للزركلي، ج٤، ص٧٤».

(٢) الخلال، الحث على التجارة، ص١٥٣.

(***) عبدالله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، البغدادي، أبوعبدالرحمن، حافظ للحديث، من أهل بغداد، له عدة مصنفات منها «الزوائد»، «زوائد المسند»، «مسند أهل البيت»، ولد سنة ٢١٣هـ، وتوفي سنة ٢٩٠هـ. «شذرات الذهب، ج٢، ص٢٠٣. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص٥١٦. - مختصر طبقات الحنابلة، ص٢٣-٢٤. - الأعلام، للزركلي، ج٤، ص٦٥».

يعودون على أنفسهم بالكسب، قال تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾، فبهذا قد علم أنهم يكتسبون ويعملون. وقال النبي ﷺ: «من عال ابنتين أو ثلاثاً فله الجنة»(*). يعني من قال بخلاف هذا، هذا قول إنسان أحمق. قال: وسمعت أبي - رحمه الله - يقول: الاستغناء عن الناس بطلب - يعني العمل - أعجب إلينا من الجلوس وانتظار مافي أيدي الناس»أ.هـ[1].

والآيات الدالة على الأمر باتخاذ الأسباب الشرعية والكونية كثير جداً، فما ذكرته ماهو إلا أمثلة على ذلك.

---

(*) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات، ج٤، ص٢٠٢٧-٢٠٢٨. قال صلى الله عليه وسلم: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو» وضم أصابعه.

(١) الخلال، الحث على التجارة، ص١٥٦.

# المبحث الثاني

# الأمر باتخاذ الأسباب

# في السنة النبوية

قد عرضنا فيما سبق الآيات الدالة على الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم وما السنة النبوية إلا شارحة لهذه الآيات، سواء بالقول، أو العمل، أو التقرير من الرسول ﷺ.

لذلك سوف نذكر هنا بإذن الله تعالى بعض الأحاديث الدالة على الأمر باتخاذ الأسباب سواء الشرعية أو الكونية.

**أولاً : الأسباب الشرعية في السنة النبوية :**

١ - عن علي(*) -رضي الله عنه- قال: كنا جلوسا مع النبي ﷺ ومعه عود ينكث به في الأرض، فنكس، وقال: مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة. فقام رجل من القوم: ألا نتكل يارسول الله؟ قال: لا، اعملوا فكل ميسر، ثم قرأ «فأما من أعطى واتقى» الآية»(١).

يقول النووي(**): «وفي هذه الأحاديث النهي عن ترك العمل والاتكال على

---

(*) علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب الهاشمي أبوالحسن، أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين، وابن عم النبي ﷺ وصهره، وأول الناس إسلاما بعد خديجة، وقعت في عهده وقعة الجمل، ووقعة صفين، ووقعة النهروان، ولد بمكة سنة ٢٣ق.هـ، وقتل على يد عبدالرحمن بن ملجم سنة ٤٠هـ بالكوفة. «الإستيعاب، ج٣، ص٢٦-٦٨. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٠-١٣. - وانظر: الإصابة، ج٢، ص٥٠٧-٥١٠. - الأعلام، للزركلي، ج٤، ص٢٩٥»،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدرا مقدورا، ج٧، ص٢١٢.

(**) يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبوزكريا، محي الدين، علامة بالفقه والحديث، له مصنفات عدة منها «تهذيب الأسماء واللغات»، «رياض الصالحين»، «المنهاج في شرح صحيح مسلم»، ولد سنة ٦٣١هـ في نوا من قرى حوران، بسورية، وتوفي بها سنة ٦٧٦هـ. «انظر: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٥٤. - الأعلام، للزركلي، ج٨، ص١٤٩».

ماسبق به القدر؟ بل تجب الأعمال، والتكاليف التي ورد الشرع بها، وكل ميسر لما خلق له، . . . »أ. هـ[١].

كلمة «اعملوا» كلمة صريحة في الأمر باتخاذ الأسباب الشرعية.

يقول ابن تيمية: «فبين النبي ﷺ أن الله علم أهل الجنة من أهل النار، وأنه كتب ذلك ونهاهم أن يتكلوا على هذا الكتاب، ويدعوا العمل كما يفعله الملحدون. وقال: كل ميسر لما خلق له، وان أهل السعادة ميسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ميسرون لعمل أهل الشقاوة، وهذا من أحسن مايكون من البيان. »أ. هـ[٢].

فالحديث يدل على العمل ويدل على أنه سبب في دخول الجنة، وتركه سبب في دخول النار، وأن كلاً ميسر لما خلق له، فترك العمل والأسباب الموصلة إلى الجنة ليس توكلا ظنه البعض، ولكن بين لهم رسول الله ﷺ أن القدر المكتوب كان عن سابق علم من الله عز وجل بعمل العامل ونيته من العمل.

ويقول ابن القيم: «فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولايوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: ماكنت أشد اجتهادا مني الآن. . . . فإن النبي ﷺ أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب، فإن العبد ينال ماقدر له بالسبب الذي أقدر عليه ومكن منه وهيء له. . . . »أ. هـ[٣].

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، ج٥، ص٥٠٣.

(٢) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص٦٨.

(٣) ابن القيم، شفاء العليل، ص٥٦-٥٧.

٢ - عن أبي هريرة(*) عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيئ من الدلجة»[١].

يقول ابن حجر: «قوله «فسددوا» أي: الزموا السداد، وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط، قال أهل اللغة: السداد التوسط في العمل.

قوله: «وقاربوا» أي إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب به.

قوله: «وأبشروا» أي: بالثواب على العمل وإن قل، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لايستلزم نقص أجره، وأبهم المبشر به تعظيما وتفخيما.

قوله «واستعينوا بالغدوة» أي: استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة. . . . .

ومناسبة إيراد المصنف لهذا الحديث عقب الأحاديث التي قبله ظاهرة، من حيث إنها تضمنت الترغيب في القيام والصيام والجهاد، فأراد أن يبين أن الأولى للعامل بذلك أن لايجهد نفسه بحيث يعجز وينقطع، بل يعمل بتلطف وتدريج ليدوم عمله ولاينقطع. . .»أ. هـ[٢].

---

(*) عبدالرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة، صحابي، كان أكثر الصحابة حفظا للحديث ورواية له، فروى ٥٣٧٤ حديثا، قدم المدينة ورسول الله ﷺ بخيبر، فأسلم سنة ٧هـ، ولي إمرة المدينة مدة، ولما صارت الخلافة إلى عمر رضي الله عنه استعمله على البحرين ثم عزله للينه، وشغله بالعبادة، ولد سنة ٢١ق. هـ، وتوفي سنة ٥٩هـ بالمدينة. «الإستيعاب، ج٤، ص٢٠٢-٢١٠. - شذرات الذهب، ج١، ص٦٣. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٥٧٨. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٣٢-٣٧. - الإصابة، ج٤، ص٢٠٢-٢١١. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٣٠٨».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ج١، ص١٥.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ج١، ص١١٦-١١٨.

فالحديث دليل صريح في الأخذ بالأسباب الشرعية حيث أمر بالسداد، والمقاربة، والاستعانة بالغدوة والروحة، وعدم العجز عن ذلك تصنعا، أو الأفراط حتى العجز حقيقة.

٣ - عن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي(*) - رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع، فقال: «اتقوا الله وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم، تدخلوا جنة ربكم»[١].

هذا الحديث صريح في الأخذ بالأسباب الشرعية من صلاة، وصيام، وأداء للزكاة، وطاعة أولياء الأمر، وجزاء ذلك ونتيجته وهو دخول الجنة.

يقول الطيبي(**): «حكمة إضافة هذا ومابعده إليهم إعلامهم بأن ذوات هذه الأعمال بكيفيتها المخصوصة من خصوصياتهم التي امتازوا بها عن سائر الأمم، وحثهم على المبادرة للامتثال بتذكيرهم بما خوطبوا به، وتذكيرهم بأن هذه الإضافة العملية يقابلها إضافة فضلية هي أعلى منها وأتم وهي الجنة...» أ.هـ[٢].

والأحاديث الدالة على الأسباب الشرعية واتخاذها كثيرة جداً، وتضم كل حديث عن الأعمال الباطنة أو الظاهرة.

---

(*) صدى بن عجلان بن وهب الباهلي، أبوأمامة، صحابي، كان مع علي في «صفين» وسكن الشام، فتوفى في أرض حمص. وهو آخر من مات من الصحابة بالشام. له في الصحيحين ٢٥٠ حديثا. «الإستيعاب، ج٢، ص١٩٨-١٩٩. - وانظر: شذرات، ج١، ص٩٦. - الإصابة، ج٢، ص١٨٢. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٢٠٣».

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصلاة، باب منه ٤٣٤، ح٦١٦، ج٢، ص٥١٦-٥١٧. قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(**) لم أعرفه.

(٢) المباركفوري، تحفة الأحوذي، كتاب الصلاة، باب منه، ج٣، ص٢٣٨.

## ثانياً : الأسباب الكونية في السنة النبوية :

قد سبق أن تحدثنا عن الأسباب الشرعية في السنة النبوية، وهنا سوف نتحدث عن الأسباب الكونية فيها .

١ - عن أسامة بن شريك(*) قال: قالت الأعراب: يارسول الله ألا نتداوى؟ قال: نعم، ياعباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء- أو قال دواء - إلا داءً واحداً، قالوا: يارسول الله وماهو ؟ قال: الهرم»[١] .

وهذا الحديث أمر صريح في التداوي واتخاذ الأسباب الكونية في ذلك .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «ماأنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»[٢] .

يقول ابن حجر: « . . . . ووقع في رواية طارق بن شهاب(**) عن ابن

---

(*) أسامة بن شريك الثعلبي، قال البخاري: أسامة بن شريك أحد بني ثعلبة له صحبة، روى حديثه أصحاب السنن وأحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم. «انظر: الاستيعاب، لابن عبدالبر، ج١، ص٦٠. - الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ج١، ص٣١».

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ج٤، ص٢٧٨. - وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب الطب، باب ماجاء في الدواء والحث عليه، ح٢٠٣٨، ج٤، ص٣٨٣. - وأخرجه أبوداود في سننه، كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى، ح٣٨٥٥، ج٤، ص١٩٢-١٩٣. - وأخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الطب، باب ماأنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، ج٢، ص١١٣٧. قال أبوعيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ماأنزل من داء إلا وله شفاء، ج٧، ص١١ .

(**) طارق بن شهاب بن عبدشمس بن سلمة البجلي الأحمسي، أبوعبدالله، من الغزاة، أدرك النبي ﷺ وغزا في خلافة أبي بكر وعمر، ثلاثا وثلاثين غزوة. وسكن الكوفة. وله في صحيح البخاري، وصحيح مسلم وبقية الكتب الستة أحاديث، عن الصحابة، منها ماهو عن الخلفاء الأربعة، توفي سنة ٨٣هـ. «الإستيعاب، ج٢، ص٢٣٧. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٤٨٦. - الإصابة، ج٢، ص٢٢٠. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٢١٧».

مسعود(*) رفعه: «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء فتداووا». وأخرجه النسائي وصححه ابن حبان والحاكم، ونحوه للطحاوي وأبي نعيم من حديث ابن عباس . . . وفي حديث ابن مسعود الإشارة إلى أن بعض الأدوية لايعلمها كل أحد، وفيها كلها إثبات الأسباب. وأن ذلك لاينافي التوكل على الله لمن أعتقد أنها بإذن الله وبتقديره، وأنها لاتنجع بذواتها بل بما قدره الله تعالى فيها، وأن الدواء قد ينقلب داء إذا قدر الله ذلك، وإليه الإشارة بقوله في حديث جابر «بإذن الله»، ولمسلم عن جابر رفعه: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله»، فمدار ذلك كله على تقدير الله وإرادته. والتداوي لاينافي التوكل كما لاينافي دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب، وكذلك يجنب المهلكات والدعاء بطلب العافية ودفع المضار وغير ذلك»أ. هـ(١).

ويقول العيني(**): « . . . وفيه إباحة التداوي وجواز الطب وهورد على الصوفية

---

(*) عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبوعبدالرحمن، صحابي، من أكابرهم، فضلا وعقلا، وقربا من رسول الله ﷺ. وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان خادم رسول الله الأمين، قال عنه عمر: وعاء ملئ علما، وولي بعد وفاة النبي ﷺ بيت مال الكوفة وله ٨٤٨ حديثا، وتوفي سنة ٣٢هـ في عهد عثمان. «الاستيعاب، ج٢، ص٣١٦-٣٢٦. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٣-١٦. - وانظر: الإصابة، ج٢، ص٣٦٨-٣٧٠. - الأعلام، للزركلي، ج٤، ص١٣٧».

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب ماأنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، ج١، ص١٤١-١٤٢. - أبي العباس القسطلاني، إرشاد الساري، كتاب الطب، باب ماأنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، ج٨، ص٣٦٠.

(**) محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، أبومحمد، بدرالدين العيني الحنفي، مؤرخ، علامة، من كبار المحدثين. وولي في القاهرة الحسبة وقضاء الحنفية ونظر السجون، له عدة مصنفات منها «عمدة القاري في شرح البخاري»، «العلم الهيب في شرح الكلم الطيب»، «المقاصد النحوية»، ولد سنة ٧٦٢هـ في عينتاب في حلب، وتوفي سنة ٨٥٥هـ بالقاهرة. «انظر: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٨٦. - الأعلام، للزركلي، ج٧، ص١٦٣».

أن الولاية لاتتم إلا إذا رضي بجميع مانزل به من البلاء، ولايجوز له مداواته، وهو خلاف ماأباحه الشارع»أ. هـ[١].

فالحديث السابق، والأحاديث التي ذكرها ابن حجر في قوله السابق، دالة صراحة على الأمر بالتداوي، والأخذ بالأسباب الكونية في ذلك في حدود الشرع.

يقول سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب[*]: «. . . أما مباشرة الأسباب نفسها، والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعا كما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعا: «ماأنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء» وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا: يارسول الله: أنتداوى؟ فقال: نعم ياعباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد قالوا: ماهو؟ قال: الهرم. . . .»أ. هـ[٢].

ويقول ابن القيم: «تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها والأمر بالتداوي، . . .، بل لاتتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرا وشرعا»أ. هـ[٣].

---

(١) بدر الدين العيني، عمدة القاري، كتاب الطب، باب ماأنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، ج١١، ص٢٣٠.

(*) سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، من آل الشيخ، فقيه من أهل نجد، من حفدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، كان بارعا في التفسير والحديث والفقه، وشى به بعض المنافقين إلى إبراهيم باشا ابن محمد علي، بعد دخوله الدرعية واستيلائه عليها، له عدة مصنفات من أشهرها «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد»، ولد سنة ١٢٠٠هـ بالدرعية، وقتل في الوشية السابقة الذكر بالرصاص سنة ١٢٣٣هـ فمزقوا جسمه. «الأعلام، للزركلي، ج٣، ص١٢٩».

(٢) الشيخ سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب، تيسير العزيز الحميد، ص١١٠-١١١.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ج٤، ص١٤.

وذكر أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: اسقه عسلا. ثم أتاه الثانية فقال: اسقه عسلا. ثم أتاه الثالثة فقال: اسقه عسلا. ثم أتاه فقال: فعلت؟ فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلا، فسقاه، فبرأ»أ. هـ[١].

وهذا الحديث دليل صريح على الأمر بالتداوي بالعسل، وإن كان خاصًا في لفظه ولكنه عام في معناه لجميع المسلمين، وغيرهم.

وقال ﷺ: «عليكم بالشفاءين العسل والقرآن»أ. هـ[٢].

فقد جمع هذا الحديث بين طب الأجساد وطب الأرواح، وبين السبب الأرضي وهو العسل والسبب السماوي وهو القرآن. وهذا يدل على أن الإنسان مطلوب منه السعي وراء العلاج الذي قدره الله - عز وجل - لهذا المرض. وعدم الاقتصار على القرآن وحده وترك العمل والسعي وراء الأسباب الأخرى مع التوكل والاعتماد على الله عز وجل، إن ذلك كله بقوته وفضله ومعونته، وهذا ماأشار إليه موفق الدين البغدادي[*] في قوله: «... فما أتقن هذا التدبير وما أفضله في قوله ﷺ: «عليكم بالشفاءين العسل والقرآن، جمع بين الطب البشري والطب الإلهي، وبين الفاعل الطبيعي والفاعل الروحاني، وبين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل. قوله تعالى ﴿شفاء للناس﴾، ج٧، ص١٢-١٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطب، ح٣٤٥٢، ص١١٤٢. - وأخرجه الحاكم في مستدركه، ج٤، ص٢٠٠. قال الحاكم: إسناده صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. - وقال الهيثمي في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(*) عبداللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، موفق الدين، يعرف بابن اللباد، وبابن نقطة، من فلاسفة الإسلام، وأحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطب والتاريخ والبلدان والآداب، من مصنفاته: «قوانين البلاغة»، «تهذيب كلام أفلاطون»، «غريب الحديث». ولد سنة ٥٥٧هـ ببغداد، وتوفي سنة ٦٢٩هـ فيها. «انظر: سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص٣٢٠. - الأعلام، للزركلي، ج٤، ص٦١».

طب الأجساد وطب الأرواح، وبين السبب الأرضي والسبب السماوي. وفي هذا سر لطيف أي: لايكتفي بالقرآن وحده ويبطل السعي والعمل، بل يعمل بما أمر، ويسعى في طلب الرزق كما قدر ويسأله المعونة والتوفيق لما يسر، بمنزلة الفلاح الذي يحرث الأرض ويودعها البدع [البذر] ثم يتضرع إلى خالقه في دفع العاهات وإنزال القطر، ويستعمل بعد ذلك التوكل على الله - سبحانه وتعالى - في تمام مامنه حذر وأنذر في جلب الصحة ودفع الضرر»أ. هـ[1].

فالتداوي - وهو أحد الأسباب الكونية - أمر مطلوب شرعا في الكتاب والسنة. وقد وردت الأحاديث بالأمر بالتداوي سواء بالعسل كما سبق، أو الحبة السوداء، أو العود الهندي وغيرها[*].

---

(١) موفق الدين عبداللطيف البغدادي، الطب من الكتاب والسنة، تحقيق: عبدالمعطي قلعجي، ص١٢٩-١٣٦.

(*) كذلك يدخل فيه قول خالد بن سعد قال: «خرجنا ومعنا غالب بن أبجر، فمرض في الطريق، فقدمنا المدينة وهو مريض، فعاده ابن أبي عتيق فقال لنا: عليكم بهذه الحبيبة السوداء فخذوا منها خمسا أو سبعا فاسحقوها، ثم أقطروها في أنفه بقطرات زيت في هذا الجانب وفي هذا الجانب فإن عائشة - رضي الله عنها - حدثتني أنها سمعت النبي ﷺ يقول: إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلا السام. قلت: وما السّام؟ قال: الموت» «أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الحبة السوداء» «ج٧، ص١٣». وعن أبي هريرة رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول: في الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلا السام. قال ابن شهاب: والسام الموت، والحبة السوداء الشونيز. «نفس المصدر». هذه هي الحبة السوداء وأحاديثها، أو حبة البركة، أو الكمون الأسود، كاز، شونيز، كالاجاجي كالدورة، كارزنا، جيراكا، الكروية السوداء.. . الخ كلها أسماء لها في الطب القديم والحديث. فهي الحبوب السوداء كالسمسم حجما، فهي تحمل من الفوائد والشفاء ماتكلم عنه كثير من الاطباء. فالحبة السوداء مذهبة للنفخ، مذيبة للحصوة في الكلى والمثانة، علاج للزكام، مفيدة لضيق التنفس، مدمرة لفيروسات. وقد أثبت العلم والتجارب الحديثة التي أجريت على أنها موسعة للشعب الهوائية لذلك فهي علاج للبلغم، ونافعة لأوجاع الرأس المزمنة، وذات تأثير مضاد للميكروبات، ومنظمة لضغط الدم، وتأثيرها واضح في إدرار إفرازات المرارة. وقد اكتشف العلم الحديث أيضا أنها علاج لبعض حالات السرطان والإيدز «قصور المناعة» وغيرها ==

== من الأمراض. فالحبة السوداء علاج منذ ٢٠٠٠ سنة استخدمته دول الشرق، والأوسط والأقصى، وجاء الطب النبوي قبل ١٤٠٠ عام كذلك حاثا على فوائد الحبة السوداء. «هيئة الإعجاز العلمي، أوجه الإعجاز العلمي في الحبة السوداء، ص١٠١-١٢١» - «ابن سينا، القانون في الطب، ص٢٨٨». - موفق الدين البغدادي، الطب من الكتاب والسنة، ص٨٨-٨٩. - محمد عزت عارف، معجزات الشفاء في الحبة السوداء، ص٧-٢٤».

أما بالنسبة للعسل فالآيات الكريمات والأحاديث الشريفة قد دلت على أنه «شفاء للناس»، وقد ذهل العلماء عندما عرفوا مدى تأثير هذا الدواء الإلهي العجيب في معالجة الكثير من الأمراض، وبعضها لم يكتشفه علماء الطب إلى الآن علاج فعال له كالتهاب الأنف الضمورية، والخشكريات والقروح الواسعة في الجلد. . . وغيرها. «عبدالحميد دياب وأحمد قرقوز، مع الطب في القرآن الكريم، ص١٩٠». وهو دواء ذو تأثيرات إيجابية غير سلبية، وهو ماأثبته العلم الآن. «عبدالحميد دياب وأحمد قرقوز، مع الطب في القرآن الكريم، ص١٩٠».

فقد وجد أن العسل غذاء كامل يحتوي على معظم الفيتامينات مثل: فيتامين «ج»، «ك»، «د»، وغيرها. وبالنسبة للأملاح والمعادن الضرورية فهو غني بها، وكذلك يحتوي عسل النحل على الخمائر والأنزيمات والشيء الكثير من الفوائد.

«هناك كتب كثيرة تكلمت عن الإعجاز الطبي والعلمي للعسل ومن هذه الكتب: أ - ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل وقوله ﴿شفاء للناس﴾، ج١٠، ص١٤٦» - هيئة الإعجاز العلمي، أوجه الإعجاز العلمي في عالم النحل. اللبن وتركيبه الكيميائي. الحبة السوداء»، ص١٢-٦٠» - ابن سينا، القانون في الطب، ص٢٣-٢٥».

وهو علاج الكثير من الأمراض فالعسل يجلو الأوساخ التي في العروق والأمعاء، وذلك يقوم بدفع الفضلات الزائدة من الجسم، وغسل المعدة، وفتح افواه العروق. أما في الطب الحديث فقد اكتشف الصينيون أن العسل علاج للجدري. وقد أورد الطبيب السوري «محمد نزار الدقر» أخصائي الأمراض الجلدية والحاصل على لقب دكتور فلسفة في العلوم الطبية بحوثا كثيرة ومتعددة عن الاستشفاء بالعسل، وبخاصة أمراض الجلد. فهو مفيد سواء كان شرابا خالصا، أو ممزوجا بغيره، سواء كان دهن أو استنان، ولم يكن يعول أو يرجع قدماء الأطباء في الأدوية المركبة إلا عليه. وقد أكد الدكتور/ يونغ الصيني عام ١٩٤٤م أن العسل يعالج تقرحات الساق المزمنة، وكذلك وصف الدكتور/ ميخائيل برلمان عام ١٩٥٥م في مقال له بمجلة طبية انجليزية الضمادات العسلية التي كان يغيرها كل أربع وعشرين ساعة حتى يتماثل المريض للشفاء، ثم بعد ذلك يستعمل ضمادا جافا. «محمد داود الجزائري، الإعجاز الطبي في القرآن والسنة، ص١٦٦-١٦٨». ==

٢ – عن جابر بن عبدالله– رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ : «خمروا الآنية، وأجيفوا الأبواب، وأطفئوا المصابيح فإن الفويسقة(*) ربما جرت الفتيلة فأحرقت أهل البيت»(١).

هذا الحديث يدل دلالة صريحة على الأخذ بالأسباب الكونية في الحذر والأمان وهي ثلاث أوامر من الرسول ﷺ في ذلك .

أولاً : تخمير الآنية لعدم وقوع الهوام عليها فتتسبب في الهلاك والآفات .

ثانياً : غلق الأبواب بالليل ، للأمن من السرقة والقتل ، والأمن من دخول مالا يرغب من دخوله من إنسان أو حيوان ، يخاف المضرة منه ، وللأحساس بالطمأنينية والأمن أثناء النوم ، فالإنسان في حصن حصين من الله –عز وجل– مادام آخذ بالسبب وأغلق الأبواب .

---

== فالرسول ﷺ قد حثنا على علاجات وأدوية كما سبق أن قلنا ومنها العود الهندي ، عن أم قيس بنت محصن قالت : سمعت النبي ﷺ يقول : عليكم بهذا العود الهندي فإن فيه سبعة أشفية : يستعط به من العذرة ، ويلد به من ذات الجنب» «أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الطب ، باب السعوط بالقسط الهندي والبحري ، ج٧ ، ص١٤» الفتح(١٠/ ١٥٥) . وكذلك قال : «الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين» . «أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الطب ، باب المن شفاء للعين ، ج٧ ، ص١٧ ، مع الفتح(١٠/ ١٧٢) . وعن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : من اصطبح كل يوم تمرات عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل» وقال غيره : «سبع تمرات» . «أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الطب ، باب الدواء بالعجوة للسحر ، ج٧ ، ص٣١ ، مع الفتح (١٠/ ٢٤٩) .

وغيرها من الأحاديث الدالة على الاستشفاء بأنواع الأدوية ، والأخذ بها كسبب للشفاء كثيرة جدا .

(*) الفويسقة : الفأرة .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأستئذان ، باب إغلاق الأبواب بالليل ، وباب لاتترك النار في البيت عند النوم ، ج٧ ، ص١٤٣ . مع الفتح (١١/ ٨٨) .

ثالثاً : إطفاء المصابيح، أو مكامن النيران، لأن في إبقائها إمكانية لحدوث الحرائق وإضراراً للإنسان سواء بالتطاير، أو كما ذكر رسول الله ﷺ من أذى الفويسقة .

فهو حديث يشتمل على عدة أسباب لعدة مسببات أمرنا باتخاذها .

قال ابن دقيق(*) : «إذا كان العلة في إطفاء السراج الحذر من جر الفويسقة الفتيلة فمقتضاه أن السراج إذا كان على هيئة لاتصل إليها الفأرة لايمنع إيقاده» أ. هـ(١) .

ومن خلال هذاالحديث نستنتج أسباباً كونية أخرى وهي استخدام الأبواب ، والأواني، والمصابيح في المنازل وعدم كراهية ذلك أو منعه . فهي أمور مشروعة تدعو للأخذ بالأسباب الكونية .

٣ - عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه» أ. هـ(٢) .

يقول النووي : «فيه الحث على الصدقة ، والأكل من عمل يده، والاكتساب بالمباحات، كالحطب والحشيش النابتين في موات(**) . . . .» أ. هـ(٣) .

فهذا الحديث كما قال النووي فيه حث على التجارة، والسعي في كسب الرزق . وهو أمر باتخاذ السبب الكوني وهو التجارة .

---

(*) محمد بن علي بن وهب بن مطيع، أبوالفتح، تقي الدين القشيري، المعروف كأبيه وجده بابن دقيق العيد. قاض، من أكابر العلماء بالأصول، مجتهد. له عدة مصنفات منها «شرح الأربعين النووية»، «أصول الدين»، «الإلمام باحاديث الأحكام»، ولد سنة ٦٢٥هـ، وتوفي سنة ٧٠٢هـ بالقاهرة. «الأعلام، للزركلي، ج٦، ص٢٨٣».

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الاستئذان، باب لاتترك النار في البيت عند النوم، ج١١، ص٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ج٢، ص١٢٩ .

(**) موات : الأرض التي لايستغلها الإنسان ولا تصلح فيها الزراعة .

(٣) النووي، صحيح مسلم بشرحه، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، ج٣، ص٨٠ .

يقـول أحـمـد بن حنبل- عندمـا سئل عن الرجل يدع العـمل ويجلس ويقـول : ماأعرف إلا ظالماً أو غاصبا فأنا آخذ من أيديهم ولا أعينهم ولا أقويهم على ظلمهم- : «ماينبغي لأحد أن يدع العمل ويقعد ينتظر ما في أيدي الناس . أنا أختار العمل ، والعمل أحب إليَّ، إذا جلس الرجل ولم يحترف دعته نفسه إلى أن يأخذ مافي أيدي الناس ، فإذا أعطوه أو منعوه أشغل نفسه بالعمل والاكتساب ترك الطمع قال ﷺ : «لأن يحمل الرجل حبلا فيحتطب ثم يبيعه في السوق ويستغنى به خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» . فقد أخبر النبي ﷺ أن العمل خير من المسألة . . . . »أ . هـ[1] .

فالعمل خير من المسألة عند أحمد بن حنبل في تأويل الحديث السابق .

٤ - عن أنس[*] - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ «مامن مسلم يغرس غرسا أويزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»أ . هـ[2] .

هذا الحديث فيه الحث على الزراعة ، وهي من الأسباب الكونية المأمور بها .

يقول ابن حجر : « . . . ويستنبط منه اتخاذ الضيعة والقيام عليها . وفيه فساد قول من أنكر ذلك من المتزهدة . . . »أ . هـ[3] .

---

(١) الخلال ، الحث على التجارة ، ص١٦٠-١٦١ .

(**) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري ، أبوثمامة ، أو أبوحمزة ، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه . روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثا . ولد سنة ١٠ق . هـ. بالمدينة ، وتوفي سنة ٩٣هـ بالبصرة ، وكان آخر من مات بالبصرة من الصحابة . «شذرات الذهب ، ج١ ، ص٢٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٦ . - الاستيعاب ، ج١ ، ص٧١-٧٢ . - وانظر : سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص٣٩٥ . - الإصابة ، ج١ ، ص٧١-٧٢ . - تذكرة الحفاظ ، ج١ ، ص٤٤ . - الأعلام ، للزركلي ، ج٢ ، ص٢٤-٢٥» .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الوكالة ، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ، ج٣ ، ص٦٦ .

(٣) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب الحرث والزراعة ، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ، ج٥ ، ص٥-٦ .

ويقول النووي: «وفي هذه الأحاديث فضيلة الغرس وفضيلة الزرع، وأن أجر فاعلي ذلك مستمر مادام الغرس والزرع وماتولد منه إلى يوم القيامة. وقد اختلف العلماء في أطيب المكاسب وأفضلها، فقيل: التجارة، وقيل: الصنعة باليد، وقيل: الزراعة، وهو الصحيح...» أ. هـ[١].

فالأحاديث النبوية الشريفة الدالة على اتخاذ الأسباب الكونية والشرعية تتضمن كل حديث فيه الإشارة أو الحث على اتخاذ أسباب الرزق، أو ملبس، أو مطعم، أو ركوب دابة، أو تجهيز جهاد وحرب، وغيرها.

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، ج٤، ص٥٩.

## المبحث الثالث

## الأمر باتخاذ الأسباب من خلال سير الأنبياء عليهم السلام

قد عرضنا فيما سبق الأمر باتخاذ الأسباب الشرعية والكونية في الكتاب والسنة ، وما سنذكره في هذا المبحث ماهو إلا تطبيق لما مضى ذكره، فالأنبياء عليهم السلام هم القدوة الحسنة في التطبيق ، وإنفاذ أمر الله عز وجل . وما السنة النبوية السابقة الذكر إلا قول الرسول ﷺ ، أو فعله، أو تقريره .

قال تعالى : ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين**﴾ «الأنبياء : ٧٣» .

فسنذكر هنا بعض الأمثلة والتطبيقات لبعض الأنبياء عليهم السلام ، في استخدام واتخاذ الأسباب الشرعية والكونية .

## الأسباب الشرعية والكونية في سير الأنبياء عليهم السلام :

### ١ - آدم عليه السلام :

آدم عليه السلام أبوالبشر قد أخذ بالأسباب الشرعية عند أكله من الشجرة ، فتاب الله عليه .

قال تعالى : ﴿**فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم**﴾ «البقرة : ٣٧»

يقول ابن كثير : « . . . وقال السدي عمن حدثه عن ابن عباس (فتلقى آدم من ربه كلمات) قال آدم عليه السلام : يارب ألم تخلقني بيدك؟ قال له بلى . قال : ونفخت فيّ من روحك؟ قيل له : بلى ، قال : أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال : نعم . . . ورواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه»أ . هـ[1] .

ويتضح من ذلك أن الأسباب مؤدية لحصول النتيجة ، فالله -عز وجل- كان قادراً

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج١ ، ص٧٨ .

على غفران ذنب آدم -عليه السلام- بدون هذه الكلمات، ولكن جعل الكلمات سبباً مأخوذاً به يؤدي إلى النتيجة.

وقيل: إنه استخدم واتخذ الأسباب الكونية في كونه كان حراثا[١]، وقيل: راعيا[٢].

## ٢ - داود عليه السلام:

داود عليه السلام، كان مضرب المثل في عبادته وعمله، أي: أخذه بالأسباب الشرعية والأسباب الكونية.

عن عبدالله بن عمرو[*] قال: «قال لي رسول الله ﷺ: أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوما. وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»أ. هـ[٣].

فهذا الحديث دليل على أخذه بالأسباب الشرعية، من صيام، وصلاة. فكانت أفضل وأحب الصيام عند الله عز وجل.

---

(١) الخلال، الحث على التجارة، ص١١٣. - ابن الجوزي، تلبيس ابليس، ص٢٩١. وقال العسقلاني في الفتح (٤/ ٣٥٨): «وقع في المستدرك عن ابن عباس بسند واه: كان داود زرادا، وكان آدم حراثا، وكان نوح نجارا، وكان إدريس خياطا، وكان موسى راعيا».

(٢) قال ﷺ «مابعث الله نبيا إلا رعى الغنم...» أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، ج٤، ص٥١٦». مع الفتح.

(*) عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هيصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي، كنيته أبومحمد، وأبوعبدالرحمن، سماه رسول الله ﷺ عبدالله بدل العاص، عرف عنه سرد الصيام، وقيام الليل، وقال أبوهريرة رضي الله عنه كان أكثر مني حديثا، توفى سنة ٦٥هـ بالشام، وقد اختلف في سنة موته ومكانه. «انظر: الاستيعاب، ج٢، ص٣٤٦-٣٤٩. - سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٨٠. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٤١-٤٢. - الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ج٢، ص٣٥١-٣٥٢».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، ج٤، ص١٣٤.

يقول ابن حجر : « . . . الدليل على أن صيام داود إنما كان أعدل الصيام وأحبه إلى الله ؛ لأن فاعله يؤدي حق نفسه وأهله وزائره أيام فطره بخلاف من يتابع الصوم . . »أ . هـ[١] .

ويقول ابن حجر بالنسبة للصلاة : « . . . وإنما صارت هذه الطريقة أحب من أجل الأخذ بالرفق للنفس التي يخشى منها السآمة ، وقد قال ﷺ «إن الله لايمل حتى تملوا»[*] والله يحب أن يديم فضله ويوالي إحسانه ، وإنما كان ذلك أرفق ؛ لأن النوم بعد القيام يريح البدن ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم بخلاف السهر إلى الصباح . . . . »أ . هـ[٢] .

قال تعالى : ﴿**وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب**﴾ «ص : ٢١-٢٤»

الشاهد من الآية : «وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب» .

هذا موقف آخر لداود -عليه السلام- في اتخاذ الأسباب الشرعية وهي التوبة .

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال : «خفف على داود عليه السلام القرآن ، فكان يأمر بدوابه ، فتسرج ، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ، ولايأكل إلا من عمل يده»أ . هـ[٣] .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب الصوم ، باب حق الأهل في الصوم ، ج٤ ، ص٢٦٣ .

(*) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب أحب الدين إلى الله أدومه ، ج١ ، ص١٦ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب التهجد ، باب من نام عند السحر ، ج٣ ، ص٢١ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب قوله تعالى ﴿وآتينا داود زبورا﴾ ، ج٤ ، ص١٣٣ .

وقال تعالى: ﴿**وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون**﴾ «الأنبياء: ٨٠».

وقال تعالى: ﴿**ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد . أن أعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير**﴾ «سبأ: ١٠-١١».

هذا الحديث النبوي الشريف ، والآيتان الكريمتان تثبت أخذ داود -عليه السلام- بالأسباب الكونية، من دواب وسرج لها، وعمل بيده، وصنع الدروع ، واستخدامها في القتال.

يقول ابن حجر: «. . . وقد استدل به على مشروعية الإجارة من جهة أن عمل اليد أعم من أن يكون للغير أو للنفس، والذي يظهر أن الذي كان يعمله داود بيده هو نسج الدروع، وألان الله له الحديد، فكان ينسج الدروع ويبيعها ولايأكل إلا من ثمن ذلك، مع كونه كان من كبار الملوك، قال تعالى «وشددنا ملكه»، وفي حديث الباب أيضاً مايدل على ذلك، وأنه مع سعته بحيث أنه كان له دواب تسرج إذا أراد أن يركب، ويتولى خدمتها غيره، ومع ذلك كان يتورع، ولايأكل إلا مما يعمل بيده»أ. هـ[١].

ويقول ابن كثير: ««وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم» يعني صنعة الدروع، قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقاً كما قال تعالى «وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد» أي: لاتوسع الحلقة فتقلق المسمار ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة ولهذا قال: «لتحصنم من بأسكم» يعني في القتال «فهل أنتم شاكرون» أي: نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود فعلمه ذلك من أجلكم»أ. هـ[٢].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى ﴿وآتينا داود زبورا﴾، ج٦، ص٥٢٤-٥٢٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص١٨٢-١٨٣. - ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، ص١٠-١١.

## ٣ - أيوب عليه السلام :

مضرب المثل في الصبر على البلاء، واتخاذ الأسباب الكونية العلاجية في الأمراض الجلدية. قال تعالى: ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر وآتينا أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين**﴾ «الأنبياء: ٨٣-٨٤»

وقال تعالى: ﴿**واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب * اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب * وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب**﴾ «ص: ٤١-٤٤»

فأيوب عليه السلام عندما اشتد عليه البلاء، وخوفه من غواية الشيطان له أو لزوجه اتخذ السبب الشرعي وهو الصبر والدعاء، والتجأ إلى الله -عز وجل- في تفريج كربته، فأمره الله -عز وجل- باتخاذ الأسباب الكونية «اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب».

فيتضح من قصة أيوب -عليه السلام- حكمة السعي بطلب العلاج، والتداوي(*)، والأخذ بالأسباب، مع الاعتماد على خالقها. لأن الله -عز وجل- قادر

---

(*) هنا نجد إعجازاً علمياً في علاج الجلد اكتشفه الأطباء من خلال قوله تعالى ﴿هذا مغتسل بارد﴾ إشارة إلى العلاج الموضعي على الجلد، مثل المحاليل والكريمات. وقال ﴿وشراب﴾ إشارة إلى العلاج بالطريقة العامة المعروفة. كذلك اكتشف الطب أن انخفاض درجة الحرارة له دور في سرعة العلاج لذلك قال الله تعالى ﴿بارد﴾ لتأثير هذه البرودة على الحرارة الداخلية والتغلب عليها. بعد هذا العلاج الحسي نأتي إلى العلاج المعنوي وهو الحالة النفسية بحيث إن نبي الله أيوب -عليه السلام- كان معتمدا على الله -عز وجل- في شفائه أولاً لذلك كان مطمئن القلب، فالحالة النفسية اكتشف حديثا أنها لها تأثير قوي في علاج الأمراض الجلدية. «عبدالحميد دياب، وأحمد قرقوز، مع الطب في القرآن الكريم، ص٣٧-٣٨». - «محمد داود الجزائري، الإعجاز الطبي في القرآن والسنة، ص٨٦-٨٨».

على شفاء أيوب -عليه السلام بدون اتخاذ الأسباب، ولكن الله عز وجل جعل الأسباب وجعل لها مسبباتها؛ ليكون عبرة في عدم تعطيلها .[(١)]

## ٤ - الرسول صلى الله عليه وسلم :

ونختم سير الأنبياء عليهم السلام ، بخاتم الرسل عليهم السلام محمد بن عبدالله ﷺ ، فما الأدلة السابقة من الكتاب والسنة النبوية إلا عبارة عن وحي أنزل عليه من السماء قال تعالى : ﴿**ومابنطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾ «النجم : ٣» . وما السنة إلا أقواله وأفعاله وتقريراته، فما سبق من الأدلة هو المبلغ بها وهو القدوة الحسنة فيها، حتى سير الأنبياء السابقين هو المخبر بما حصل لهم .

فإذن كل ماسبق من الأدلة داخل في سيرته ﷺ ونزيد على ذلك بعض الأمثلة من حياته وسيرته سواء في أخذه بالأسباب الشرعية أو الأسباب الكونية من عباداته ، وملبسه، ومأكله، ومسكنه، وكسبه، وزواجه، وتداويه، وجهاده، وغيرها .

## أولاً : أخذه بالأسباب الشرعية في عباداته :

كل سبب شرعي أمرنا الله عز وجل به، في كتابه من المبلغ به ؟! أليس رسول الله ﷺ ؟

كل سبب شرعي أمرنا الرسول ﷺ في سنته ماهو ؟! أليس أفعاله وأقواله وتقريراته؟

إذن كل سبب شرعي هو القدوة في الأخذ به، من أمثلة ذلك :

عن عائشة رضي الله عنها[(*)] قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم أمرهم من

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص١٨٣-١٨٤ . - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٠ . - ابن حجر ، فتح الباري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وأيوب إذ نادى ربه . . .﴾ الآية، ج٦، ص٤٨٤-٤٨٦ .

(*) عائشة بنت أبي بكر الصديق عبدالله بن عثمان، أفقه نساء المسلمين وأعلمهم بالدين والأدب . تكنى بأم عبدالله، تزوجها النبي ﷺ في السنة الثانية بعد الهجرة، فكانت أحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه، كانت لها حادثة تسمى بالأفك، وموقعة الجمل، كان الصحابة رضوان الله ==

الأعمال بما يطيقون. قالوا: إنا لسنا كهيئتك يارسول الله، إن الله قد غفر لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر. فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يقوم حتى تفطر قدماه.

وعن المغيرة[*] رضي الله عنه قال: إن كان النبي ﷺ ليقوم - أو ليصلي - حتى ترم قدماه - أو ساقاه - فيقال له[**]، فيقول: أفلا أكون عبداً شكوراً»[٢].

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن أن لايصوم منه، ويصوم حتى نظن أن لايفطر منه شيئا. وكان لاتشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته، ولا نائما إلا رأيته»[٣].

---

== عنهم يسألونها عن الفرائض، ولدت سنة ٩ق. هـ بمكة، وتوفيت سنة ٥٨هـ بالمدينة. «الاستيعاب، ج٤، ص٣٥٦-٣٦١. - وانظر: شذرات الذهب، ج١، ص٦١-٦٣. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٧-٢٩. - الإصابة، ج٤، ص٣٥٩-٣٦١. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٢٤٠».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ «أنا أعلمكم بالله» وأن المعرفة فعل القلب لقول الله تعالى ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ ج١، ص١٠.

(*) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أبوعبدالله، أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم، صحابي، يقال له «مغيرة الرأي»، أسلم سنة ٥هـ، شهد الحديبية، واليمامة، وفتوح الشام، وذهبت عينه باليرموك، وشهد القادسية وغيرها، ولاه عمر بن الخطاب البصرة، ثم ولاه الكوفة، وحضر مع الحكمين في فتنة علي ومعاوية رضي الله عنهما وولاه معاوية رضي الله عنه الكوفة، ولد سنة ٢٠ق. هـ بالطائف، وتوفى سنة ٥٠هـ بالكوفة، وله ١٣٦ حديثا. «شذرات الذهب، ج١، ص٣٢-٣٣، ٥٦. - الاستيعاب، ج٣، ص٣٨٨-٣٩١. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٢١. - الإصابة، ج٣، ص٤٥٢-٤٥٣. - الأعلام، للزركلي، ج٧، ص٢٧٧».

(**) فقيل له: «غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر». - «فقالت عائشة: لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك». «فتح الباري، ابن حجر، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه، ج٣، ص١٩-٢٠».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى تورم قدماه، ج٢، ص٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل ونومه ومانسخ من قيام الليل، ج٢، ص٤٦.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[١] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : «صنع النبي ﷺ شيئا ترخص فيه وتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : مابال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إني أعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية»[٢] .

هذه النصوص وغيرها كثير تثبت أخذ النبي ﷺ بالأسباب الشرعية ، وهو الذي غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، فكيف بغيره ، فهو القدوة الحسنة في كل عبادة ، وكل سبب شرعي ، فهو المبلغ بهذه الأسباب ، وهو المشرع من عند الله عز وجل لها ، فهو الأخذ بالأسباب جملة وتفصيلا ، وهو المرجع الأصلي في الأخذ بالأسباب ، والأمر بها من عند الله عز وجل .

فهو أعلمنا بالله عز وجل ، وأتقانا ، وأخشانا ، ولا خروج لنا عن سنته ﷺ .

فالأسباب الشرعية والكونية سنته وهديه وسيرته . فكل سبب شرعي هوقوله وفعله وتقريره ﷺ وهو سيد ولد آدم ، وسيد المتوكلين على الله عز وجل .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة ، ج٧ ، ص١٤٥ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الاعتصام بالسنة ، باب مايكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع لقوله تعالى ﴿ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق . . . الآية﴾ ، ج٨ ، ص١٤٥ .

## ثانياً : أخذه بالأسباب الكونية :

### ١ - في كسبه :

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ عبر الظهران نجني الكباث فقال : عليكم بالأسود منه فإنه أيطب . قالوا : أكنت ترعى الغنم؟ قال : نعم، وهل من نبي إلا وقد رعاها»أ . هـ[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «مابعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه : وأنت؟ فقال : نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»أ . هـ[٢] .

فهذا دليل على أن رعيه للغنم كان بأجرة، يتكسب منها ويأكل منها . حيث قال«أرعاها على قراريط لأهل مكة» أي : بأجرة من قراريط، وهي جزء من الدينار أو الدرهم .

يقول ابن حجر : « . . . يعني كل شاة بقيراط، يعني القيراط الذي هو جزء من الدينار أو الدرهم»أ . هـ[٣] .

### ٢ - في مأكله ومشربه :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : «كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل»أ . هـ[٤] .

عن أنس رضي الله عنه قال : «رأيت النبي ﷺ أتى بمرقة فيها دباء وقديد، فرأيته يتتبع الدباء يأكلها»أ . هـ[٥] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب الكباث، وهو ورق الأراك، ج٦، ص٢١٣ .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، ج٣، ص٤٨ .
(٣) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، ج٤، ص٥١٦ .
(٤) أخرجه البخاري، كتاب الأطعمة، باب الحلواء والعسل، ج٦، ص٢٠٨ .
(٥) أخرجه البخاري، كتاب الأطعمة، باب القديد، ج٦، ص٢٠٩ .

يقول ابن القيم: «وكذلك كان هديه ﷺ، وسيرته في الطعام، لايرد موجوداً، ولايتكلف مفقوداً، فما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه، فيتركه من غير تحريم، وماعاب طعاماً قط، إن أشتهاه أكله، وإلا تركه، كما ترك أكل الضب لما لم يعتده، ولم يحرمه على الأمة، بل أكل على مائدته وهو ينظر. وأكل الحلوى والعسل، وكان يحبهما، وأكل لحم الجزور، والضأن، . . . . ، . . . . . »أ. هـ[1].

وكان ﷺ يطلب الطعام إذا جاع أخذاً بالأسباب الكونية في دفع الجوع. عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ «اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل ورهنه درعاً من حديد»أ. هـ[2].

وكان ﷺ يشرب اللبن مخلوطاً بالماء.

عن أنس رضي الله عنه رأى النبي ﷺ شرب لبنا وأتى داره، فحلبت شاة، فشبت[*] لرسول الله ﷺ من البئر، فتناول القدح فشرب، وعن يساره أبوبكر وعن يمينه أعرابي فأعطى الأعرابي فضله، ثم قال: الأيمن فالأيمن»أ. هـ[3].

وفي هذا الحديث أيضا استخدامه للقدح يشرب فيه، وهو من الأسباب الكونية.

يقول ابن القيم: «وكان له قدح يسمى: الريان، ويسمى مغنيا، وقدح آخر مضبب بسلسلة من فضه، وكان له قدح من قوارير. . . »أ. هـ[4].

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج١، ص ١٤٧ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب شراء النبي ﷺ بالنسيئة، ج٣، ص٨.

(*) فشبت: خلطت. «فتح الباري، لابن حجر، كتاب الأشربة، باب شرب اللبن بالماء، ج١٠، ص٧٧».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب شرب اللبن بالماء، ج٦، ص٢٤٧.

(٤) ابن القيم، زاد المعاد، ج١، ص١٣٢.

## ٣ - في ملبسه :

كان ﷺ يتخذ الأسباب الكونية من الثياب للستر، وللدفء، وللجمال. فقد كان له قميص. عن عبدالله بن عمر(*) رضي الله عنه قال: «لما توفي عبدالله بن أبيّ(**) جاء ابنه(***) إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصل عليه وأستغفر له. فأعطاه قميصه وقال له: إذا فرغت منه فآذنا. فلما فرغ آذنه به، فجاء ليصلي عليه، فجذبه عمر(****) فقال: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين فقال: «استغفر

---

(*) عبدالله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبوعبدالرحمن صحابي، من أعز بيوتات قريش في الجاهلية، كان جريئا جهيرا، نشأ في الإسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، وشهد فتح مكة، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة، وغزا أفريقية مرتين، وكف بصره في آخر حياته، له في كتب الحديث ٢٦٣٠ حديثا. ولد سنة ١٠ق. هـ بمكة، وتوفى سنة ٧٣هـ فيها. «انظر: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٢٠٣. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٣٧-٤٠. - الإصابة، ج٢، ص٣٤٧-٣٥٠. - الأعلام، للزركلي، ج٤، ص١٠٨»،

(**) عبدالله بن أبيّ بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي، أبوالحباب، المشهور بابن سلول، وسلول جدته لأبيه، من خزاعة، رأس المنافقين في الإسلام، من أهل المدينة، كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم، وأظهر الإسلام بعد وقعة بدر، تقية، ولما تهيأ النبي ﷺ لوقعة أحد، أنخذل أبيّ وكان معه ثلاثمائة رجل، فعاد بهم إلى المدينة، وفعل ذلك في غزوة تبوك، وكان كلما حلت بالمسلمين نازلة شمت بهم، وكلما سمع بسيئة نشرها، توفي سنة ٩هـ بالمدينة. «الأعلام، للزركلي، ج٤، ص٦٥».

(***) عبدالله بن عبدالله بن أبيّ بن سلول، سبق ذكر نسبه في نسب أبيه، سماه الرسول ﷺ عبدالله، وشهد بدراً وأحداً والمشاهد، له صحبة، روت عنه عائشة، وقيل: إنه استأذن النبي ﷺ في قتل أبيه «السابق الذكر» فلم يأذن له، وقال له «بل أحسن صحبته»، أصيب انفه، فأمره الرسول ﷺ أن يتخذ أنفاً من ذهب، قتل في اليمامة سنة ١٢هـ. «الاستيعاب، ج٢، ص٣٣٥-٣٣٧. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٣٢١. - الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ج٢، ص٣٣٥-٣٣٦».

(****) عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبوحفص، ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، الصحابي الجليل، الشجاع الحازم، صاحب الفتوحات، يضرب بعدالته المثل، شهد الوقائع، له في كتب الحديث ٥٣٧ حديثا، لقبه الرسول ﷺ بالفاروق، وكناه بأبي حفص، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، ولد سنة ٤٠ق. هـ، وتوفى سنة ٢٣هـ قتله أبو لؤلؤه فيروز الفارسي المجوسي بخنجره. «الاستيعاب، ج٢، ص٥٥٨-٥٧٤. - وانظر: شذرات الذهب، ج١، ص٣٣. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٥-٨. - الإصابة، ج٢، ص٥١٨-٥١٩. - الأعلام، للزركلي، ج٥، ص٤٥-٤٦».

لهم أولا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» فنزلت «ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره» فترك الصلاة عليهم»أ. هـ[١].

وكان يلبس الجبة[*]. عن المغيرة بن شعبة قال: انطلق النبي ﷺ لحاجته، ثم أقبل، فتلقيته بماء، فتوضأ، وعليه جبة شامية، . . . الحديث»أ. هـ[٢] وكان يلبس البرود[**] والحبر الشملة[***]. عن أنس رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية. . . »الحديث. أ. هـ[٣].

وكان يلبس السراويل.

يقول ابن القيم: «كانت له عمامة تسمى: السحاب، كساها عليا، وكان يلبسها ويلبس تحتها القلنسوة[****]. وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة، ويلبس العمامة بغير قلنسوة، وكان إذا اعتم، أرخى عمامته بين كتفيه، كما رواه مسلم في صحيحه عن عمرو بن حريث[*****] قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب لبس القميص، ج٧، ص٣٦.

(*) الجبة: ضرب من مقطعات الثياب تلبس، وهي من أسماء الدرع. «لسان العرب، لابن منظور، ج٢، ص١٦١».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب من لبس جبة ضيقة الكمين في السفر، ج٧، ص٣٧.

(**) الحبر: برد يماني، وقيل: موشية مخططة، وقيل: لونها أخضر، وقيل: من برود اليمن تصنع من قطن وكانت أشرف الثياب عندهم. «فتح الباري، لابن حجر، كتاب اللباس، باب البرود والحبر والشملة، ج١٠، ص٢٨٨». والبرود: كساء أسود مربع فيه صور تلبسه الأعراب. «فتح الباري، لابن حجر، كتاب اللباس، باب البرود والحبر والشملة، ج١٠، ص٢٨٨».

(***) الشملة: مايشتمل به من الأكسية أي: يلتحف. «الفتح، لابن حجر، ج١٠، ص٢٨٨».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب البرود والحبر والشملة، ج٧، ص٤٠.

(****) القلنسوة: القلسوة والقلساة والقلنسوة والقلنسية والقلنساة والقلنيسة: من ملابس الرؤوس المعروف. «لسان العرب، لابن منظور، ج١١، ص٢٧٩».

(*****) عمرو بن حريث بن عمرو بن عثمان المخزومي القرشي، أبوسعيد، وال، من الصحابة، ==

طرفيها بين كتفيه»أ. هـ[١]. وفي مسلم أيضاً «عن جابر بن عبدالله، أن رسول الله ﷺ دخل مكة وعليه عمامة سوداء[٢]......، ولبس القميص وكان أحب الثياب إليه، وكان كمه إلى الرسغ،....، واشترى سراويل والظاهر أنه إنما اشتراها ليلبسها،....، ولبس الخفين،... ولبس الخاتم،.... ولبس النعل...»أ. هـ[٣].

## ٤ - في علاجه «اتخاذه للتداوي»:

كان الرسول ﷺ قد أمرنا بالتداوي كما سبق أن ذكرنا، وقد كان يتداوى ﷺ.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «احتجم النبي ﷺ وهو صائم»[٤]. وفي رواية «وهو محرم»أ. هـ[٥].

وعن عائشة رضي الله عنهاقالت: لما ثقل رسول الله ﷺ واشتد به وجعه، استأذن أزواجه في أن يمرض في بيتي فأذن له، فخرج بين رجلين - تخط رجلاه في الأرض - بين عباس وآخر. فأخبرت ابن عباس، قال: هل تدري من الرجل الآخر الذي لم تسم عائشة؟ قلت: لا. قال: هو علي. قالت عائشة: فقال النبي ﷺ بعد مادخل بيتها واشتد به وجعه: هريقوا[*] علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس. قالت: فأجلسناه في مخضب[**] لحفصة زوج النبي ﷺ، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب،

---

== ولي أمرة الكوفة لزياد، ثم لابنه عبيدالله، له ١٨ حديثا. ولد سنة ٢ق. هـ، وتوفي سنة ٨٥هـ بالكوفة. «الاستيعاب، ج٢، ص٥١٥. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٤١٧. - الإصابة، ج٢، ص٥٣١. - الأعلام، للزركلي، ج٥، ص٧٦».

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب جواز دخول مكة بغير إحرام، ج٢، ص٩٩٠.

(٢) المرجع نفسه، ج٢، ص٩٩٠.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ج١، ص١٣٥-١٤٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب أي ساعة يحتجم، ج٧، ص١٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الحجم في السفر، ج٧، ص١٥.

(*) هريقوا: أريقوا: أي: صبوا. «الفتح، لابن حجر، ج١، ص٣٦٢».

(**) مخضب: الإناء الذي يغسل فيه الثياب، وقيل: يطلق على الإناء صغيراً كان أو كبيراً. «فتح الباري، ج١، ص٣٦١».

حتى جعل يشير إلينا أن قد فعلتن . قالت : وخرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم»أ . هـ[(١)] .

فقد طلب من زوجاته رضوان الله عنهن ، أن يصببن عليه الماء لتخفيف مايجده من الألم . كذلك في غزوة أحد عندما جرح عليه السلام خفف الدم ، وعالج ذلك الجرح .

عن سهل بن سعد الساعدي[(*)] قال : «لما كسرت على رأس النبي ﷺ البيضة[(**)] وأدمي وجهه وكسرت رباعيته ، وكان علي يختلف بالماء في المجن ، وجاءت فاطمة[(***)] تغسل عن وجهه الدم ، فلما رأت فاطمة عليها السلام الدم يزيد على الماء كثرة عمدت إلى حصير فأحرقتها وألصقتها على جرح رسول الله ﷺ ، فرقأ الدم»أ . هـ[(٢)] .

وكان ﷺ يستخدم الرقية لنفسه ولغيره .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في مرضه الذي قبض فيه بالمعوذات ، فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهن ، فأمسح بيد نفسه لبركتها»أ . هـ[(٣)] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الطب ، ج٧ ، ص١٨ .

(*) سهل بن سعد الخزرجي الأنصاري ، من بني ساعدة ، صحابي ، من مشاهيرهم ، من أهل المدينة ، له في كتب الحديث ١٨٨ حديثا ، توفي سنة ٩١هـ وله نحو مئة سنة . «الاستيعاب ، ج٢ ، ص٩٥-٩٦ . - شذرات الذهب ، ج١ ، ص٩٣-٩٩ . - وانظر : سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص٤٢٢ . - الإصابة ، ج٢ ، ص٨٨ . - الأعلام ، للزركلي ، ج٣ ، ص١٤٣» .

(**) البيضة : من السلاح ، سميت بذلك لأنها على شكل بيضة النعام . «لسان العرب ، لابن منظور ، ج١ ، ص٥٥٢» .

(***) فاطمة بنت رسول الله ﷺ ابن عبدالله بن عبدالمطلب ، الهاشمية القرشية ، وأمها خديجة بنت خويلد ، من نابهات قريش ، وإحدى الفصيحات العاقلات ، تزوجها أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في الثامنة عشر من عمرها ، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ، ولفاطمة ١٨ حديثا ، ولدت سنة ١٨ق . هـ ، وتوفيت سنة ١١هـ بعد أبيها بستة أشهر ، وهي أول من جعل له النعش في الإسلام . «شذرات الذهب ، ج١ ، ص٩ ، ١٠ ، ١٥ . - وانظر : سير أعلام النبلاء ، ج٢ ، ص١١٨ . - الأعلام ، للزركلي ، ج٥ ، ص١٣٢» .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الطب ، باب حرق الحصير ليسد به الدم ، ج٧ ، ص١٩ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الطب ، باب في المرأة ترقي الرجل ، ج٧ ، ص٢٦ .

يقول ابن القيم: «فكان من هديه ﷺ فعل التداوي في نفسه، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه، ولكن لم يكن من هديه ولا هدي أصحابه استعمال هذه الأدوية المركبة التي تسمى أقرباذين، بل كان غالب أدويتهم بالمفردات. . . . والتحقيق في ذلك أن الأدوية من جنس الأغذية، فالأمة والطائفة التي غالب أغذيتها المفردات، أمراضها قليلة جدا، وطبها بالمفردات، وأهل المدن الذين غلبت عليهم الأغذية المركبة يحتاجون إلى الأدوية المركبة، وسبب ذلك أن أمراضهم في الغالب مركبة، فالأدوية المركبة أنفع لها. . .»أ. هـ[١].

هذه بعض الأمثلة من هديه وسيرته ﷺ في علاجه، وأخذه بالأسباب الكونية العلاجية.

## ٥ - في سلاحه وجهاده وحرسه:

فالرسول ﷺ أكمل الخلق توكلا، ولم يمنعه ذلك من أخذ الحيطة والحذر والأسباب الجهادية والأمنية في جهاده، وحراسته. وإنما كان يلبس البيضة، والمِغْفَر، ويستخدم السيف، والحراس.

يقول ابن القيم: «كان له تسعة أسياف: مأتور، . . .، والعضب، وذو الفقار، . . .، والقلعي، والبتار، والحتف، والرسوب، والمخدم، والقضيب. . . .

وكان له سبعة أدرع: ذات الفضول، . . .، وذات الوشاح، وذات الحواشي، والسعدية، وفضة، والبتراء، والخرنق، . . . وكان له ترس، . . . وكان له خمسة أرماح. . .، وكان له مغفر من حديد، . . . وكان له ثلاث جباب يلبسها في الحرب، . . . .»أ. هـ[٢].

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٤، ص١١.

(٢) المرجع نفسه، ج١، ص١٣٠-١٣٣.

عن أنس- رضي الله عنه- قال: «كان أبوطلحة(*) يتترس مع النبي ﷺ بترس واحد، وكان أبوطلحة حسن الرمي، فكان إذا رمى يشرف النبي ﷺ فينظر إلى موضع نبله»أ. هـ(١).

يقول ابن حجر: «... وجه هذه التراجم دفع من يتخيل أن اتخاذه هذه الآلات ينافي التوكل..»أ. هـ(٢).

عن أنس رضي الله عنه قال: «أن النبي ﷺ دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر»أ. هـ(٣).

وعن سهل قال: «لما كسرت بيضة النبي ﷺ على رأسه وأدمى وجهه.... الحديث»أ. هـ(٤).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير»أ. هـ(٥).

يقول ابن حجر: «... والأدراع جمع درع وهو القميص المتخذ من الزرد، وأشار المصنف بذكر هذا الحديث إلى أن النبي ﷺ كما لبس الدرع فيما ذكره في الباب ذكر الدرع

---

(*) زيد بن سهل بن الأسود النجاري الأنصاري، صحابي، من الشجعان الرماة المعدودين في الجاهلية والإسلام. شهد العقبة وبدرا وأحدا والخندق وسائر المشاهد، وكان جهير الصوت، ولد سنة ٣٦ق. هـ بالمدينة، وتوفي سنة ٣٤هـ فيها أيضا. ركب البحر غازيا فمات فيه. «الاستيعاب، ج١، ص٥٤٩-٥٥١. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٢٧. - الإصابة، ج١، ص٥٦٦-٥٦٧. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٥٨-٥٩».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب المجن ومن يتترس بترس صاحبه، ج٣، ص٢٢٧.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ج٦، ص١١٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب المغفر، ج٧، ص٤٠.

(٤) سبق تخريجه ص ١١٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ماقيل في درع النبي ﷺ، ج٣، ص٢٣١.

ونسبه إلى بعض الشجعان من الصحابة فدل على مشروعيته وأن لبسها لاينافي التوكل. . . »أ. هـ[١].

وكان ﷺ يتخذ الحراس كما سبق أن ذكرنا . عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ في أول ماقدم المدينة يسهر من الليل، فقال: ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة، فبينما نحن كذلك، إذ سمعنا صوت السلاح، قال رسول الله ﷺ: من هذا؟ قال: أنا سعد[*] جئت أحرسك، قالت: ونام رسول الله ﷺ »أ. هـ[٢].

يقول ابن القيم: «فمنهم - أي: حراسه - سعد بن معاذ[**]، حرسه يوم بدر حين نام في العريش، ومحمد بن مسلمة[***] حرسه يوم أحد، والزبير بن العوام[****] حرسه

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ج٦، ص١١٧.

(*) سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبدمناف القرشي الزهري، أبوإسحاق، الصحابي الأمير، فاتح العراق، ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ويقال له فارس الإسلام، شهد بدرا، وافتتح القادسية، وغيرها من المناقب كثير، ولد سنة ٢٣ق. هـ، وتوفي سنة ٥٥هـ بالعقيق. «الاستيعاب، ج٢، ص١٨-٢٧. - شذرات الذهب، ج١، ص٦١-٦٢. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٩٢. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٢-٢٣. - الإصابة، ج٢، ص٣٣-٣٤. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٨٧».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، ج٣، ص٢٢٢.

(**) سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، الأوسي الأنصاري، صحابي، من الأبطال، من أهل المدينة، كانت له سيادة الأوس، وحمل لواءهم يوم بدر، وشهد أحداً، فكان ممن ثبت فيها، اهتز لموته عرش الرحمن، توفي سنة ٥هـ ودفن بالبقيع. «الاستيعاب، ج٢، ص٢٧-٣٢. - شذرات الذهب، ج١، ص١١. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٢٧٩. - الإصابة، ج٢، ص٣٧-٣٨. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٨٨».

(***) محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري الحارثي، أبوعبدالرحمن، صحابي، من الأمراء، من أهل المدينة، شهد بدرا، ومابعدها إلا غزوة تبوك، واستخلفه النبي ﷺ على المدينة في بعض غزواته، وولاه عمر على صدقات جهينة، واعتزل الفتنة أيام علي رضي الله عنه، وكان عند عمر معدا لكشف أمور الولاة في البلاد، ولد سنة ٣٥ق. هـ، وتوفي سنة ٤٣هـ بالمدينة. «الاستيعاب، ج٣، ص٣٣٤-٣٣٦. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٣٦٩. - الإصابة، ج٣، ص٣٨٣-٣٨٤. - الأعلام، للزركلي، ج٧، ص٩٧».

(****) الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، أبوعبدالله، الصحابي الشجاع، أحد المبشرين ==

يوم الخندق . . . وحرسه جماعة آخرون غير هؤلاء، فلما نزل قوله تعالى : ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ «سورة المائدة: ٦٧» خرج على الناس فأخبرهم بها، وصرف الحرس»أ. هـ[(١)].

فهذا هو رسول الله ﷺ في جهاده، أخذ السلاح، والحرس، ولم يمنعه توكله من ذلك.

## ٦ - في دوابه صلى الله عليه وسلم :

كان ﷺ يأخذ بالأسباب في ركوبه ودوابه. فقد كان له إبل، وبغلة، وخيل، وحمار يركبها ﷺ.

عن عمرو بن الحارث[(*)] قال: «ماترك النبي ﷺ إلا سلاحه وبغلة بيضاء، وأرضا بخيبر جعلها صدقه»أ. هـ[(٢)].

عن سهل بن سعد الساعدي: قال: «كان للنبي ﷺ في حائطنا فرس يقال لها: اللحيف»أ. هـ[(٣)].

عن معاذ بن جبل[(**)] قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار يقال له:

---

== بالجنة، وأول من سل سيفه في الإسلام، وهو ابن عمة النبي ﷺ، وشهد بدرا وأحداً وغيرها، وله عدة مناقب، ولد سنة ٢٨ق. هـ، وتوفي سنة ٣٦هـ قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل. «الاستيعاب، ج١، ص٥٨٠-٥٨٥. - شذرات الذهب، ج١، ص٢٢، ٢٥، ٤٢، ٤٣، ٦٢. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٤١. - الإصابة، ج١، ص٥٤٥. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٤٣».

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج١، ص١٢٧. - ابن القيم، تهذيب مدارك السالكين، تهذيب: عبدالمنعم العزي، ج٢، ص٥٣٩.

(*) عمرو بن الحرث بن أبي ضرار بن عائذ بن مالك بن جذيمة وهو المصطلق بن سعد بن كعب بن عمرو الخزاعي المصطلقي أخو جويرية زوج النبي ﷺ. «انظر: الاستيعاب، ج٢، ص٥١٥-٥١٦. - الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ج٢، ص٥٣١»،

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من لم ير كسر السلاح عند الموت، ج٣، ص٢٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، ج٣، ص٢١٦.

(**) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن الأنصاري الخزرجي، أبوعبدالرحمن، صحابي جليل، كان ==

عفير . . . الحديث»أ. هـ[١].

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: «كان فزع بالمدينة، فاستعار النبي ﷺ فرسا لنا يقال له: مندوب . . . الحديث»أ. هـ[٢].

يقول ابن القيم: «. . . ومن الأبل القصواء، قيل: وهي التي هاجر عليها . . . »أ. هـ[٣].

فالرسول ﷺ حياته وهديه وسيرته وجهاده وزواجه، وسفره، وأثاثه، وملبسه، ومطعمه، ومشربه، ومركبه، ومرضه، وغيرها كلها مليئة بالأسباب الكونية والشرعية.

فما ذكرناه سابقاً ما هو إلا غيظ من فيض، فما ذكرناه بعض الأمثلة من سيرته على أخذه بالأسباب الشرعية والكونية، ومانحن إلا سائرون على نهجه وفعله وقوله وتقريره ﷺ.

قال تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**﴾ «الأحزاب: ٢١».

يقول ابن كثير: «أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ »أ. هـ[٤][٥].

---

= أعلم الأمة بالحلال والحرام، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ، وشهد العقبة، وبدرا، وأحدا والخندق، والمشاهد كلها، بعد غزوة تبوك بعثه الرسول ﷺ قاضيا ومرشدا لأهل اليمن، ولد سنة ٢٠ق. هـ، وتوفي سنة ١٨هـ بالأردن. «الاستيعاب، ج٣، ص٣٥٥-٣٦١. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٤٤٣. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٩-٢٢. - الإصابة، ج٣، ص٤٢٦-٤٢٧. - الأعلام، للزركلي، ج٧، ص٢٥٨»،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، ج٣، ص٢١٦.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص٢١٦.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ج١، ص ١٣٣-١٣٥.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٤٥٧.

(٥) راجع سيرة الرسول ﷺ:

١- الذهبي، تاريخ الإسلام، وطبقات المشاهير والأعلام، ج٢، عني بالتحقيق: حسام الدين المقدسي.

٢- ابن هشام، السيرة النبوية.

٣- ابن القيم، زاد المعاد.

٤- محمد بن عبدالوهاب، مختصر السيرة النبوية.

٥- وغيرها.

# المبحث الرابع

# الأمر باتخاذ الأسباب من خلال سير السلف الصالح رضوان الله عليهم

قد عرضنا فيما سبق الأمر باتخاذ الأسباب الشرعية والكونية في الكتاب والسنة ، وذكرنا بعض الأمثلة من سير الأنبياء عليهم السلام تثبت تطبيقهم ، وإنفاذهم لأمر الله -عز وجل- في هذه الأسباب ، وماسنذكره الآن ماهو إلا أمثلة لتطبيق اتباع هؤلاء الأنبياء رضوان الله عليهم .

عن عمران بن حصين(*) رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً ، ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولايفون ، ويظهر فيهم السِّمَن»أ . هـ(١) .

فسأذكر هنا بعض الأمثلة لأصحاب رسول الله ﷺ ، ولبعض التابعين ، والقرون التي تليهم ، ومن سار على نهجهم بعد ذلك ، ولا نزكي على الله أحداً .

---

(*) عمران بن حصين بن عبيد ، أبونجيد الخزاعي : من علماء الصحابة ، أسلم عام خيبر سنة ٧هـ ، وكان معه راية خزاعة يوم فتح مكة ، وبعثه عمر -رضي الله عنه- إلى أهل البصرة ليفقههم ، وولاه زياد قضاءها ، وهو ممن اعتزل حرب صفين ، له في كتب الحديث ١٣٠ حديثا . توفي سنة ٥٢هـ بالبصرة . «الاستيعاب ، ج٣ ، ص ٢٢-٢٣ . - وانظر : سير أعلام النبلاء ، ج٢ ، ص٥٠٨ . - تذكرة الحفاظ ، ج١ ، ص٢٩-٣٠ . - الإصابة ، ج٣ ، ص٢٦-٢٧ . - الأعلام ، للزركلي ، ج٥ ، ص٧٠» .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، ج٤ ، ص١٨٩ .

## الأسباب الشرعية والكونية في سير السلف الصالح رضوان الله عليهم:

### أولاً : أبوبكر الصديق رضي الله عنه :(*)

قد أخذ أبوبكر الصديق رضي الله عنه بالأسباب الشرعية والكونية اقتداءاً برسول الله ﷺ ، وإنفاذا لما في الكتاب والسنة، فقد عرف عنه سبقه بالخير، والأعمال الصالحة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ قال أبوبكر: أنا، قال: فمن أطعم اليوم مسكينا؟ قال أبوبكر : أنا، قال : فمن شهد منكم اليوم جنازة؟ قال أبوبكر : أنا، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبوبكر : أنا. فقال ﷺ : «ماجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»أ. هـ[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة: هذا خير، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة، دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام، دعي من باب الريان، قال أبوبكر: هل على الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة؟ فهل يدعى منها أحد يارسول الله؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم»أ. هـ[2].

---

(**) عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التيمي القرشي، أبوبكر، أول الخلفاء الراشدين، وأول من آمن من الرجال، نشأ سيدا من سادات قريش، وغنيا من كبار موسريهم، وعالما بأنساب القبائل وأخبارهم وسياستهم، وكانت العرب تلقبه بعالم قريش، وحرم على نفسه الخمر قبل الإسلام، شهد الحروب، واحتمل الشدائد، وبذل الأموال في عهد رسول الله ﷺ ، وبويع بالخلافة سنة ١١هـ، فحارب أهل الردة، وفتح بلاد الشام، وله عدة مناقب أخرى. ولد سنة ٥١ق. هـ بمكة، وتوفي سنة ١٣هـ بالمدينة. «شذرات الذهب، ج١، ص٤٠-٤٧. - الاستيعاب، ج٢، ص٢٤٣-٢٥٧. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٥٠٢. - وانظر: الإصابة، ج٢، ص٣٤١-٣٤٤. - الأعلام، للزركلي، ج٤، ص١٠٢».

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ج٤، ص١٨٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب مناقب أبي بكر الصديق، ج٤، ص١٩٣.

هذان الحديثان بالنسبة للأسباب الشرعية ، وهناك دليل من الأسباب الكونية وهو :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : «لما استخلف أبوبكر الصديق قال : لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مؤونة أهلي ، وشغلت بأمر المسلمين ، فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال وأحترف للمسلمين فيه»أ. هـ[١] .

يقول ابن حجر : « . . . والحرفة جهة الاكتساب والتصرف في المعاش ، وأشار بذلك إلى أنه كان كسوبا لمؤنته ومؤنة عياله بالتجارة من غير عجز ، تمهيداً للاعتذار عما أخذه من مال المسلمين إذا احتاج إليه»أ. هـ[٢] .

هذه بعض الأمثلة من حياته رضي الله عنه .

## ثانياً : عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

قد جمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الأسباب الشرعية والأسباب الكونية ، رغم ماكان عليه من توكل واعتماد على الله عز وجل ، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه قدوة حسنة في الأخذ بالأسباب .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : بينما أنا نائم رأيت الناس عرضوا علي وعليهم قمص ، فمنها مايبلغ الثدي ، ومنها مايبلغ دون ذلك ، وعرض علي عمر عليه قميص اجتره ، قالو : فما أولته يارسول الله؟ قال : الدين»أ. هـ[٣] .

يقول ابن حجر : « . . . . والذين يظهر أن المراد خصوص هذه الأمة المحمدية ، بل بعضها ، والمراد بالدين العمل بمقتضاه كالحرص على امتثال الأوامر واجتناب المناهي ، وكان

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ، ج٣ ، ص٨ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ، ج٤ ، ص٣٥٦ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب مناقب عمر بن الخطاب ، ج٤ ، ص٣٠١ .

لعمر في ذلك المقام العالي . قال : ويؤخذ من الحديث أن كل مايرى في القميص من حسن أو غيره فإنه يعبر بعين لابسه . . . . »أ . هـ(١) .

هذا بالنسبة للأسباب الشرعية ، وأما بالنسبة للأسباب الكونية :

عن أبي موسى الأشعري(*) «استأذن على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يؤذن له - وكأنه كان مشغولا - فرجع أبوموسى . ففزع عمر فقال : ألم أسمع صوت عبدالله بن قيس؟ ئذنوا له . قيل : قد رجع . فدعاه : فقال كنا نؤمر بذلك . فقال : تأتيني على ذلك بالبينة . فانطلق إلى مجالس الأنصار فسألهم ، فقالوا : لايشهد لك على هذا إلا أصغرنا أبوسعيد الخدري . فذهب بأبي سعيد الخدري(**) ، فقال عمر : أخفي علي هذا من أمر رسول الله ﷺ ؟ ألهاني الصفق بالأسواق . يعني الخروج إلى التجارة»أ . هـ(٢) .

يقول ابن حجر : « . . . وأطلق عمر على الأشتغال بالتجارة لهواً؛ لأنها ألهته عن طول ملازمته النبي ﷺ حتى سمع غيره منه مالم يسمعه ، ولم يقصد عمر ترك أصل الملازمة وهي أمر نسبي ، وكان احتياج عمر إلى الخروج للسوق من أجل الكسب لعياله والتخفف عن الناس . . . »أ . هـ(٣) .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب التعبير ، باب جر القميص في المنام ، ج١٢ ، ص٤١٤ .

(*) عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب ، أبوموسى ، من بني الأشعر ، من قحطان ، صحابي ، من الشجعان الولاة الفاتحين ، وأحد الحكمين اللذين رضى بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين ، هاجر إلى الحبشة ، استعمله رسول الله ﷺ على زبيد وعدن . وولاه عمر بن الخطاب البصرة ، فافتتح اصبهان والأهواز ، وولاه عثمان الكوفة ، وكان أحسن الصحابة صوتا في التلاوة ، له ٣٥٥ حديثا ، ولد في زبيد باليمن سنة ٢١ق . هـ ، وتوفي بالكوفة سنة ٤٤هـ . «الاستيعاب ، ج٢ ، ص٣٧١-٣٧٣ . - وانظر : سير أعلام النبلاء ، ج٢ ، ص٣٨٠ . - تذكرة الحفاظ ، ج١ ، ص٢٣-٢٤ . - الإصابة ، ج٢ ، ص٣٥٩ . - الأعلام ، للزركلي ، ج٤ ، ص١١٤ .

(**) سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي ، أبوسعيد ، صحابي ، كان من ملازمي النبي ﷺ ، وروى عنه أحاديث كثيرة ، غزا اثنتي عشرة غزوة ، وله ١١٧٠حديثا ، ولد سنة ١٠ق . هـ ، وتوفي سنة ٧٤هـ بالمدينة . «شذرات الذهب ، ج١ ، ص٢١ ، ٢٣ ، ٤٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٨١ . - الاستيعاب ، ج٢ ، ص٤٧-٤٩ . - وانظر : سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص١٦٨ . - تذكرة الحفاظ ، ج١ ، ص٤٤ . - الإصابة ، ج٢ ، ص٣٥ . - الأعلام ، للزركلي ، ج٣ ، ص٨٧» .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب البيوع ، باب الخروج في التجارة ، ج٣ ، ص٦ .

(٣) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب البيوع ، باب الخروج في التجارة ، ج٤ ، ص٣٥٠ .

## ثالثاً : عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه(*) :

هذا الصحابي الجليل قد أخذ بالأسباب الشرعية حتى بشره النبي ﷺ بالجنة، وهذا يدل على حصوله على نتيجة الأسباب الشرعية. عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل(**) أنه قال: أشهد على التسعة أنهم في الجنة، ولو شهدت على العاشر لم آثم. قيل: وكيف ذلك؟ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بحراء، فقال: اثبت حراء، فإنه ليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد. قيل: ومن هم؟ قال: رسول الله ﷺ، وأبوبكر، وعمر، وعثمان(***)، وعلي، وطلحة(****)، والزبير، وسعد، وعبدالرحمن، قيل: فمن العاشر؟ قال

---

(*) عبدالرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبدالحارث، أبومحمد، الزهري القرشي، صحابي، من أكابرهم، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وأحد السابقين إلى الإسلام، قيل: هو الثامن، وكان من الأجواد الشجعان العقلاء. شهد المشاهد، ولد سنة ٤٤ق.هـ، وتوفي سنة ٣٢هـ بالمدينة. «الاستيعاب، ج٢، ص٣٩٣-٣٩٩. - شذرات الذهب، ج١، ص٦٢. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٦٨. - الاصابة، ج٢، ص٤١٦-٤١٧. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٣٢١»،

(**) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي القرشي، أبوالأعور، صحابي، من خيارهم، هاجر إلى المدينة، وشهد المشاهد كلها إلا بدرا، وكان غائبا في مهمة أرسله بها النبي ﷺ. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان من ذوي الرأي والبسالة، شهد اليرموك وحصار دمشق، ولد سنة ٢٢ق.هـ بمكة، وتوفي سنة ٥١هـ بالمدينة. «الاستيعاب، ج٢، ص٢-٨. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١، ص١٢٤. - الإصابة، ج٢، ص٤٦. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٩٤».

(***) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، من قريش، أمير المؤمنين، ذو النورين، وثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، جهز نصف جيش العسرة، افتتح أرمينيا والقوقاز وخراسان وكرمان وسجستان. . . وغيرها، وأتم جمع القرآن، ولد سنة ٤٧ق.هـ، وتوفي مقتولا على يد مارقة من الفسقة الذين لا خير فيهم سنة ٣٥هـ. «الاستيعاب، ج٣، ص٦٩-٨٥. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٨-١٠. - وانظر: الإصابة، ج٢، ص٤٦٢-٤٦٣. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٢١٠»،

(****) طلحة بن عبيدالله بن عثمان التيمي القرشي المدني، أبومحمد، صحابي، شجاع، من الأجواد. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وكان من دهاة العرب، ومن علمائهم، شهد أحداً، وثبت مع رسول الله، وشهد الخندق وسائر المشاهد، ولد سنة ٢٨ق.هـ، وقتل يوم الجمل بجانب عائشة رضي الله عنها سنة ٣٦هـ. «شذرات الذهب، ج١، ص٤٢-٤٣، ٥٦. - الاستيعاب، ج٢، ص٢١٩-٢٢٥. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٢٣. - الإصابة، ج٢، ص٢٢٩-٢٣٠. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٢٢٩».

أنا»أ. هـ[١].

أما بالنسبة للأسباب الكونية، فإن عبادته لله عز وجل وتوكله عليه، لم يمنعه من الكسب، والزواج، وغيرها من الأسباب الكونية، كما يدعي بعض الجهلة، من أن النظر إلى الدنيا مانع من الآخرة، وصادٌّ عنها.

عن عبدالرحمن بن عوف - رضي الله عنه - قال: «لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع[*]، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالا، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها. قال فقال له عبدالرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع. قال فغدا إليه عبدالرحمن فأتى بأقط وسمن. قال ثم تابع الغدو، فما لبث أن جاء عبدالرحمن وعليه أثر صفرة. فقال رسول الله ﷺ: تزوجت؟ قال: نعم. قال: ومن؟ قال: امرأة من الأنصار. قال: كم سقت؟ قال: زنة نواة من ذهب - أو نواة من ذهب - فقال له النبي ﷺ: أولم ولو بشاة»أ. هـ[٢].

يقول ابن حجر: «.. والغرض من إيراد هذين الحديثين اشتغال بعض الصحابة بالتجارة في زمن النبي ﷺ وتقريره على ذلك، وفيه أن الكسب من التجارة ونحوها أولى من الكسب من الهبة ونحوها...»أ. هـ[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، مناقب سعيد بن زيد، ج٥، ص٦٥١. وقال: حديث حسن صحيح.

(*) سعد بن الربيع بن عمرو، من بني الحارث بن الخزرج، صحابي، من كبارهم، كان أحد النقباء يوم العقبة، وشهد موقعة بدر، واستشهد يوم أحد سنة ٣هـ. «الاستيعاب، ج٢، ص٣٤-٣٥. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٣١٨. - الإصابة، ج٢، ص٢٦-٢٧. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٨٥».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ماجاء في قوله تعالى ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض... الآية﴾، ج٣، ص٣.

(٣) ابن حجر، فتح الباري، كتاب البيوع، باب ماجاء في قوله تعالى ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض...﴾ الآية، ج٤، ص٣٤٠.

## رابعاً : أحمد بن حنبل :

أحمد بن حنبل أحد الأئمة الأربعة، قد عرف عنه علمه، وفقهه، حتى قال عنه إبراهيم الحربي[*] : رأيت أبا عبدالله، كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين. وقال رجل: مارأيت أحدا أعلم بفقه الحديث ومعانيه من أحمد. وغيرها من الأقوال[١].

هذا الإمام القدوة قد أخذ بالأسباب الشرعية والكونية اتباعا لسنة المصطفى ﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، وسير السلف الصالح ممن سار على هذا الهدي.

فقد أثر عنه حرصه على عبادة ربه، والالتجاء إليه، ومن أمثلة ذلك قول ابنه عبدالله: كان أبي يصلي في كل يوم وليلة ثلاث مائة ركعة. فلما مرض من تلك الأسواط، أضعفته، فكان يصلي كل يوم وليلة مئة وخمسين ركعة[٢].

ويقول الإمام الشافعي[**]: خرجت من بغداد وما خلفت بها أحدا أورع ولا أتقى ولا أفقه - وأظنه قال - ولا أعلم من أحمد بن حنبل[٣].

---

(*) إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبدالله البغدادي الحربي، أبوإسحاق، من أعلام المحدثين، كان حافظا للحديث عارفا بالفقه بصيرا بالأحكام، قيما بالآداب، زاهدا، تفقه على الإمام أحمد، وله عدة مصنفات منها «غريب الحديث»، «إكرام الضيف»، «مناسك الحج». ولد سنة ١٩٨هـ بمرو، وتوفي سنة ٢٨٥هـ ببغداد. «انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص٣٥٦. - الأعلام، للزركلي، ج١، ص٣٢».

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١١، ص١٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١١، ص١٨٨.

(**) محمد بن أدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن الهاشمي القرشي المطلبي، أبوعبدالله، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة، كان أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراآت، له عدة مصنفات منها «الأم»، «المسند»، «الرسالة». ولد سنة ١٥٠هـ في غزة بفلسطين، وتوفى سنة ٢٠٤هـ بمصر. «انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٥. - مختصر طبقات الحنابلة، ص٢٠-٢١. - الأعلام، للزركلي، ج٦، ص٢٦-٢٧».

(٣) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص١٠٧.

أما بالنسبة للأسباب الكونية، فقد حث الإمام أحمد على التجارة والتكسب، وكان له مهنته التي يقتات منها.

يقول الإمام أحمد: قد أمرتهم - يعني ولده - أن يختلفوا إلى السوق، وأن يتعرضوا للتجارة. وقال: قد روي عن عائشة- رضي الله عنها- عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أطيب ماأكل الرجل من كسبه(*)»أ. هـ[1].

وقال إسحاق بن راهويه(**): «كنت مع أحمد بن حنبل عند عبدالرزاق(***)، وكانت معي جارية، وسكنا فوق، وأحمد أسفل في البيت. فقال لي: ياأبا يعقوب: هو ذا يعجبني ماأسمع من حركتكم. قال: وكنت أطلع فأراه يعمل التكك، ويبيعها، ويتقوت بها هذا أو نحوه...»أ. هـ[2].

وكان أحمد بن حنبل يتداوى من المرض ويأخذ العلاج[3]، حتى إنه في المحنة كان يؤتى إليه بالطبيب فيعالجه من جروحه[4]. وكان يأخذ القدوم، ويخرج يعمل الشيء

---

(*) أخرجه الترمذي في صحيحه برواية مقاربة «عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «إن أطيب ماأكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم»، كتاب الأحكام، باب ماجاء أن الوالد يأخذ من مال ولده، قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، ج٣، ص٦٣٩-٦٤٠.

(١) الخلال، الحث على التجارة، ص٢٧. - الخلال، كتاب الورع، ص٢٢.

(**) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن الحنظلي التميمي المروزي، أبويعقوب ابن راهويه، عالم خراسان في عصره، وهو أحد كبار الحفاظ، طاف البلاد لجمع الحديث وأخذ عن الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وغيرهم، وكان ثقة في الحديث. اجتمع له الحديث والفقه، والحفظ، والصدق، والورق، والزهد، له مصنفات منها «المسند»، ولد سنة ١٦١هـ في طريق مكة، وتوفي سنة ٢٣٨هـ بنيسابور. «انظر: شذرات الذهب، ج٢، ص٨٩. - سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٣٥٨. - الأعلام، للزركلي، ج١، ص٢٩٢»

(***) عبدالرزاق بن الشيخ عبدالقادر بن أبي صالح الحافظ الثقة الحنبلي، أبوبكر، اسمعه أبوه من أبي الفضل الآدموي، وقال ابن نقطة: كان حافظاً ثقة مأمونا. وقال ابن نجار: كان حافظاً ثقة متقناً حسن المعرفة بالحديث، فقيهاً على مذهب أبي عبدالله أحمد بن حنبل، وغير ذلك من المناقب، ولد سنة ٥٢٨هـ. «شذرات الذهب، لابن العماد، ج٥، ص٩».

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١١، ص١٩٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٦١.

بيده[١] . عن زهير بن صالح[*] بن أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال : سمعت أبي قال : كان ربما أخذ القدوم وخرج إلى دار السكان يعمل الشئ بيده»أ . هـ[٢] .

وقد ترك له أبوه طرازاً ، ودارا ، يسكنها ، وكان يكرى تلك الدار والطراز ويتعفف بكرائها عن الناس[٣] .

عن أحمد بن عبدالرحمن الزهري يقول[**] : قال لي أبوعبدالله - رحمه الله - سنة ١٩هـ - يعني : ومئتين - حين قدم المعتصم : أتيته وهو يعمل بيده شيئا يرمه بطين أي هذا - ويشير إلى السكان كأنه يعني يرمه للكرى»أ . هـ[٤] .

وكان يخرج إلى اللقاط[٥] . فلم يمنعه توكله على الله عز وجل ، وعلمه بالدين من الأخذ بالأسباب الشرعية والكونية ، لأنه علم أنها أمور مشروعة مأمور بها في الكتاب والسنة .

## خامساً : عبدالله بن المبارك[***] :

هذا عبدالله بن المبارك إمام أهل المشرق في زمانه ، يقول ابن مهدي[****] : الأئمة

---

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج١١ ، ص٢٠٩ .

(*) زهير بن صالح بن أحمد بن حنبل ، روى عن أبيه ، قال الدارقطني : ثقة ، وماكان به بأس ، توفي سنة ٣٠٣هـ . «تاريخ بغداد ، ج٨ ، ص٤٨٦» . - وانظر : مختصر طبقات الحنابلة ، لابن شطي ، ص٢٧ . - انظر : المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة ، لعبدالإله الأحمدي ، ج٢ ، ص٤٠٣»

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٣٥ . - الخلال ، الحث على التجارة ، ص٣٩ .

(٣) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص٢٢٣ . والطراز : هو الموضع الذي ينسج فيه الثياب الجياد . «ابن منظور ، لسان العرب ، ج٨ ، ص١٤٣» .

(**) لم أجده .

(٤) الخلال ، الحث على التجارة ، ص٣٨ .

(٥) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص٢٢٥ . واللقاط : السنبل الذي تخطئه المناجل تلتقطه الناس . «لسان العرب ، لابن منظور ، ج١٢ ، ص٣١٢-٣١٣ .

(***) عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء ، التميمي ، المروزي أبوعبدالرحمن ، الحافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات ، أفنى عمره في الأسفار ، حاجا ومجاهدا وتاجرا ، وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء ، له عدة مصنفات منها «الجهاد» ، «الرقائق» . ولد سنة ١١٨هـ ، ومات سنة ١٨١هـ بهيت على الفرات منصرفا من غزو الروم . «انظر : سير أعلام النبلاء ، ج٨ ، ص٣٧٨ . - الأعلام ، للزركلي ، ج٤ ، ص١١٥» .

(****) عبدالرحمن بن مهدي بن حسان العنبري البصري اللؤلؤي ، أبوسعيد ، من كبار حفاظ الحديث ، =

أربعة: سفيان(*)، ومالك(**)، وحماد بن زيد(***)، وابن المبارك»أ. هـ[1].

وعن قطن بن سعيد(****) قال: ماأفطر ابن المبارك ولا رئي نائما قط»أ. هـ[2].

هذه بعض الأمثلة من أخذ ابن المبارك للأسباب الشرعية، أما بالنسبة للأسباب الكونية. فمنها: قيل له: أنت تأمرنا بالزهد، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام فكيف هذا؟ فأجاب: إنما أفعل هذا لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربي، لا أرى حقا إلا سارعت إليه.»أ. هـ[3] فقد كان عبدالله بن المبارك تاجراً يجول البلاد.

---

== وله فيه تصانيف، حدث ببغداد، ولد سنة ١٣٥هـ بالبصرة، ومات فيها سنة ١٩٨هـ. قال الشافعي: لا أعرف له نظيرا في الدنيا. «انظر: سير أعلام النبلاء، ج٩، ص١٩٢. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٣٣٩».

(*) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبدمناة، من مضر، أبوعبدالله، أمير المؤمنين في الحديث. كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. له عدة مصنفات منها «الجامع الكبير»، «الجامع الصغير»، «الفرائض»، ولد سنة ٩٧هـ بالكوفة، وتوفي سنة ١٦١ بالبصرة. «شذرات الذهب، ج١، ص٢٥٠. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٢٢٩. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٠٢-٢٠٧. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص١٠٤».

(**) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبوعبدالله، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية، حصلت له وشاية عند جعفر عم المنصور فضرب حتى انخلع كتفه، صلب في دينه، له عدة مصنفات «الموطأ»، «الوعظ»، «المسائل». ولد سنة ٩٣هـ بالمدينة، وتوفي سنة ١٧٩هـ فيها. «شذرات الذهب، ج١، ص٢٨٩. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٤٨. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٠٧-٢١٣. - الأعلام، للزركلي، ج٥، ص٢٥٧».

(***) حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضمي، مولاهم، البصري، أبوإسماعيل، شيخ العراق في عصره، من حفاظ الحديث المجودين، يعرف بالأزرق، يحفظ ٤٠٠٠ حديث، خرج أحاديثه الأئمة الستة. ولد سنة ٩٨هـ بالبصرة، وتوفى فيها سنة ١٧٩هـ. «شذرات الذهب، ج١، ص٢٩٢. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٤٥٦. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٢٨-٢٣٠. - الأعلام، للزركلي، ج٢، ص٢٧١».

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٣٨٧.

(****) لم أجده.

(٢) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٤، ص١٢١-١٣٠.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٣٨٧.

فالأمثلة من سير السلف أكثر من أن تحصى، ولكن ذكرنا البعض منها لنأخذ منهم رضوان الله عليهم أخذهم بالأسباب الكونية والشرعية، طاعة لله عز وجل، ولنبيه محمد ﷺ . فهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين، وتابع التابعين، ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين، هم القدوة الحسنة في الالتزام بأمر الله عز وجل، وهم الحريصون على ذلك أشد الحرص. ورغم ذلك أخذوا بالأسباب الكونية، فأبوبكر الصديق رضي الله عنه كما سبق أن ذكرنا كان تاجراً، وعثمان بن عفان كذلك، وكذلك سلمان الفارسي(*) كان يعمل في الخوص(**) ويبيعها بثلاث دراهم وإن لم نذكره سابقا، وكان بعض الصحابة يعمل في الرعي، والبعض الآخر في الحدادة والنجارة، وكان البعض يعمل في الزراعة، وغير ذلك من المهن[١] .

فسبحان الله – عز وجل – الذي جعل على الأرض مثل هؤلاء السلف الذين كانوا خير قدوة للخلف في الأخذ بالأسباب الكونية والشرعية مع قوة إيمانهم، وقرب صلتهم برسول الله ﷺ .

---

(*) سلمان الفارسي، صحابي، من مقدميهم، وهو الذي دل المسلمين على حفر الخندق، في غزوة الأحزاب، عالما بالشرائع وغيرها، اختلف عليه المهاجرين والأنصار. كلاهما يقول: سلمان منا. فقال الرسول ﷺ : سلمان منا أهل البيت، وجعل أمير على المدائن، وجمع له علم الكتاب الأول، والثاني، ينسج الخوص ويأكل خبز الشعير من كسب يده، توفى سنة ٣٦هـ بالمدائن. «الاستيعاب، ج٢، ص٥٦-٦١ . - شذرات الذهب، ج١، ص٤٤-٦٢ . - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٥٠٥ . - الإصابة، ج٢، ص٦٢-٦٣ . - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص١١١-١١٢».

(**) الخوص: السعف. «صفة الصفوة، لابن الجوزي، ج١، ص٢٧٦، ٢٧٨».

(١) للاستزادة مراجعة المصادر الإسلامية مثل :

١ – فتح الباري، لابن حجر، كتاب فضائل الصحابة، وكتاب البيوع.

٢ – كتاب الحث على التجارة للخلال.

٣ – كتب السير .

# الفصل الثاني

## الأمر - عند اتخاذها - بعدم الاعتماد عليها بذاتها بل بالاعتماد على خالقها وموجدها

المبحث الأول : القرآن الكريم .

المبحث الثاني : السنة النبوية .

المبحث الثالث : في سير الأنبياء عليهم السلام .

المبحث الرابع : في سير السلف الصالح رضوان الله عنهم .

**تمهيد :**

قد عرضنا فيما سبق، قضية الأمر بالأخذ بالأسباب، وأن ذلك مأمور به في الكتاب والسنة، ورأينا بعض الأمثلة من سير الأنبياء عليهم السلام ومن سير السلف الصالح رضوان الله عليهم في تطبيق هذا الأمر.

ولكن هناك قول للعلماء يقول : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع»أ. هـ[١]

فهذا القول يوهم الناظر إليه في أول وهلة أنه متناقض، فالالتفات إلى الأسباب شرك، وتركها والإعراض عنها قدح في الشرع، ونقص في العقل. فكيف حل هذا الأشكال ؟! .

ابن القيم يوضح هذا الإشكال وحله في قوله: «وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد ؛ فالالتفات إلى الأسباب ضربان: أحدهما شرك، والآخر عبودية وتوحيد .

فالشرك : أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، يعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود ، فهو معرض عن المسبب بها، ويجعل نظره والتفاته مقصوراً عليها.

وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها، وأداء لحق العبودية فيها، وإنزالها منازلها، فهذا الالتفات عبودية وتوحيد، إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب .

وأما محوها أن تكون أسباباً ، فقدح في العقل والحس والفطرة، فإن أعرض عنها بالكلية، كان قدحاً في الشرع وإبطالاً له. . . »أ. هـ[٢] .

إذن الأخذ بالأسباب نوعان :

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى، ج٨، ص٧٠.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٣، ص٤٩٩.

١ - الأخذ بها مع الاعتماد عليها بذاتها. ونسيان موجدها وخالقها. وهذا شرك.

٢ - الأخذ بها مع الاعتماد على خالقها وموجدها، على حسب ما شرع وقدر. وهذا عبودية وتوحيد.

فالأول مذموم، غير مأمور به، والثاني هو المقصود في الفصل السابق.

لذلك عقدنا هذا الفصل لتوضيح هذه القضية، والاستدلال عليها بالكتاب والسنة، وتطبيق ذلك في سير الأنبياء عليهم السلام، وسير السلف الصالح إن شاء الله تعالى.

وبالله التوفيق والسداد.

# المبحث الأول

## الأمر - عند اتخاذ الأسباب - بعدم الاعتماد عليها

## والاعتماد على خالقها وموجدها

# في القرآن الكريم

**أولاً : الأخذ بالأسباب الشرعية مع عدم الاعتماد عليها في القرآن الكريم :**

قد سبق أن ذكرنا الأمر باتخاذ الأسباب الشرعية، وذكرنا على ذلك أدلة من الكتاب والسنة ، وغيرها . وهنا نريد أن نبين الكيفية الصحيحة لهذا الأخذ، وهي الأخذ مع الاعتماد على الله عز وجل، أي : اقتران الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله عز وجل .

١ - قال تعالى : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ «الفاتحة : ٥» .

قد عرفنا فيما سبق أن الأسباب الشرعية - العبادة - أمر مطلوب من الله عز وجل، ونبيه محمد ﷺ . وهذا ماأثبتناه سابقاً. كذلك وجدنا أن الأسباب الشرعية من أعمال صالحة وتقوى لله - عز وجل - موصلة إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، ولكن هل الأعمال الصالحة دون توكل على الله عز وجل، أو دون معونة وتوفيق من الله عز وجل موصلة إلى هذا العلاج؟! هذا ماسنعرفه من خلال هذه الآية .

هذه الآية الكريمة تدل على أن الأخذ بالأسباب الشرعية لابد من توفر شرطين :

١ - الأخذ بالأسباب الشرعية الواردة في الكتاب والسنة والمطلوبة شرعاً .

٢ - الاعتماد على خالقها، وأنه هو المعين والموفق للوصول إلى غايتها وهدفها المراد من العامل. وليس الاعتماد على الأسباب بذاتها لأن ذلك فيه عدم اعتراف لمسبب الأسباب ومسبباتها بأنه القادر عليها ومهيؤها وتبعيتها لخالقها عز وجل .

فالآية فيها التصريح بالأسباب الشرعية والأخذ بها - إياك نعبد - وتصريح بالاستعانة على ذلك بالله عز وجل - إياك نستعين - .

يقول ابن كثير : « . . . عن ابن عباس رضي الله عنهما «إياك نعبد» يعني إياك نوحد ونخاف ونرجو ياربنا لاغير ، «وإياك نستعين» على طاعتك وعلى أمورنا كلها . . . »أ . هـ[١] .

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن الكريم، ج١ ، ص٢٥ .

ويقول : « . . لأن العبادة هي المقصودة والاستعانة وسيلة إليها . . . »أ. هـ[١].

إذن فابن كثير يثبت أن العبادة أمر مقصود شرعا، والاستعانة وسيلة للوصول إلى ذلك المقصود .

ويقول ابن جرير الطبري : « . . . ومعنى قوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ربنا نستعين على عبادتنا إياك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها لا أحد سواك . . . »أ. هـ[٢].

فطلب المعونة من الله عز وجل في العبادة، مأمور به في الشرع .

ويقول ابن القيم : « . . . ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة . . . . »أ. هـ[٣].

ويقول : «والتوكل معنى يلتئم من أصلين : من الثقة، والاعتماد . وهو حقيقة «إياك نعبد وإياك نستعين» وهذان أصلان - وهما التوكل، والعبادة - قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها . . . »أ. هـ[٤].

فالتوكل والعبادة متلازمان، فالعبادة أمر مطلوب شرعا، والتوكل والاعتماد على الله عز وجل هو طلب العون والتوفيق لهذه العبادة، وإتمامها على الوجه المشروع .

يقول ابن القيم : «إذا عرفت هذا، فالناس في هذين الأصلين - وهما العبادة والاستعانة - أربعة أقسام : أجلها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها . فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها . ولهذا كان أفضل مايسأل الرب تبارك وتعالى : الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال : «يامعاذ، والله إني لأحبك . فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة : اللهم

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج١، ص٥٣ .

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، ج١، ص٧٦ .

(٤) المصدر نفسه، ص٧٥ .

أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»أ. هـ[١] فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته. وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب. وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع مايضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - : تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته. ثم رأيته في الفاتحة «إياك نعبد وإياك نستعين». »أ. هـ[٢].

فالأخذ بالأسباب الشرعية واقترانها بالاعتماد والتوكل على الله عز وجل، بطلب العون والتوفيق عليها أمر مطلوب شرعاً. والالتفات إليها وحدها لاينفع.

٢ - قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿ **قال ياقوم أرءيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وماأريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب**﴾ «هود: ٨٨»

يقول الطبري في تفسير هذه الآية: «... عن قتادة: وماأريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه يقول ماأريد أن أنهاكم عن أمر ثم أفعل خلافه، بل لا أفعل إلا بما آمركم به ولا أنتهي إلا عما أنهاكم عنه.... إلا لإصلاحكم وإصلاح أمركم مااستطعت يقول ماقدرت على إصلاحه، لئلا ينالكم من الله عقوبة منكله بخلافكم أمره ومعصيتكم رسوله، وماتوفيقي إلا بالله، يقول: وما أصابتي الحق في محاولتي إصلاحكم وإصلاح أمركم إلا بالله فانه هو المعين على ذلك إن لايعني عليه لم أصب الحق فيه، وقوله: عليه توكلت، يقول: إلى الله أفوض أمري فإنه ثقتي وعليه اعتمادي في أموري، وقوله: وإليه أنيب، وإليه أقبل بالطاعة وأرجع بالتوبة...»أ. هـ[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ج٥، ص٢٤٧، وأخرجه أبوداود في سننه، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، ج٢، ص١٧٧، وأخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الصلاة، باب الدعاء بعد الصلاة، ج١، ص٢٧٣. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال النووي: إسناده صحيح ذكره في المرقاة. «عون المعبود، ج٤، ص٣٨٤».

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ج١، ص٧٨. - ابن تيمية، دقائق التفسير، ج١، ص١٧٥-١٨٢.

(٣) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج١٢، ص٦٣.

هذه الآية تدل على اقتران الدعوة إلى الله عز وجل وهي من الأسباب الشرعية بالتوكل والاعتماد على الله عز وجل وعدم الاعتماد على ذاتيتها، وهذا ماوضحه الطبري في تفسيرها فشعيب عليه السلام عندما دعا قومه وأراد الصلاح لهم، قال لهم: إن ذلك بتوفيق الله عز وجل، وإعانته، واعتمادي وثقتي به، وإن لم يرد الله عز وجل هدايتكم فلن تهتدوا مهما فعلت من أساليب الدعوة.

فهذا دليل على أنه عز وجل أمر عباده بالأخذ بالأسباب الشرعية كما في الدعوة إلى الله عز وجل هنا، ولكن لم يجعل هناك سبباً تاماً يحصل به المسبب بل لابد من الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله عز وجل والتوكل عليه. فقد جمع الله عز وجل في هذه الآية بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله عز وجل.

وقال ابن كثير نحو ذلك في تفسير هذه الآية[١].

فشعيب عليه السلام قام بحقيقة التوكل وهي القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب وهو الله عز وجل.

يقول ابن القيم: .. وحقيقة التوكل: القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب، واعتقاد أنها بيده، فإن شاء منعها اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه...» أ. هـ[٢].

٣ - قال تعالى: **﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون﴾** «هود: ١٢٣».

يقول ابن كثير: «يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض وأنه إليه المرجع

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٣٨.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٣، ص٤٩٩.

والمآب، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه، فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه . . . »أ. هـ[١].

في هذه الآية أيضاً اقتران بين التوكل والعبادة، فلا عبادة بدون توكل، ولا توكل بلا عبادة. فالأسباب الشرعية مأمور بها، والتوكل على الله عز وجل في الإعانة عليها والتوفيق لها مأمور به أيضاً. فابن كثير يقول «فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه، فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه».

فالاعتماد على الله عز وجل في كل الأمور والأسباب، وعدم الاعتماد على ذاتيتها. فالعبادة المقصودة لاتوصل إلى المطلوب إلا بوسيلة ما وهي التوكل والاعتماد على الله عز وجل.

يقول عبدالرحمن السعدي: « . . . «فاعبده وتوكل عليه» أي قم بعبادته وهي جميع ماأمر الله به مما تقدر عليه «وتوكل على الله» في ذلك . . . »أ. هـ[٢].

٤ - قال تعالى: **﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾** «الرعد: ٣٠»

يقول السعدي: « . . . «قل هو ربي لا إله إلا هو» وهذا متضمن التوحيدين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي «عليه توكلت» في جميع أموري «وإليه أنيب» أي: أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي. »أ. هـ[٣].

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٤٧.
(٢) عبدالرحمن ناصر السعدي، تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن، ج٣، ص٢٢٢.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٤-٥٥.

فهذه الآية جامعة أيضاً بين الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله عز وجل في الإعانة عليها، والتوفيق إليها . فتوفيق العبادة والصلاح من الله عز وجل، فلا يغتر أحد بعبادته، ويظن أنه مستحق للجزاء بدون توفيق الله عز وجل . وإنما أمر الله عز وجل بها، وأمر بالاعتماد عليه في إمضائها .

٥ - قال تعالى : ﴿**قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير**﴾ «الممتحنة : ٤» .

الشاهد من الآية : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير» .

يقول ابن كثير : «ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرأوا منهم فلجأوا إلى الله وتضرعوا إليه فقالوا «ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير» أي توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك، وإليك المصير : أي المعاد في الدار الآخرة. . . . »أ. هـ[١] .

فهذه الآية دليل أيضاً على اقتران العبادة بالتوكل والاعتماد على الله عز وجل، وعدم اعتماد الإنسان على جهد نفسه، وقدرته على العبادة ، لأن هذاالجهد، والقدرة، هبة من الله عز وجل، ومعونة منه .

والآيات على الأخذ بالأسباب الشرعية، مع الاعتماد على خالقها وموجدها، والأمر بها كثيرة في القرآن ، إلا أن ماذكرناه أمثلة على ذلك .

فالأخذ بالأسباب الشرعية مقرون بالاعتماد على خالقها والأمر بها سبحانه، أمر مطلوب شرعاً . والأخذ بها دون الاعتماد أمر مذموم موصل إلى الشرك في العبودية .

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤ ، ص٣٤٨ .

**ثانياً : الأخذ بالأسباب الكونية مع عدم الاعتماد عليها في القرآن الكريم:**

قد تحدثنا سابقا عن الأسباب الشرعية مع الاعتماد على خالقها وموجدها . والآن سنتحدث عن الأسباب الكونية ، وكيفية الأخذ بها مع التوكل على الله عز وجل، وبعض الأمثلة على عاقبة من اعتمد عليها وحدها، بذاتيتها دون الخالق سبحانه .

١ - قال تعالى : ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين**﴾ «التوبة : ٢٥-٢٦» .

هذه الآية نزلت على نبي الله ﷺ وصحابته الكرام يوم حنين . عندما اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم في العدد ، وظنوا أن أخذهم هذا السبب والاعتماد عليه سيكون سبباً في نصرهم على عدوهم فلم يغن ذلك عنهم شيئا . حتى بعث الله عليهم جنوداً من السماء لنصرتهم .

قد كان يوم حنين بعد غزوة مكة سمع رسول الله ﷺ أن أهل هوازن اجتمعوا لقتاله، فكان معه آنذاك اثنا عشر ألفا، والمشركون أربعة آلاف . فأما المسلمون فكان ألفان من أهل مكة «الطلقاء»، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة[١] .

فقال بعضهم : «لن نغلب اليوم من قلة» قال ابن إسحاق[*] : «وزعم بعض الناس

---

(١) انظر : ابن هشام، السيرة النبوية، حققها : سعيد اللحام، ج٤، ص٦٤-١٠١ . - الإمام ابن حبان البستي، السيرة النبوية، وأخبار الخلفاء، ص٣٤٣-٣٦٠ .

(*) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني، من أقدم مؤرخي العرب، قال ابن حبان : لم يكن أحد بالمدينة يقارب ابن اسحاق في علمه أويوازيه في جمعه، وهو من أحسن الناس سياقا ==

أن رجلا من بني بكر قالها»أ. هـ[١] وهذا دليل على الاعتماد على الله عز وجل مع الأخذ بالأسباب، وأن الأخذ بها مع الاعتماد عليها يسقط مفعولها بإذن الله عز وجل إن أراد ذلك.

يقول ابن كثير: «. . . أن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره «أي النصر» لا بعددهم، ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ »أ. هـ[٢].

فالأخذ بالأسباب الكونية من عدة وعتاد في الحرب، والاعتماد على تلك القوة بذاتيتها من أسباب موانع مسبباتها، لذلك على المسلمين عامة الأخذ بالأسباب مع الاعتماد على خالقها وموجدها وهو الله سبحانه وتعالى.

٢ - قال تعالى: ﴿**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار**﴾ «الحشر: ٢».

هذه هي غزوة بني النضير التي كان فيها الاعتماد على الأسباب بذاتها دون الاعتماد على خالقها بشكل واضح من قبل اليهود - الذين خانوا رسول الله ﷺ في عهدهم له ﷺ وإرادة قتله غيلة - فكان جزاؤهم الخراب والخسران.

قد اتخذت بنو النضير الحصون والقلاع للحماية والوقاية والتحصن من جيوش رسول الله ﷺ عندما أراد إخراجهم من المدينة - بسبب خيانتهم - فالتجأوا إلى غير الله عز

---

== للأخبار، له عدة مصنفات منها «السيرة النبوية» هذبها ابن هشام. «كتاب الخلفاء»، «كتاب المبدأ»، وكان قدريا، ومن حفاظ الحديث، توفي سنة ١٥١ ببغداد. «انظر: سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٣٣. - الأعلام، للزركلي، ج٦، ص٢٨».

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص٧١.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٣٢٨.

وجل في نصرهم، وأخذوا بالأسباب الدنيوية البشرية، دون الأسباب الإلهية . واعتمدوا على غير الله عز وجل وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله عز وجل، ومن رسوله ﷺ ، فبين الله عز وجل أن قضاءه لا صاد له إذا أراد ذلك.

يقول ابن كثير: «. . . فأحل الله بهم بأسه «أي ببني النضير» الذي لامرد له وأنزل عليهم قضاءه الذي لايصد فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ماطمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله فما أغنى عنهم من الله شيئا، وجاءهم من الله مالم يكن ببالهم»أ. هـ[١] .

٣ - قال تعالى: ﴿**وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ «الحشر: ٦».

وفي الآية الثانية يخبر الله عز وجل نبيه ﷺ أن مع اتخاذكم الأسباب اليسيرة واعتمادكم على الله عز وجل، نصركم الله عز وجل، ومع اتخاذهم الأسباب القوية المحصنة مع عدم الاعتماد على الله سبحانه وتعالى كما سبق أن ذكرنا خذلهم الله سبحانه، فالرسول ﷺ لم يكن عنده حصن يتحصن به مثلهم، وكان يرمى عليهم بالنبل ولكن الله عز وجل نصره بالرعب الذي ألقاه في قلوبهم.

يقول عبدالرحمن بن ناصر السعدي: «. . . «وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله» فأعجبوا بها وغرتهم وحسبوا أنهم لاينالون بها ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله وراء ذلك كله لاتغنى عنه الحصون والقلاع ولا تجدي فيه القوة والدفاع»أ. هـ[٢] .

فهاتان الآيتان السابقة الذكر، دليل على اتخاذ الأسباب مع الاعتماد على خالقها.

---

(١) المصدر السابق، ج٤، ص٣٣١.

(٢) عبدالرحمن ناصر السعدي، تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن، ج٨، ص٩٩.

خالق الأسباب ومسبباتها، ومسبب الأسباب وهو الله سبحانه وتعالى. فاتخاذ الأسباب بدون اعتماد على الله عز وجل والاعتماد عليها بذاتها بوار وخسران وشرك في العبودية. والاعتماد على الله عز وجل دون الأخذ بالأسباب تواكل ماأنزل الله به من سلطان، فلابد من الجمع بين الأمرين معا للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

٤ - قال تعالى: ﴿ **فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون**﴾ «فصلت: ١٥»

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ هذه أخبار الأمم السابقة عندما اتخذوا الأسباب الدنيوية، ونسوا من موجدها وخالقها، واعتمدوا عليها بذاتيتها دون الاعتماد على خالقها عز وجل، بل بكل عناد جحدوا واستكبروا وعاندوا ذلك الخالق - تعالى عن ذلك علوا كبيرا - وجعلوا الأسباب حماية لهم من بأسه عز وجل، جهلاً من عند أنفسهم وغرورا بما عندهم فأراهم الله عز وجل بأسه وعذابه فلم تغن عنهم قوتهم تلك شيئاً من الله عز وجل.

يقول ابن كثير: «. . . «وقالوا من أشد منا قوة»؟ أي منوا بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله. . . »أ. هـ[١].

من خالقها وموجدها فإنهم جاهلون، يقول ابن كثير: «. . . «أولم يروا أن الله الذي خلقهم هوأشد منهم قوة؟ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها وأن بطشه شديد. . . »أ. هـ[٢].

ماذكرناه من الآيات في الأسباب الكونية ماهي إلا أمثلة على الأخذ بالأسباب

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٩٧.

(٢) المصدر نفسه.

الكونية، والاعتماد على خالقها وموجدها، وعدم الاعتماد عليها. والقرآن مليء بمثل هذه الآيات.

وقد سبق ذكر الأسباب الشرعية كذلك. فمن هذا المنطلق نثبت قضيتنا السابقة وهي «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع[*] . . . يقول ابن تيمية: «. . . ولهذا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، ومجرد الأسباب لايوجب حصول المسبب، فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافيا في حصول النبات، بل لابد من ريح مربية بإذن الله، ولابد من صرف الانتفاء عنه، فلابد من تمام الشروط، وزوال الموانع وكل ذلك بقضاء الله وقدره، وكذلك الولد لايولد بمجرد إنزال الماء في الفرج، بل كم من إنزال ولم يولد له، بل لابد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيه في الرحم، وسائر مايتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع.

وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي سبب. . .»أ. هـ[١].

---

(*) الإعراض عن الأسباب قدح في الشرع، سيتضح إن شاء الله تعالى عند الحديث عن فرقة الصوفية.

(١) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص٧٠.

قد سبق أن بحثنا قضية أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد من خلال الآيات الكريمات من القرآن الكريم، وهنا سوف نبحث هذه القضية من ناحية السنة النبوية، سواء بالنسبة للأسباب الشرعية أو الكونية.

## أولاً : الأمر بعدم الاعتماد على الأسباب الشرعية، والاعتماد على خالقها وموجدها في السنة النبوية :

١ – عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لن ينجى أحداً منكم عمله. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة. سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا. .»أ. هـ[1].

هذا الحديث احتج به من قال بالتوكل، وأن لاتأثير للأعمال في ذلك. إنما الاعتماد على الله وحده سبحانه، بدون أسباب. وأنه يتعارض مع الآيات والأحاديث الحاثة على الأخذ بالأسباب الشرعية.

ولكن الله عز وجل هيأ لهذه الأمة من يفقه أمور دينها، وشرح أحاديثها. يقول ابن حجر بعد اختلاف العلماء في تفسير وشرح هذا الحديث: «. . . قال ابن بطال[*]: في الجمع بين هذا الحديث وقوله تعالى «وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون» مامحصله أن تحمل الآية على أن الجنة تنال المنازل فيها بالأعمال، فإن درجات الجنة متفاوتة بحسب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ج١١، ص١٨١-١٨٢.

(*) علي بن خلف بن عبدالملك بن بطال، أبوالحسن، عالم بالحديث، من أهل قرطبة. له عدة مصنفات منها «شرح البخاري»، . توفي سنة ٤٤٩هـ. «انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص٤٧. - الأعلام، للزركلي، ج٤، ص٢٨٥».

تفاوت الأعمال، وأن يحمل الحديث على دخول الجنة والخلود فيها. ثم أورد على هذا الجواب قوله تعالى «سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون» فصرح بأن دخول الجنة أيضا بالأعمال، وأجاب بأنه لفظ مجمل بينه الحديث، والتقدير ادخلوا منازل الجنة وقصورها بما كنتم تعملون، وليس المراد بذلك أصل الدخول. ثم قال: ويجوز أن يكون الحديث مفسراً للآية، والتقدير ادخلوا بما كنتم تعملون مع رحمة الله لكم وتفضله عليكم، لأن إقتسام منازل الجنة برحمته، وكذلك أصل دخول الجنة هو برحمته حيث ألهم العاملين مانالوا به ذلك»أ. هـ[1].

وقال عياض(*) مثل ذلك[2].

وقال ابن الجوزي(**): «يمكن هنا أربع احتمالات:

أ - إن التوفيق للعمل من رحمة الله، ولولا رحمة الله السابقة ماحصل الإيمان ولا الطاعة التي يحصل بها النجاة.

ب - إن منافع العبد لسيده فعمله مستحق لمولاه، فمهما أنعم عليه من الجزاء فهو من فضله.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ج١١، ص٣٠١.

(*) عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبوالفضل، عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، له عدة مصنفات منها «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، «الغنية»، «ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك». ولد سنة ٤٧٦هـ بسبتة، وتوفي سنة ٥٤٤هـ بمراكش. «شذرات الذهب، ج١، ص٤٣. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٢١٢. - تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٤٥. - الأعلام، للزركلي، ج٥، ص٩٩».

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ج١١، ص٣٠١.

(**) عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، القرشي البغدادي، أبوالفرج، علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف، له نحو ثلاث مائة مصنف منها «صيد الخاطر»، «مناقب الإمام أحمد بن حنبل»، «تلبيس ابليس»، «الضعفاء والمتروكين»، ولد سنة ٥٠٨ ببغداد، ونسبته إلى «مشرعة الجوز» من محالها. وتوفي سنة ٥٩٧هـ بها. «شذرات الذهب، ج٥، ص٢٨٦-٢٨٧. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٢٦٥. - مختصر طبقات الحنابلة، ص٤٢-٤٨. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٣١٦-٣١٧».

جـ - جاء في بعض الأحاديث إن نفس دخول الجنة برحمة الله ، واقتسام الدرجات بالأعمال .

د - إن أعمال الطاعات كانت في زمن يسير والثواب لاينفد ، فالإنعام الذي لاينفد في جزاء ماينفد بالفضل ، بمقابلة الأعمال . »أ. هـ[١] .

وجاء ابن القيم ليثبت حقيقتين :

أ - إن الأعمال سبب الدخول المقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها . وهي السببية .

ب - إن العمل لايكون بمعنى المقابلة أو المعاوضة ، لأن الإنسان مهما عمل من عمل لايساوي ويعادل نعم الله عز وجل عليه ، لذلك فدخول الجنة برحمة الله عز وجل وتفضلاً منه تعالى . »أ. هـ[٢] .

يقول ابن تيمية كذلك : «وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة ، بل هي سبب ولهذا قال النبي ﷺ : «إنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يارسول الله : قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» . وقد قال : «ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون» . فهذه باء السبب ، أي : بسبب أعمالكم ، والذي نفاه النبي ﷺ باء المقابلة كما يقال : اشتريت هذا بهذا ، أي : ليس العمل عوضا وثمنا كافيا في دخول الجنة ، بل لابد من عفو الله وفضله ورحمته ، فبعفوه يمحو السيئات ، وبرحمته يأتي بالخيرات ، وبفضله يضاعف البركات . . » . أ. هـ[٣] .

هذه الأقوال وغيرها من أقوال السلف تدل على معنى هذا الحديث ، في إثبات ماسبق أن أثبتناه من الأمر باتخاذ الأسباب الشرعية مقترنة بالاعتماد على خالقها وموجدها أمر قد ثبت بالكتاب والسنة وأقوال السلف .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة ، ج١١ ، ص٣٠١-٣٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ج١١ ، ص٣٠١-٣٠٢ . - ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ، ج٢ ، ص١٠٧-١٠٨ .

(٣) ابن تيمية ، الفتاوي ، ج٨ ، ص٧٠-٧١ .

وأن الاعتماد على الأسباب بذاتها شرك في التوحيد، وهو أمر مذموم بالكتاب والسنة وأقوال العلماء.

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وماشاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»أ. هـ[1].

هذا حديث جامع للأخذ بالأسباب الكونية والشرعية، مع الاعتماد على خالقها وموجدها. فإن كان خاصّاً بالأسباب الشرعية كما شرحه العلماء ومنهم النووي، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لأن في عمومه حث على الأخذ بالأسباب سواء الشرعية أو الكونية الموصلة إلى ماينفع الإنسان في دنياه وآخرته في قوله ﷺ : «احرص على ماينفعك، واستعن بالله ولا تعجز».

فالأخذ بالأسباب الشرعية أو الكونية مع الاستعانة بالله عز وجل خير كله، ومن سنة المصطفى ﷺ لأنه جعل الخيرية والأفضلية للسعي في تحصيل المطلوب.

فقوله ﷺ : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير». فيه دلالة على أن المؤمن الآخذ بالأسباب الشرعية، فهو ذو عزيمة نفسية قوية تحثه على قوة العمل للوصول إلى غايته وهي الجنة، والحصول على رضى الله عز وجل ورؤيته.

وهو أكثر إقداماً في عمل الخير من جهاد، وإنفاق، وأكثر محافظة على العبادات، والاستمرار عليها سواء كانت القوة جسمية أو نفسية أو عقدية.

يقول الإمام النووي: «قوله ﷺ : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير» والمراد بالقوه هنا: عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداما على العدو في الجهاد، وأسرع خروجاً إليه، وذهابا في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في كل ذلك،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله، ج٤، ص٢٠٥٢.

واحتمال المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة والصوم والإذكار وسائر العبادات، وأنشط طلبا لها، ومحافظة عليها، ونحو ذلك». أ. هـ[١].

ولكن هل يحصل ذلك بدون الاعتماد على الله عز وجل ؟! لا . بل إن الاعتماد على الله عز وجل ملازم للحرص على ماينفع . فالإنسان معرض لتغير الأحوال من ضعف في الإيمان، وانشغال بالدنيا، ووسوسة شيطانية أو إنسية، فالله عز وجل هو المستعان على ذلك.

فكان رسول الله ﷺ نعم المتوكلين مع ملازمة الحرص على ماينفع في الدنيا والآخرة، كما سبق أن ذكرنا في أخذه بالأسباب الشرعية والكونية. وكان يقول بعد كل صلاة: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[٢]. يسأل الله عز وجل العون، وكذلك كان من هديه ﷺ قوله: « اللهم بك أصول وبك أجول وبك أقاتل»[٣]. وكذلك قوله «اللهم يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»أ. هـ[٤]. وفي رواية: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»[٥]. فهو المتوكل المعتمد على الله عز وجل، مع الأخذ

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب القدر، باب الإيمان للقدر والإذعان له، ج٥، ص٥٢٠.

(٢) سبق تخريجه ص ١٤٢ .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا غزا، ج٥، ص٥٧٢. - وأخرجه أبوداود في سننه، كتاب الجهاد، باب مايدعى عند اللقاء، ج٣، ص٩٦-٩٧. وقال أبوعيسى: حديث حسن. قال المنذري: وأخرجه الترمذي والنسائي. وقال الترمذي: حديث حسن غريب. والله أعلم. «عون المعبود، ج٧، ص٢٩٦».

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ج٤، ص١٨٢-٤١٨، ج٦، ص٩١، ٢٥١، ٢٩٤، أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ٩٠، ج٥، ص٥٣٨، وأخرجه ابن ماجة في سننه، في المقدمة، باب ١٣، ج١، ص٧٢، وأخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الدعاء، باب مامن قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن، ج١، ص٥٢٥. قال الترمذي: هذا حديث حسن. - وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. - وقال الذهبي: صحيح.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، ج٤، ص٢٠٤٥.

بالأسباب الشرعية والحرص على ذلك لذلك قال ﷺ : «احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز» .

يقول النووي : « . . . ومعناه : احرص على طاعة الله تعالى والرغبة فيما عنده واطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك ولا تعجز ، ولا تكسل على طلب الطاعة ، ولا عن طلب الإعانة»أ . هـ[١] .

ويقول ابن تيمية : « . . . فأمره النبي ﷺ بشيئين : أن يحرص على ماينفعه ، وهو امتثال الأمر ، وهو العبادة ، وهو طاعة الله ورسوله ، وأن يستعين بالله ، وهو يتضمن الإيمان بالقدر : أنه لاحول ولا قوة إلا بالله ، وأنه ماشاء الله كان ، ومالم يشاء لم يكن»أ . هـ[٢] .

إذن هذا الحديث يتضمن ثلاثة أمور :

١ - فيه الأمر باتخاذ الأسباب .

٢ - فيه الأمر بالاعتماد على الله عز وجل .

٣ - فيه الأمر بالعزيمة على الأمرين اتخاذ الأسباب والاعتماد على الله عز وجل .

وهذا الحديث يعتبر الجامع لقضايا السببية عند أهل السنة والجماعة ، في الجمع بين الأخذ بالأسباب ، وعدم الاعتماد عليها ، والاعتماد على خالقها وموجدها .

فالأحاديث - الدالة على الاستعانة ، والاعتماد على الله عز وجل عند الأخذ بالأسباب الشرعية - كثيرة ، ولكن مانحتاجه هنا الاستدلال ببعض الأحاديث على ذلك فقط .

---

(١) النووي ، صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب القدر ، باب الإيمان للقدر والإذعان له ، ج٥ ، ص٥٢١ .

(٢) ابن تيمية ، الفتاوي ، ج٨ ، ص٧٤ .

## ثانياً : الأمر بعدم الاعتماد على الأسباب الكونية، والاعتماد على خالقها وموجدها في السنة النبوية :

قد عرضنا فيما سبق ، الأسباب الشرعية والأمر باتخاذها وعدم الاعتماد عليها بالكلية، وإنما الاعتماد على خالقها وموجدها، وكذلك بحثنا قضية الأمر باتخاذ الأسباب الكونية، وهنا سوف نبحث قضية عدم الاعتماد على الأسباب الكونية بالكلية، والاعتماد على خالقها وموجدها.

١ - عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»أ. هـ[1].

هذا الحديث أصل في الأخذ بالأسباب الكونية، مع الاعتماد والتوكل على خالقها، وعدم الاعتماد عليها، حيث ضرب لنا مثلاً بالطير تغدو جياعا، وهي تعتبر أضعف المخلوقات تقريبا، وهناك مايعوق طلبها للرزق من نسور، وحيوانات مفترسة، ورياح . . . وغيرها. إلا أنها أخذت بالأسباب الكونية في السعي من ذهاب وإياب، وتوكلت على مسبب الأسباب، ورازق المخلوقات الله عز وجل، فكان لها ماأرادت من رزق. فكيف بك أيها الإنسان؟! وأنت الذي أعطاك الله - عز وجل - القوة والتصرف والعقل، فمن باب أولى أن تقوم بالأسباب والكسب لطلب الرزق، والكفاية عن الناس، مع الاعتماد والتوكل على الله عز وجل.

يقول الإمام أحمد: «وليس في هذا الحديث دلالة على القعود عن الكسب بل فيه مايدل على طلب الرزق، لأن الطير إذا غدت فإنما تغدو لطلب الرزق وإنما أراد - والله

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ج١، ص٣٠، ٥٢. - وابن المبارك في الزهد، ح٥٥٩، ص١٩٧. - وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، ج٤، ص٥٧٣. - وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، ج٢، ص١٣٩٤. - وأخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الرقاق، باب الزهد، ج٤، ص٣١٨. قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح لانعرفه إلا من هذا الوجه. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

تعالى أعلم - لو توكلوا على الله تعالى في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم ورأوا أن الخير بيده ومن عنده لم ينصرفوا إلا سالمين غانمين كالطير تغدو خماصا، وتروح بطانا لكنهم يعتمدون على قوتهم وجلدهم ويغشون ويكذبون، ولاينصحون وهذا خلاف التوكل.»أ. هـ[١].

ويقول أبوحاتم الرازي[*]: «وهذا الحديث أصل في التوكل وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق»أ. هـ[٢].

فالتوكل على الله عز وجل، والاعتماد عليه، مع الأخذ بالأسباب الموصلة إلى المطلوب، لاتعارض بينهما البته، حيث إن الأخذ بالأسباب طاعة، والتوكل بالقلب إيمان بالله عز وجل.

يقول ابن رجب الحنبلي[**]: «واعلم أن تحقيق التوكل لاينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، قال تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم**﴾ وقال تعالى: ﴿**وأعدوا لهم مااستطعم من قوة ومن رباط الخيل**﴾ وقال: ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾ »أ. هـ[٣].

---

(١) البيهقي، شعب الإيمان، ج٢، ص٦٦-٦٧.

(*) عبدالرحمن بن محمد أبي حاتم ابن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، أبومحمد، حافظ الحديث، من كبارهم، له عدة مصنفات منها «الجرح والتعديل»، «الرد على الجهمية»، «المراسيل». ولد سنة ٢٤٠هـ، وتوفي سنة ٣٢٧هـ. «شذرات الذهب، ج٢، ص٣٠٨. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص٢٦٣. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٣٢٤».

(٢) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ص٤٣٥.

(*) عبدالرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي، أبوالفرج، زين الدين، حافظ للحديث، من العلماء، له عدة مصنفات منها «شرح جامع الترمذي»، «جامع العلوم والحكم»، «التوحيد»، ولد سنة ٧٣٦هـ ببغداد، وتوفي سنة ٧٩٥هـ بدمشق. «شذرات الذهب، ج٦، ص٣٣٩. - وانظر: مختصر طبقات الحنابلة، ص٧١-٧٢. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٢٩٥»،

(٣) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ص٤٣٦.

فهناك من ظن أن هذا الحديث دليل على الاعتماد على الله عز وجل والتوكل عليه، دون الأخذ بالأسباب حيث أن الطير لاتزرع ولا تحصد، ولا تملك شيئاً، فقط تروح وتغدو فتحصل على الرزق.

يجاب عليهم: بأنه وإن كانت الطير لا تزرع ولا تحصد إلا أنها ذهبت وجاءت ولم تبق في أعشاشها تنتظر الرزق يأتي إلى مكانها، بل سعت إليه بالروح والغدو. فسبحان الله عما يصفون[1].

٢ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل: يارسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: أعقلها وتوكل. »أ. هـ[2].

هذا الحديث الشريف صريح في الجمع بين الأمر بأخذ الأسباب، والأمر بعدم الاعتماد عليها بذاتها، والاعتماد على خالقها وموجدها وهو الله عز وجل. فقوله «أعقلها» أمر بالأخذ بالأسباب. وقوله «وتوكل» أمر بالاعتماد على الله عز وجل.

والأحاديث على إثبات الأمر بالأخذ بالأسباب، مع عدم الاعتماد عليها بالكلية، والاعتماد على خالقها وموجدها كثيرة جدا. وماذكرناه ماهو إلا أمثلة على ذلك.

---

(١) المصدر السابق، ص٤٣٥-٤٤١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، باب ٦٠، ج٤، ص٦٦٨. - وأخرجه البيهقي في شعبه، ج٢، ص٨٠. قال أبوعيسى: وهذا حديث غريب من حديث أنس لانعرفه إلا من هذا الوجه.

قال الزين العراقي في تخريج الإحياء: حديث أعقلها وتوكل من حديث أنس قال يحيى بن القطان: منكر، ورواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري باسناد جيد قيدها. «الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٤، ص٢٤٠».

فنصوص الكتاب والسنة دليل واضح، على الأمر باتخاذ الأسباب سواء كانت الشرعية أو الكونية، وعدم الاعتماد عليها بالكلية، والاعتماد على خالقها وموجدها.

لذلك يقول ابن القيم: «ومن التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله مع اعتماده على غيره، وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء آخر.» أ.هـ[١].

وغير ذلك من أقوال السلف التي سوف نذكرها في سيرهم إن شاء الله تعالى.

---

(١) ابن القيم، الفوائد، ص١١٣.

# المبحث الثالث

## الأمر بعدم الاعتماد على الأسباب

## من خلال سير الأنبياء عليهم السلام

قد عرضنا فيما سبق الأمر بالاعتماد على الله عز وجل عند الأخذ بالأسباب، وعدم الاعتماد عليها بالكلية، في الكتاب والسنة، وماسنذكره في هذا المبحث ماهو إلا تطبيق لما مضى ذكره، فالأنبياء عليهم السلام هم القدوة الحسنة في التطبيق، وإنفاذ أمر الله عز وجل، وما السنة النبوية السابقة الذكر إلا قول الرسول ﷺ، أو فعله، أو تقريره.

قال تعالى: ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين**﴾ «الأنبياء: ٧٣».

وسنذكر هنا بعض الأمثلة والتطبيقات لبعض الأنبياء عليهم السلام، في استخدام - اتخاذ - الأسباب الشرعية والكونية مع عدم الاعتماد عليها بالكلية، والاعتماد على خالقها وموجدها.

## الأسباب الشرعية والكونية في سير الأنبياء عليهم السلام :

### أولاً : شعيب عليه السلام :

شعيب -عليه السلام- أرسله الله عز وجل إلى أهل مدين منذراً، ومبشراً، منذراً من أعمال القبائح وعاقبتها من تطفيف في الكيل والوزن، وأكل أموال الناس بالباطل، ومبشراً بالخير لمن اتبع سبيل الهدى.

كان شعيب -عليه السلام- القدوة الحسنة للداعية في الحلم والتوكل على الله عز وجل، فشعيب عليه السلام، رغم أخذه بالأسباب، والوسائل الدعوية من فصاحة، وبلاغة في الوعظ، والإرشاد، وتطبيق ذلك على النفس وعدم مخالفة فعله قوله، إلا أنه لم يعتمد على ذلك فقط، بل اعتمد وطلب التوفيق من الله عز وجل[١].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، م ١، ج١، ص١٨٣-١٩١.

قال تعالى : ﴿**قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين ءامنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ومايكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين**﴾ «الأعراف : ٨٨-٨٩» .

يقول ابن كثير : « . . . ومايكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا» وهذا رد إلى الله المسبب فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء «على الله توكلنا» أي : في أمورنا مانأتي منها وما نذر»أ . هـ[١] .

وقال تعالى : ﴿**قال ياقوم أرءيتم إن كنت على بينه من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وماأريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح مااستطعت وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب**﴾ «هود : ٨٨» .

وقد سبق تفسير هذه الآية[٢] ، في جعلها دليلاً من الكتاب على الأمر بالأخذ بالأسباب ، وعدم الاعتماد عليها ، والاعتماد على خالقها وموجدها .

هكذا كان نبي الله شعيب -عليه السلام - في تفويض الأمور إلى الله عز وجل ، والاعتماد على مسبب الأسباب مع اتخاذها ، ولنا فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

## ثانياً : يعقوب عليه السلام :

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، الذي كانت من ذريته أنبياء بني إسرائيل ، كان مضرب المثل في التوكل على الله عز وجل بعد أن ابتلي بفقدان الابن

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٢ ، ص٢٢٢ .

(٢) راجع ص ١٤٣ من هذا المبحث .

والبصر، فنجد أن مواقف الصبر والتوكل تتكرر من يعقوب عليه السلام في حوادث عدة، تدل على توكل يعقوب - عليه السلام - على ربه مع أخذه للأسباب الشرعية والكونية في ذلك.

يظهر ذلك من خلال موقفه من نبأ فقدان ابنه يوسف عليهما السلام، فما كان من يعقوب -عليه السلام- إلا أن عمد إلى الصبر، الذي هو من أكبر الأسباب الشرعية، وأقواها في الوصول إلى الدرجات العلى عند الله عز وجل، بعكس الجزع والعياذ بالله.

فما كان من يعقوب -عليه السلام- إلا الأخذ بهذا السبب الشرعي مع الاعتماد والتوكل، والاستعانة بالله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿**وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون**﴾ «يوسف: ١٨» استعان وتوكل على الله عز وجل أن يوفقه ويعينه على هذه المصيبة، ويصبره عليها.

يقول ابن كثير: «... «بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل» أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه «والله المستعان على ماتصفون» أي: على ماتذكرون من الكذب والمحال»أ. هـ[(١)].

كذلك كان هناك موقف آخر له في الأخذ بالأسباب الشرعية، مع التوكل على الله عز وجل، وأنه ماشاء كان وما لا يشاء لم يكن.

عندما أراد أبناؤه أن يذهبوا إلى مصر ومعهم ابنه الثاني، أخو يوسف عليه السلام، وهو بنيامين. وكان يخاف منهم أن يفعلوا به كما فعلوا بأخيه يوسف عليه السلام من قبل.

قال تعالى: ﴿**قال هل ءامنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين**﴾ «يوسف: ٦٤».

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٥٣.

يقول ابن كثير : « ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ أي هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فالله خير حافظا﴾ وقرأ بعضهم حفظا ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي، ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين»أ. هـ[١].

وكذا قال الطبري من قبله[٢].

فإن الحفظ من الله عز وجل، فلم يرض يعقوب عليه السلام أن يسلم لهم ابنه الثاني، أخذا بوسائل الاحتياط والحذر والوقاية، مع العلم والاعتراف أن كل شيء بيد الله عز وجل.

ثم رضي بعد ذلك بأخذ وسيلة أخرى من وسائل وأسباب الأمن، وهي أخذ الموثق منهم بعدم فقدانه، كما فقد ابنه يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿**قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما ءاتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل**﴾ «يوسف: ٦٦».

ويتجدد الموقف مع يعقوب -عليه السلام- في الأخذ بالأسباب، ولكن هنا الأسباب الكونية، وهي أنه طلب من أبنائه ألا يدخلوا من باب واحد، وإنما يدخلون من أبواب شتى؛ لأمرين:

١ - مخافة العين، والإصابة بالحسد ومايترتب عليه من آثار.

٢ - مخافة الظن بهم لأنهم من أهل فلسطين، والظن بهم إرادة الشر بأهل مصر لدخولهم بهذا الجمع من باب واحد[٣].

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٤٦٥.

(٢) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج١٣، ص٨.

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير، ج ٤، ص ١٩٥.

وإن كانت هذه مجرد احتمالات لتفسير قول يعقوب عليه السلام «إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها . . . » إلا أن العبرة من ورود هذه القصة ، أنه أخذ بوسائل الحرص ، والحذر ، مع التوكل على الله عز وجل . لأنه قال : ماأغني عنكم من قدر الله -عز وجل- من شيء ، ولكن الوقاية والحذر ، والأخذ بالأسباب .

قال تعالى : **﴿وقال يابني لاتدخلوا من باب واحد وادخلوها من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شئ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ماكان يغني عنهم من الله من شئ إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾** «يوسف : ٦٧-٦٨» .

يقول ابن كثير : « . . . . قال ابن عباس ومحمد بن كعب(*) ومجاهد والضحاك(**) . وقتادة والسدي وغير واحد : خشي عليهم العين وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء ، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم فإن العين حق . . »أ . هـ[١] .

فيعقوب عليه السلام يعطينا درسا ، بأن التوكل على الله عز وجل ، يجب أن يصاحبه الأخذ بالأسباب ، سواء كانت الشرعية أو الكونية ، والحيطة والحذر من الأضرار ،

---

(*) محمد بن كعب بن سليم ، الإمام العلامة الصادق أبوحمزة . من حلفاء الأوس ، قال ابن سعد : كان ثقة عالما كثير الحديث ورعا . وقال الذهبي : كان من أئمة التفسير ، توفي سنة ١٢٠ هـ حيث كان له جلساء من أعلم الناس بالتفسير ، وكانوا مجتمعين في مسجد الربذة ، فأصبتهم زلزلة ، فسقط عليهم المسجد ، فماتوا جميعا تحته . «سير أعلام النبلاء ، اللذهبي ، ج٥ ، ص٦٥-٦٨» .

(**) الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني ، أبوالقاسم : مفسر ، كان يؤدب الأطفال ، ويقال : كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي ، قال الذهبي : كان يطوف عليهم ، على حمار . وذكر ابن حبيب تحت عنوان «أشراف المعلمين وفقهاؤهم» . له كتاب في «التفسير» . وتوفي سنة ١٠٥ هـ بخراسان . «شذرات الذهب ، ج١ ، ص١٢٤ . - وانظر : سير أعلام النبلاء ، ج٤ ، ص٥٩٨ . - الأعلام ، للزركلي ، ج٣ ، ص٢١٥» .

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٢ ، ص٤٦٦ .

فلله -عز وجل- في سير الكون نظام- وهي السنن الكونية - التي وعدنا بعدم تغييرها، إلا لقيام الساعة، أو ابتلاء وامتحان، أو عذاب وانتقام. فالمسببات على قدر الأسباب، والمؤمن هو الذي يأخذ بأسباب النجاة مع الثقة والاطمئنان لما قدر الله، فالاحتراس والحيطة والحذر، تعطي النفس الإنسانية قوة، وعزاء عند وقوع المصاب[١].

## ثالثاً : سليمان عليه السلام[*] :

نجد أن اتخاذ الأسباب، أمر مطلوب من الأنبياء عليهم السلام، ولكن مع عدم الاعتماد عليها، وإنما الاعتماد على خالقها، وموجدها، لذلك كان سليمان -عليه السلام- قد أخذ بالأسباب الشرعية والكونية، وتوكل على الله عز وجل حق التوكل.

ولكن وقع من سليمان عليه السلام نسيان في موقف من المواقف، حيث أعتمد على الأسباب الكونية، ولم يفوض الأمر لله عز وجل بذكر الاستثناء، وهو إن شاء الله. فكان ذلك سببا في حرمانه من نتيجة اتخاذه الأسباب، لأنه اعتمد عليها - أي على السبب دون مسببه وهو الله عز وجل - نسيانا، وليس إعراضا.

فعندما علم بخطئه تاب إلى الله عز وجل، واستغفر لربه، فغفر له، وآتاه من الملك مالا ينبغي لأحد من بعده.

قال تعالى: **﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب * قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لاينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾** «ص: ٣٤-٣٥»

فما هي هذه الحادثة التي اتخذ فيها سليمان -عليه السلام- الأسباب، ونسي الاعتماد، والتفويض على الله عز وجل فيها ؟ !

---

(١) عفيف طبارة، مع الأنبياء، ص١٨٨.

(*) ابن كثير، البداية والنهاية، م١، ج٢، ص٢٩.

كان لسليمان عليه السلام سبعون أو تسعون زوجة ، أقسم يوما ليطوفن عليهن فيلد من كل واحدة منهن فارساً مجاهداً في سبيل الله عز وجل ، ولكنه مع أخذه لأسباب الرزق بالولد ، إلا أنه لم يستثنِ بقوله : «إن شاء الله» وإن كان معترفاً بقلبه لله عز وجل بالقدرة ، والمشيئة ، ولكن لم ينطق بلسانه . يقول ابن حجر : « . . . «فلم يقل» أي : بلسانه لا أنه أبى أن يفوض إلى الله ، بل كان ذلك ثابتاً في قلبه ، لكنه اكتفى بذلك أولا ونسي أن يجريه على لسانه لما قيل له لشيء عرض له»أ . هـ[١] فعاقبه الله عز وجل أن أتاه نصف رجل فقط ، فعرف أنه أخطأ ، فتاب ، وأناب .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله . فقال له صاحبه : إن شاء الله . فلم يقل ، ولم تحمل شيئا إلا واحد ساقطاً أحد شقيه . فقال النبي ﷺ : لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»أ . هـ[٢] .

يقول ابن حجر : «قوله «تحمل كل أمرأة فارساً يجاهد في سبيل الله» هذا قاله على سبيل التمني للخير ، وإنما جزم به لأنه غلب عليه الرجاء ، لكونه قصد به الخير وأمر الآخرة لا لغرض الدنيا . قال بعض السلف : نبه ﷺ في هذا الحديث على آفة التمني والإعراض عن التفويض ، قال : ولذلك نسي الاستثناء ليمضي فيه القدر . . »أ . هـ[٣] .

فلابد من الاعتماد على الله عز وجل ، عند الأخذ بالأسباب الموصلة إلى الغاية ، وعدم الاعتماد على الأسباب ذاتها .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد . . .﴾ ، ج٦ ، ص٥٣٢ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب قوله تعالى ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد . . .﴾ ، ج٤ ، ص١٣٦ .

(٣) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد . . .﴾ ، ج٦ ، ص٥٣١ .

## رابعاً : الرسول صلى الله عليه وسلم :

قد سبق أن ذكرنا كيفية أخذ النبي ﷺ للأسباب الكونية والشرعية، من خلال أمثلة على ذلك، ومواقف رسول الله ﷺ تكاد لاتعد ولا تحصى في اتخاذه بالأسباب الشرعية، والكونية . وهنا سوف نبين كيفية هذا الأخذ مع الاعتماد على الله عز وجل، وعدم الاعتماد عليها بذاتها، ومن أين أخذ هذا الإسلام، وهذا المنبع الصافي، وهذه العقيدة، عقيدة الأخذ بالأسباب، والاعتماد على مسببها - وهو الله عز وجل - إلا من كتاب الله المنزل على رسوله ﷺ ، ومن أقواله ﷺ وأفعاله، وتقريراته ﷺ . فكل ماسبق من آيات، وأحاديث، وأمثلة من سير الأنبياء عليهم السلام هو المبلغ بها ﷺ .

فمن الأمثلة على بعض مواقفه ﷺ في أخذه بالأسباب ، مع اعتماده على الله عز وجل، وعدم الاعتماد عليها :

### ١ - عند خروجه من مكة إلى المدينة :

عند خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة، عندما عرف مؤامرة قريش بقتله، فقد أعد لذلك مايستلزمه السفر من عدة، وأسباب موصلة إلى الغاية . فقد أعد راحلتين ، وعلفها، هو وصاحبه الصديق رضي الله عنه، وأخذ معهما الزاد، وكذلك الهادي والمرشد في الطريق . فهذه أسباب كونية اتخذها رسول الله ﷺ ، وصاحبه الصديق رضي الله عنه، عند رحيلهما إلى المدينة، مع اعتماده على الله عز وجل ، في إنقاذه من قريش ، مع أخذه للأسباب، من مسح للأثر عن طريق عامر بن فهيرة(*)، مولى لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما، بالغنم، ويأتيهم بالخبر.

---

(*) عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر رضي الله عنهما، يكنى أبا عمر، اشتراه أبوبكر، وأعتقه قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، فكان من المستضعفين يعذب بمكة ليرجع عن دينه، وشهد بدرا، وأحدا، وقصته مع رسول الله ﷺ حين هجرته من مكة إلى المدينة، قتل يوم بئر معونة سنة ٤هـ وهو ابن ٤٠ سنة. ويقال : أن الملائكة دفنته. «الاستيعاب، ج٣، ص٣-٩. - صفة الصفوة، لابن الجوزي، ١، ص٢٢٥-٢٢٦. - وانظر : الإصابة، ج٢، ص٢٥٦».

كذلك كانت تأتيهم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما(*) بالطعام، والزاد في نطاقها، ورسول الله ﷺ وصاحبه بالغار، أخذاً بأسباب الوقاية، والحماية من قريش، وبطشهم حتى لايراهم أحد، ومع هذا كان أبوبكر الصديق رضي الله عنه خائفا يترقب، فقال له ﷺ كلمة المتوكل على الله عز وجل، مع الأخذ بالأسباب «لاتحزن إن الله معنا»[(١)].

قال تعالى: ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم**﴾ «التوبة: ٤٠».

يقول ابن كثير: «يقول تعالى: «إلا تنصروه» أي: تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره «إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين» أي: عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربا صحبة صدّيقه وصديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة فجعل أبوبكر رضي الله عنه يجزع أن يطلع عليهم فيخلص إلى الرسول ﷺ منهم أذى فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبته ويقول «ياأبابكر ماظنك باثنين الله ثالثهما»... عن أنس أن أبابكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن

---

(*) أسماء بنت أبي بكر الصديق، من قريش، صحابية، آخر المهاجرين والمهاجرات وفاة، وهي أخت عائشة رضي الله عنها لأبيها، وأم عبدالله بن الزبير. كانت فصيحة حاضرة القلب واللب، تقول الشعر، وخبرها مع الحجاج مشهور، سميت «ذات النطاقين» لقصتها مع رسول الله ﷺ في الغار. توفيت سنة ٧٣هـ بعد أن عميت بعد مقتل ابنها. «الاستيعاب، ج٤، ص٢٣٢. - شذرات الذهب، ج١، ص٨٠. - صفة الصفوة، لابن الجوزي، ج٢، ص٤١. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٢٨٧. - الإصابة، ج٤، ص٢٢٩-٢٣٠. - الأعلام، للزركلي، ج١، ص٣٠٥».

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٦٣-٧٠. - ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٥٣-٥٥.

أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال: فقال: ياأبابكر ماظنك باثنين الله ثالثهما»(*) . . . . ، ولهذا قال تعالى: «فأنزل الله سكينته عليه» أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول ﷺ في أشهر القولين، وقيل: على أبي بكر . . . »أ. هـ[1] .

وكذلك موقفه مع سراقة بن جعشم(**)، في نفس الحادثة، عندما لحقهم في هجرتهم، بفرسه، فدعا رسول الله ﷺ عليه، فساخت أرجل فرسه في الأرض .

وقيل: إن دعاء رسول الله ﷺ كان «اللهم اكفناه بما شئت». بتفويض الأمر إلى الله عز وجل[2] .

والحادثة بطولها في البخاري[3] .

## ٢ - في غزواته ﷺ :

كان ﷺ ، يأخذ بأسباب الجهاد من عدة، وعتاد، من سلاح، وجنود، ودواب . . . وغيرها . ولكنه مع ذلك يتوكل على الله عز وجل في النصر، والفوز على أعدائه .

يقول ابن القيم: « . . . أن من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسبباتها قدرا وشرعا، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه أكمل الخلق توكلا، وإنما كانوا يلقون عدوهم، وهم متحصنون بأنواع السلاح، ودخل رسول الله ﷺ مكة، والبيضة على

---

(*) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب مناقب المهاجرين، ج٤، ص١٩٠ .

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٣٤٣ .

(**) سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني، أبوسفيان، صحابي، له شعر، له في كتب الحديث ١٩ حديثا، وكان في الجاهلية قائفا: يقتضي الأثر، أخرجه أبوسفيان ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبي بكر . وأسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨هـ، وتوفي سنة ٢٤هـ. «الاستيعاب، ج٢، ص١١٩-١٢١ . وانظر: شذرات الذهب، ج١، ص٣٥ . - الإصابة، ج٢، ص١٩ . - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٨٠» .

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرته ﷺ ، ج٧، ص ٢٨٤ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب هجرته ﷺ ، ج٤، ص٢٥٤-٢٥٨ .

رأسه، وقد أنزل الله عليه ﴿والله يعصمك من الناس﴾ «المائدة: ٦٧». »أ. هـ[١].

ففي غزوة بدر، رغم أخذه بالأسباب الآنفة الذكر، إلا أنه التجأ إلى الله عز وجل بالدعاء، والاعتماد، والتوكل. عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد، فأخذ أبوبكر بيده فقال: حسبك. فخرج وهو يقول «سيهزم الجمع ويولون الدبر». »أ. هـ[٢].

## ٣ - في دعائه ﷺ:

### أ - عند قيامه للصلاة:

وكما سبق أن ذكرنا، فالصلاة سبب شرعي، موصل إلى الغاية. فهو يسأل الله عز وجل العون، والمقدرة عليها. فقد اعتمد على الله عز وجل، وتوكل عليه مع أخذه بهذا السبب الشرعي فيقول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «إن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول: اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد، أنت قيام السموات والأرض، ولك الحمد، أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والساعة حق. اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ماقدمت وماأخرت وما أسررت وما أعلنت، إنك إلهي لا إله إلا أنت»أ. هـ[٣].

الشاهد من الحديث: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت...».

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٤٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قوله تعالى ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم... الآية﴾، ج٧، ص٣٣٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التهجد في الليل، ج٢، ص٤١-٤٢.

### ب - عن خروجه من المنزل :

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : من قال: -يعني إذا خرج من بيته- بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: كفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان»أ. هـ[(١)].

وعن أم سلمة[(*)] : أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: بسم الله توكلت على الله. اللهم إنا نعوذ بك من أن نزل أو نضل أو نظلم أو نظلم أو نجهل أو يجهل علينا»أ. هـ[(٢)].

في الحديثين السابقين، وجدنا أن رسول الله ﷺ ، أخذ بالأسباب، من قيام، وحركة، وخروج، ثم دعا بالعون، والاعتماد، والتوكل على الله عز وجل.

### جـ - عند رؤيته لباكورة الثمار :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله ﷺ ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: اللهم بارك لنا في ثمارنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا ومدنا. اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإني عبدك

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ٣٤، «مايقول إذا خرج من بيته»، ج٥، ص٤٩٠، وأخرجه أبوداود في سننه، كتاب الآداب، باب مايقول إذا خرج من بيته، ج٥، ص٣٢٧-٣٢٨، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب مايدعو الرجل إذا خرج من بيته، ج٢، ص١٢٧٨. قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه.

(*) هند بنت سهيل بن المغيرة، القرشية المخزومية، أم سلمة، من زوجات النبي ﷺ، تزوجها في سنة ٤هـ. وكانت من أكمل النساء عقلا وخلقا، هاجرت الهجرتين الحبشة والمدينة برفقة زوجها أبي سلمة، فلما مات تزوجت رسول الله ﷺ. لها من الحديث ٣٧٨ حديثا. ولدت سنة ٢٨ق. هـ، وقيل: إنها توفيت سنة ٦٢هـ. «الاستيعاب، ج٤، ص٤٢١-٤٢٣. - شذرات الذهب، ج١، ص٦٢-٦٣. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٢٠١. - الإصابة، ج٤، ص٤٢٣-٤٢٤. - الأعلام، للزركلي، ج٨، ص٩٧-٩٨».

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ٣٥، ج٥، ص٤٩٠. قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح.

ونبيك ، وإنه دعاك لمكة وأنا أدعوك للمدينة ، بمثل مادعاك به لمكة ومثله معه ، ثم يدعو أصغر وليد فيعطيه ذلك الثمر . . »أ . هـ[1] .

فهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم أخذوا بالأسباب الكونية ، من بذر ، وسقي ، واهتمام بالحرث والحصاد ، ولكن ذلك لم يكن اعتماداً كلياً على عملهم ، بل إن الرسول ﷺ ، كان يؤتى إليه بأول باكور الثمر ، فيدعو لهم بالبركة من الله عز وجل .

فما ذكرناه من مواقف الرسول ﷺ من أخذ للأسباب ، مع اعتماد على الله عز وجل ، وعدم الاعتماد عليها بالكلية ، دليل على ماقلناه سابقاً ، الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، فالأسباب ومسبباتها خلق لله عز وجل ، تحدث بمشيئته وقدرته ، وإن الله عز وجل جعل للإنسان تأثيراً ، وللسبب تأثيراً لإنتاج المسبب ، إلا أن ذلك بتوفيق الله عز وجل ، وعونه . فلابد من الاعتماد على الله عز وجل .

فهذه بعض الأمثلة من سير الأنبياء عليهم السلام ، في الأخذ بالأسباب الشرعية والكونية ، وعدم الاعتماد عليها بالكلية ، والاعتماد على خالقها وموجدها - الله عز وجل - وهم القدوة لهذه الأمة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

---

(١) أخرجه الترمذي في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب ٥٤ «مايقول إذا رأى الباكورة من الثمر ، ج٥ ، ص٥٠٦ . قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح .

# المبحث الرابع

## الأمر بعدم الاعتماد على الأسباب

# من خلال سير السلف الصالح

«رضوان الله عنهم»

قد عرضنا فيما سبق الأمر باتخاذ الأسباب الشرعية والكونية مع عدم الاعتماد عليها، والاعتماد على خالقها وموجدها في الكتاب والسنة، وذكرنا بعض الأمثلة من سير الأنبياء عليهم السلام تثبت تطبيقهم لذلك، وإنفاذهم لأمر الله عز وجل في عدم الاعتماد عليها، والاعتماد عليه سبحانه وتعالى، وما سنذكره الآن ماهو إلا أمثلة لتطبيق أتباع هؤلاء الأنبياء رضوان الله عليهم.

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن» أ. هـ[١].

فسأذكر هنا بعض الأمثلة لأصحاب رسول الله ﷺ، ولبعض التابعين، والقرون التي تليها، ومن سار على نهجهم بعد ذلك، ولا نزكي على الله أحداً.

## الأسباب الشرعية والكونية في سير السلف الصالح رضوان الله عليهم:

### ١ - عائشة رضي الله عنها :

عائشة رضي الله عنها، أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ. كان لها موقف مع الأخذ بالأسباب الشرعية، مع الاعتماد والتوكل على الله عز وجل، يماثل موقف يعقوب عليه السلام السابق الذكر[٢] في الصبر، والاعتماد على الله عز وجل، في الخلاص من المصيبة. وهي حادثة الإفك: حيث ابتليت بها عائشة رضي الله عنها، وأنزل الله - عز وجل-

---

(١) سبق تخريجه، ص ١٢٦ .

(٢) راجع ص ١٧٣ من هذا البحث .

براءتها من فوق سبع سموات، عندما ذهبت مع رسول الله ﷺ في غزوة المريسيع(*)، وضاع عقد لها، فذهبت على أثره، حتى ذهب عنها القوم، وحملها صفوان بن المعطل السلمي(**)، حتى آتى بها القوم، فاستغلها المنافقون في الطعن في أهل رسول الله ﷺ، والقذف بهم، فعندما أتى رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها ليعرف صدق الخبر، من كذبه، وهي جالسة عند أهلها، بعد هجر الرسول ﷺ لها فترة من الوقت، بسبب هذه الحادثة، وعدم معرفته لما حدث أصدق، أم كذب. أراد معرفة الحق منها، ولكنها لم تستطع الرد عليه، من هول ماأصابها، فطلبت من أمها، وأبيها الرد عليه، فسكتوا. فقالت: ماأدري ماأقول لرسول الله ﷺ، فقلت وأنا يومئذ حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت - أي بما يقوله الناس عنها - لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لاتصدقونني بذلك، ولئن أعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني بريئة - لتصدقني. والله ماأجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف: ﴿**فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون**﴾ «يوسف: ١٨». فنزل وحي من السماء يبرؤها، بسبب اتخاذها للأسباب المشروعة في المصيبة وهي الصبر، والتوكل على الله، والاستعانة به تعالى في تبرئتها. فكان لها ماأرادت من البراءة[1].

---

(*) غزوة المريسيع: كانت بين الرسول ﷺ، وبين بني المصطلق من خزاعة، عندما سمع رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، فخرج إليهم ولقيهم على ماء لهم يقال له: المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، وكانت في شعبان سنة ٦هـ فانتصر فيها رسول الله ﷺ. «السيرة النبوية، لابن هشام، ج٣، ص٢٢٦-٢٢٧».

(**) صفوان بن المعطل بن رحضة السلمي الذكواني، أبوعمرو، صحابي، شهد الخندق والمشاهد كلها، وحضر فتح دمشق، واستشهد بأرمينية، وقيل: سميساط، سنة ١٩هـ، وروى عن النبي ﷺ حديثين. «الاستيعاب، ج٢، ص١٨٧-١٨٨. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٥٤٥. - الإصابة، ج٢، ص١٩٠-١٩١. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٢٠٦».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهم بعضا، ج٥، ==

فهذه المحصنة الغافلة المؤمنة التي رميت، صبرت، واحتسبت البراءة من عند الله عز وجل، فكان لها ماأرادت. أخذت بالأسباب المطلوبة منها للوصول إلى الغاية، أخذت بالصبر والدعاء، والالتجاء إلى الله عز وجل مسبب هذه الأسباب، فكان لها المطلوب، وهو نزول براءتها من فوق سبع سموات من عند خالق الكون وموجده.

### ٢ - الإمام الشافعي رضي الله عنه :

أثر عنه في الأخذ بالأسباب ، والاستعانة بخالقها، أنه كان إذا جادل أحداً، مع أخذه بالأسباب من علم، وقوة حجة عليه، إلا أنه يقول: ماناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وماناظرت أحداً إلا ولم أبال بين الله الحق على لساني أو لسانه»[١] فهو طالب للحق سواء كان به أو بغيره، مع الأخذ بالأسباب المشروعة الشرعية والكونية، وكذلك الاعتماد على الله عز وجل على ذلك.

### ٣ - الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه :

عن عبدالله بن أحمد قال: سألت أبي عن قوم يقولون: نتكل على الله ولا نكتسب، فقال: «ينبغي للناس كلهم يتوكلون على الله - عز وجل - ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب، قال الله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾ ، فبهذا قد علم أنهم يكتسبون ويعملون. . .»أ. هـ[٢].

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى في موضع آخر: «وهذا هو الأصل في هذا الباب، وهو أن يستعمل هذه الأسباب التي بينها الله تعالى لعباده وأذن فيها وهو يعتقد أن

---

== ص١٩٨. - ابن عبدالبر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٤، ص٣٥٦-٣٦١. - ابن الجوزي، صفة الصفوة، م١، ج٢، ص٩-٢٨. - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص١٣٥-٢٠١. - ابن حجر، الإصابة، ج٤، ص٣٥٩-٣٦١».

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٢، ص١٦٥-١٧٢.

(٢) الخلال، الحث على التجارة، ص١٥٦.

المسبب هو الله سبحانه وتعالى، ومايصل إليه من المنفعة عند استعمالها بتقدير الله عز وجل، وأنه إن شاء حرمه تلك المنفعة مع استعمال السبب فتكون ثقته بالله عز وجل واعتماده عليه في إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب»أ. هـ[١].

فهذا ماأثر عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، من أخذ بالأسباب، وعدم الاعتماد عليها، والاعتماد على خالقها وموجدها، ومقدرها، وله في هذه القضية كلام، وأقوال كثيرة.

## ٤ - الإمام ابن تيمية رحمة الله عليه :

أثر عن الإمام ابن تيمية قوله: «ومما ينبغي أن يعلم، ماقاله طائفة من العلماء. قالوا: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد. ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع.»أ. هـ[٢].

ثم يعقب ابن تيمية على ذلك بقوله: «وبيان ذلك : أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه، وليس في المخلوقات مايستحق هذا، لأنه ليس مستقلاً، ولابد له من شركاء وأضداد، ومع هذا كله فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر، وهذا مما يبين أن الله رب كل شيء ومليكه، . . . »أ. هـ[٣].

فالأخذ بالأسباب مع الاعتماد على مسببها سبحانه وتعالى أمر مطلوب، والالتفات إليها بالكلية أمر مذموم، وتركها وأطراحها بالكلية أمر مذموم أيضاً.

---

(١) البيهقي، شعب الإيمان، ج٢، ص٧٩.
(٢) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص١٦٩.
(٣) المصدر نفسه، ج٨، ص١٦٩.

### ٥ - ابن القيم رحمه الله تعالى :

قد أثر عنه أنه قال : «فالموحد المتوكل : لايلتفت إلى الأسباب ، بمعنى أنه لايطمئن إليها ، ولايرجوها ولايخافها ، فلا يركن إليها . ولا يلتفت إليها ، بمعنى أنه لايسقطها ولا يهملها ويلغيها ، بل يكون قائما بها ، ملتفتاً إليها ، ناظراً إلى مسببهاسبحانه ومجريها ، فلا يصح التوكل - شرعا وعقلا - إلا عليه سبحانه وحده . فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده . فهو الذي سبب الأسباب . وجعل فيها القوي والاقتضاء لآثارها ، ولم يجعل منها سببا يقتضي وحده أثره ، بل لابد من سبب آخر يشاركه . وجعل لها أسبابا تضادها وتمانعها . . . »أ . هـ[١] .

ويقول معقباً على ذلك : «فإذا جمعت بين هذا التوحيد وبين إثبات الأسباب ، استقام قلبك على السير إلى الله . ووضح لك الطريق الأعظم الذي مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم . . . »أ . هـ[٢] .

وقد ذكرنا له نصوصاً عدة في أول الفصل[٣] .

### ٦ - ابن الجوزي رحمة الله عليه :

أثر عنه أنه قال : «عرضت لي حالة لجأت فيها بقلبي إلى الله تعالى وحده ، عالماً بأنه لايقدر على جلب نفعي ، ودفع ضرّي سواه ، ثم قمت أتعرض بالأسباب . فأنكر علي يقيني . وقال : هذا قدح في التوكل ، فقلت : ليس كذلك ، فإن الله وضعها من الحكم فإذاجعل الشرع الأمور منوطة بالأسباب ، كان إعراضي عن الأسباب دفعا للحكمة ، ولهذا أرى أن التداوي مندوب إليه ، . . . . »أ . هـ[٤] .

---

(١) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج٣ ، ص٥٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج٣ ، ص٥٠٠ .

(٣) راجع ص ١٣٨ من هذا البحث .

(٤) ابن الجوزي ، صيد الخاطر ، ص٦٩-٧١ .

فابن الجوزي ذكر هنا كيفية التوفيق بين الأخذ بالأسباب، والاعتماد على الله، والتوكل عليه سبحانه، وذكر على ذلك أمثلة[١].

فما سبق أن ذكرناه، ماهو إلا أمثلة على الأمر بعدم الاعتماد على الأسباب، عند اتخاذها، والاعتماد على خالقها وموجدها. وهوتوضيح لما سبق أن قلنا من قضية الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد.

فالالتفات إليها التفاتاً كليا، واعتماد القلب والجوارح عليها من غير نظر إلى مسببها، لأن الأسباب عندهم هي المسببة بذاتها، وهي الضارة والنافعة، فصرف هذه العبادة لها، لا لله عز وجل، شرك في التوحيد، وهو ماقصده العلماء في قولهم.

كما أننا نعلم من الآيات الكريمات، والأحاديث النبوية، وقصص الأنبياء، أن سنن الكون، ونظام الأسباب والمسببات يمكن أن يتغير لإعجاز - معجزة - لنبي من الأنبياء عليهم السلام، أو لكرامة ولي، أو لابتلاء، وفتنة، وعذاب لأشخاص آخرين. والعياذ بالله.

لذلك كان الأخذ بالأسباب الشرعية والكونية، حسب الأوامر الإلهية، ثم النبوية التابعة للوحي من الإلوهية، هي المطلوبة شرعا، وهي الأخذ مع الاعتماد على الله عز وجل، وأنه قادر على تغييرها، إن شاء، وقت ما شاء.

فالأسباب والمسببات من السنن الكونية، التي أخبرنا الله عز وجل بثباتها في قوله: ﴿**سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾ «الأحزاب: ٦٢».

وقوله: ﴿**فلن تجد لسنته تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا**﴾ «فاطر: ٤٣».

ولكن تتغير لأحوال معينة كما سبق أن ذكرنا، كقيام الساعة لقوله تعالى: ﴿**يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار**﴾ «إبراهيم: ٤٨».

وتتغير للإعجاز كقوله تعالى: ﴿**قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني**

---

(١) المصدر السابق، ص٦٩-٧١. - ابن الجوزي، تلبيس أبليس، ص٢٨٨.

**بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾** «آل عمران: ٤٧».

فهذه أمثلة على التغيرات، فالإنسان عليه الاعتماد على الله عز وجل، والتوكل عليه، وفعل المأمور، وترك المحذور، فالله -عز وجل- جعل في الأسباب قوى وطبائع تؤثر بقدرة الله عز وجل، وهو قادر على منعها، وعلى فعلها، يقول ابن تيمية: «وذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ماهي عليه، وهو قد جعل للأشياء أسبابا تكون بها، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ امرأة فيحبلها، فلو قال هذا: إذا علم الله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطء كان أحمق، لأن الله علم أن سيكون بما يقدره من الوطء، وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له بالزرع بما يسقيه من الماء ويبذره من الحب، فلو قال: إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر، كان جاهلا ضالا؛ لأن الله علم أن سيكون بذلك، وكذلك إذا علم الله هذا يشبع بالأكل، وهذا يروى بالشرب، وهذايموت بالقتل، فلابد من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها....، وما قدره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت، فليس في الدنياوالآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات. ولهذا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والاعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، ومجرد الأسباب لايوجب حصول المسبب، فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافيا في حصول النبات بل لابد من ريح مربية بإذن الله، ولابد من صرف الانتفاء عنه، فلابد من تمام الشروط، وزوال الموانع، وكل ذلك بقضاء الله وقدره....» أ.هـ[1].

وهذا النص هو اعتقاد أهل السنة والجماعة في الأخذ بالأسباب، والاعتماد على الله عز وجل، والاعتراف بقدرته ومشيئته وعلمه بهذه الأسباب، وكيفيتها، وثباتها، وتغيرها.

---

(١) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص٦٨-٧٠.

# الفصل الثالث

## الأسباب وعلاقتها ببعض قضايا العقيدة عند أهل السنة والجماعة

المبحث الأول : الأسباب والتوكل عند أهل السنة والجماعة .

المبحث الثاني : الأسباب والقدر عند أهل السنة والجماعة .

المبحث الثالث : الأسباب والدعاء عند أهل السنة والجماعة .

المبحث الرابع : الأسباب وخوارق العادة عند أهل السنة والجماعة .

قد تعرفنا في الفصول السابقة من هذا البحث على تعريف الأسباب في اللغة والاصطلاح، كذلك تعرفنا على أدلة الأمر بأخذها، وأدلة عدم الاعتماد عليها وإنما الاعتماد على مسبب الأسباب وهو الله عز وجل، سواء كان في الكتاب أو السنة، ووضعنا أمثلة على ذلك من سير الأنبياء، وسير السلف الصالح. أثناء ذلك وجدنا أن هناك من يشكل عليه كيفية التوفيق بين الأسباب وبين كل من التوكل، والقدر، والدعاء، وخوارق العادات.

ففي هذا الفصل - إن شاء الله عز وجل - سنبين كيفية التوفيق بين هذه القضايا والأسباب سواء كانت الشرعية منها أو الكونية.

ونسأل الله العزيز القدير الحميد أن يوفقنا لذلك.

# المبحث الأول

# الأسباب والتوكل

# عند أهل السنة والجماعة

١ - تمهيـــد :

أ - التعريف في اللغة .

ب - التعريف في الاصطلاح .

٢ - علاقة التوكل بالأسباب .

## التوكل وعلاقته بالأسباب

لكي نعرف علاقة التوكل بالأسباب لابد من معرفة التوكل في اللغة والاصطلاح .

### تعريف التوكل في اللغة :

«وكل يتوكل توكلا أي : وكل فلان فلانا إذا استكفاه أمره ، ثقة بكفايته ، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه .

والتوكل : إظهار العجز ، والاعتماد على غيرك .

ووكل إليه الأمر : سلمه

يقول ابن سيده : وكل بالله وتوكل عليه ، واتكل : استسلم إليه .

والمتوكل على الله : الذي يعلم أن الله كافل رزقه ، وأمره ، فيركن إليه وحده ، ولايتوكل على غيره .

والوكيل : اسم من أسماء الله تعالى . قال تعالى : ﴿أن لاتتخذوا من دوني وكيلا﴾ . وهو بمعنى : الذي توكل بالقيام بجميع ماخلق .

وقال بعضهم : الوكيل الكفيل ، ونعم الكفيل بأرزاقنا .

وقال ابن الأنباري : الوكيل الحافظ .

ووكيل الرجل : الذي يقوم بأمره ، وسمى وكيلا ؛ لأن موكله قد وكله ، أو وكل إليه القيام بأمره ، فهو موكول إليه الأمر»أ . هـ[١] .

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج١٥ ، ص٣٨٧-٣٨٩ . - الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ج٤ ، فصل الواو ، باب اللام ، ص١٦ .

## تعريفه في الاصطلاح :

للتوكل في الاصطلاح معانٍ عدة، وماهذا إلا لتعريف السلف للتوكل بلازمه، ومنهم من عرفه بأسبابه ودواعيه، أو بثمرته أو جزء معناه، وغير ذلك. لقول ابن القيم: «وقد تقدم أن كثيراً من الناس يفسر التوكل بالثقة، ويجعله حقيقتها. ومنهم من يفسره بالتفويض. ومنهم من يفسره بالتسليم. فعلمت: أن مقام التوكل يجمع ذلك كله. . »أ. هـ[(١)].

فمن التعريفات للتوكل :

١ - قال ابن عباس رضي الله عنهما : «هو الثقة بالله»أ. هـ[(٢)].

٢ - وقال أحمد بن حنبل: «وقال: «وجملة التوكل: تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه، والثقة به»أ. هـ[(٣)].

٣ - قال ابن الجوزي عن بعضهم: «هو تفويض الأمر إلى الله، ثقة بحسن تدبيره»أ. هـ[(٤)].

٤ - قال ابن رجب الحنبلي: «هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها»أ. هـ[(٥)].

٥ - وقال الحافظ ابن حجر: «وقيل: هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب». أ. هـ[(٦)].

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٢، ص١٤٤.

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: أحمد شمس الدين، ج١، ص٣٦٣.

(٣) البيهقي، شعب الإيمان، ج٢، ص٥٧.

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير، ج١، ص٣٦٤.

(٥) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ص٤٣٥.

(٦) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى ﴿وتزودوا، فإن خير الزاد التقوى﴾، ج٣، ص٤٤٩.

٦ - يقول الحكمي(*) : «التوكل على الله، وهو اعتماد القلب عليه وثقته به وأنه كافيه. . .»أ. هـ(١).

٧ - يقول ابن عثيمين(**) : «التوكل هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في جلب المطلوب، وزوال المكروه مع فعل الأسباب المأذون فيها، وهذا أقرب تعريف ولابد من أمرين :

١ - أن يكون الاعتماد على الله اعتمادا صادقا حقيقيا.

٢ - فعل الأسباب المأذون فيها»أ. هـ(٢).

وكل هذه التعاريف، يقول عنها ابن القيم ماسبق أن ذكرناه، من أنها أمور تتعلق بالتوكل، وسبب هذا الاختلاف هو أن التوكل عمل قلبي لاينضبط بتعريف.

---

(*) حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، فقيه أديب، من علماء جيزان، تولى النيابة في إدارة مدارس التعليم بسامطة، ثم عين مديرا للمعهد العلمي فيها، له عدة مصنفات منها «معارج القبول»، «أعلام السنة المنثورة»، «الأصول في نهج الرسول»، ولد سنة ١٣٤٢هـ في قرية السلام بمدينة المضايا جنوب جيزان، وتوفي سنة ١٣٧٧هـ بمكة. «الأعلام، للزركلي، ج٢، ص١٥٩».

(١) الحكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، ج١، ص٤٠٥-٤٠٦.

(**) محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهيبي التميمي، أبوعبدالله، عالم بالفقه، والحديث، وعلم الفرائض، والاعتقاد، قرأ على عبدالرحمن السعدي: التوحيد، والتفسير، والحديث والفقه وأصول الدين، وأصول الفقه، والفرائض، ومصطلح الحديث، والنحو، والصرف، عين مدرسا في معهد عنيزة العلمي، تولى إمامة الجامع الكبير بعنيزة، والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية، والآن يدرس في كلية الشريعة في جامعة الإمام بالقصيم، وعضو هيئة كبار العلماء، وله عدة أعمال، له عدة مصنفات منها «تلخيص الحموية»، «مصطلح الحديث»، «شرح الواسطية». ولد سنة ١٣٤٧هـ بعنيزة. «علماءنا، لفهد البدراني، وفهد البراك، ص٤٢-٤٨».

(٢) ابن عثيمين، القول المفيد علي كتاب التوحيد، تحقيق: سليمان بن عبدالله بن حمود أباالخيل، وخالد بن علي بن محمد المشيقيح، ج٢، ص١٨٥.

فيقول ابن القيم : « وحقيقة الأمر : أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لاتتم حقيقة التوكل إلا بها . وكل أشار إلى واحد من هذه الأمور ، أو اثنين أو أكثر . . . »أ . هـ[١] .

ويسمي ابن القيم هذه الأمور درجات التوكل .

فما هي درجات التوكل التي من خلالها نتعرف على علاقة التوكل بالأسباب ؟

درجات التوكل عند ابن القيم هي كالتالي :

أولاً : معرفة الرب وصفاته : من قدرته ، وكفايته ، وقيوميته ، وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته . وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل[٢] .

فالمتوكل إذا لم يعرف ربه وصفاته ، لم يستطع التعبد بالتوكل .

ثانياً : إثبات في الأسباب والمسببات . فالتوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه ، ومن أعظم الأسباب الموصلة إلى المطلوب ، ويندفع به المكروه ، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ، ولكن من تمام التوكل : عدم الركون إلى الأسباب ، وقطع علاقة القلب بها . فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه بها . فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه . والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره . فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل . ولايقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية[٣] .

فالتوكل يعتبر سبباً ، ولكنه سبب ملازم لكل سبب شرعي أو كوني ، فلا يحصل المطلوب بالسبب بدون توكل ، ولايحصل المطلوب بالتوكل بدون السبب . لأنها علاقة معية . وهو ماوضحناه في الفصل السابق[٤] .

---

(١) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج٢ ، ص١١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١١٧-١١٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١١٨-١٢٠ . بتصرف .

(٤) راجع الفصل الثاني من الباب الأول «الأمر بعدم الاعتماد عليها» .

ثالثاً : رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل . فإنه لايستقيم توكل العبد حتى يصلح له توحيده . بل حقيقة التوكل : توحيد القلب . فمادامت فيه علائق الشرك ، فتوكله معلول مدخول . وعلى قدر تجريد التوحيد : تكون صحة التوكل ، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه - لذلك قال العلماء : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد - فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة . ومن هاهنا ظن من ظن أن التوكل لايصح إلا برفض الأسباب . وهذا حق . لكن رفضها عن القلب ، لا عن الجوارح . فالتوكل لايتم إلا برفض الأسباب عن القلب ، وتعلق الجوارح بها . فيكون منقطعا منها متصلاً بها . أ . هـ[١] .

ويقول في موضع آخر : فالشرك أن يعتمد عليها ويطمئن إليها - أي الأسباب - يعتقد أنهابذاتها محصلة للمقصود ، فهو معرض عن المسبب لها - وهو الله سبحانه وتعالى - ويجعل نظره والتفاته مقصوراً عليها . وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها ، وأداء لحق العبودية فيها ، وإنزالها منازلها ، فهذا الالتفات عبودية وتوحيد ، إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب . أ . هـ[٢] .

رابعاً : اعتماد القلب على الله ، واستناده إليه ، وسكونه إليه ، والثقة به ، والطمأنينة إليه سبحانه وتعالى[٣] .

وهذه المرتبة ، أو الدرجة هي بمعنى أن الواثق بالله قد فعل ماأمره الله به ، ووثق بالله في طلوع ثمرته ، وتنميتها وتزكيتها ، كغارس الشجرة ، وباذر الأرض . والمغتر العاجز

---

(١) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج٢ ، ص١٢٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٤٩٩-٥٠٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١٢٠ . بتصرف .

قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله. والثقة إنما تصلح بعد بذل المجهود[١]. وبحيث يكون اعتماده، وسكونه، وثقته بالله عز وجل بعد فعل الأسباب[٢].

خامساً: حسن الظن بالله عز وجل. فعلى قدر حسن الظن، يكون التوكل على الله عز وجل. فإن حسن الظن يدعو إلى التوكل، إذ لايتصور التوكل على من ساء ظنك به[٣].

سادساً: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلهاإليه، وقطع منازعاته. وهذابمعنى فعل ماأمر، وترك مانهى. والانشغال بطاعته سبحانه، دون النظر إلى غيره في أمر أو نهي، من هوى، أو شيطان. فمن ظن أن الأسباب تعارض هذه الدرجة من التوكل، فقد أخطأ، لأن الأخذ بالأسباب من أمر الله عز وجل، المستسلم له.

سابعاً: التفويض: وهو روح التوكل ولبه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبا واختيارا، لا كرها واضطرارا. وكثيرا مايشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص. فيشتبه التفويض بالإضاعة. فيضيع العبد حظه من العمل، والكسب، والأخذ بالأسباب، ظنا منه أن ذلك تفويض وتوكل. وإنما هوتضييع لا تفويض. فالتضييع في حق الله. والتفويض في حقك[٤].

ثامناً: الرضى: وهي ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل بها. فإنما فسره بأجل ثمراته، وأعظم فوائده. فإنه إذا توكل حق التوكل رضى بما يفعله وكيله به. أي: أنه إذا عرف التوكل المقرون بالأخذ بالأسباب، الذي لايتم حقيقة التوكل إلا به، فما حصل له بعد

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص١٢٤. بتصرف.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٢٠. بتصرف.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٢١. بتصرف.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص١٢٢-١٢٣.

ذلك من تحقق النتيجة المطلوبة، أو عدم تحققها، أو حصول مصيبة، بسبب ذلك السبب، فإنما هو قضاء وقدر، وله التسليم والرضى[(١)].

فهذه الدرجات الثمان التي منها ماهو من أسباب التوكل ودواعيه، ومنها ماهو من ثماره وآثاره، ومنها ماهو جزء معناه، من استكملها فقد استكمل مقام التوكل، وثبت فيه، وإذا نقص منها واحد نقص من توكله بقدر تلك الدرجة[(٢)].

فاضطراب الناس في فهم هذه الدرجات، وعدم الإلمام بها، جعل الناس في تخبط؛ فمنهم من غلا في التفويض، والرضى، والتسليم، والاعتماد على الله عز وجل، فكان نتيجة ذلك ترك الأسباب، وتعطيلها.

ومنهم من غلا في إثبات الأسباب ورعايتها والأخذ بها، فاعتمد عليها بالكلية، ووقع في الشرك. وهكذا فدرجات التوكل، لابد من الجمع بينها، وهي الأخذ بالأسباب، والاعتماد على الله عز وجل - مسببها - والرضى بما يحدث من عدم حصول المطلوب.

## علاقة التوكل بالأسباب :

من خلال عرض تعاريف التوكل، ودرجاته، ومعرفة أن التوكل اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضر مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها.

فيتضح أن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد، وكذلك من تمام الأسباب، لذلك كان الرسول ﷺ سيد المتوكلين، وآخذاً بالأسباب.

يقول ابن القيم: «إن من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبهاالله لمسبباتها قدرا وشرعا ، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه أكمل الخلق توكلا، وإنما كانوايلقون

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص ١٢٢ . بتصرف .

(٢) عبدالله الدميجي، التوكل على الله تعالى وعلاقته بالأسباب، ص١٥-٢٧ .

عدوهم، وهم متحصنون بأنواع السلاح ، ودخل رسول الله ﷺ مكة ، والبيضة على رأسه . . »أ. هـ[١] .

فأعظم التوكل الأخذ بالأسباب ، أسباب الهداية، وتجريد التوحيد ومتابعة الرسل، وجهاد أهل الباطل، كما قال ذلك ابن القيم : «فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل، فهذاتوكل الرسل وخاصة أتباعهم»أ. هـ[٢] .

فإذا نظرنا إلى هذا النص لابن القيم وجدنا تقرير الأسباب الشرعية والأخذ بها، من أعظم التوكل على الله عز وجل .

ويقول ابن تيمية : «وكذلك الدعاء والتوكل من أعظم الأسباب لما جعله الله سببا له فمن قال: ماقدر لي يحصل لي دعوت أولم أدع، وتوكلت أو لم أتوكل، فهو بمنزلة من يقول: ماقسم لي من السعادة والشقاوة فهو يحصل لي آمنت أو لم أؤمن، . . . ، وكذلك من ترك الأسباب المشروعة المأمور بها أمر إيجاب أوأمر استحباب من جلب المنافع أودفع المضار قادح في الشرع خارج عن العقل، ومن هنا غلطوا في ترك الأسباب المأمور بها، وظنوا أن هذا من تمام التوكل، والتوكل مقرون بالعبادة. في قوله تعالى: ﴿**فاعبده وتوكل عليه**﴾ «هود: ١٢٣» . والعبادة فعل المأمور ، فمن ترك العبادة المأمور بها، وتوكل لم يكن أحسن حالاً ممن عبده ولم يتوكل عليه بل كلاهما عاص لله تارك لبعض ماأمر به»أ. هـ[٣] .

وقد تكلمنا فيما سبق[٤] ، عن كيفية الأخذ بالأسباب، مع عدم الاعتماد عليها، وإنما مع التوكل والاعتماد على خالقها وموجدها ، وهو الله عز وجل .

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٤٨٠. - ابن أبي العز الحنفي، شرح الطحاوية، ص٢١٥.

(٢) ابن القيم، الفوائد، ص١١٣.

(٣) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص١٧٧.

(٤) راجع الفصل الثاني من هذا الباب .

واستشهدت على ذلك بآيات وأحاديث عدة . فخرجنا من ذلك بنتيجة وهي أن الموحد المتوكل ، لايلتفت إلى الأسباب ، بحيث الاعتماد عليها بالكلية ، فيؤدي به إلى الشرك . ولايهملها بدرجة الإسقاط من قيمتها التي جعلها الله عز وجل لها . وإنما يجمع بين الأمرين .

فالتوكل عبادة تصرف لله عز وجل وحده ، دون التوكل على غيره . وإنما يكون الإتيان والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله عز وجل وحده ، معتقدا أن الأمر كله بمشيئته وقدرته وعلمه وحكمه ، فالله عز وجل قدر لكل شيء سببا يؤخذ به للوصول إلى مسببه مع الاعتماد والتوكل على خالقها ، ومسببها وهو الله عز وجل ، إن شاء جعلها تفعل ، وإن شاء جعلها تتعطل ، ولا تنتج .

قال ﷺ : «احرص على ماينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز» أ. هـ[1] فأمره بالحرص ، والأخذ بالأسباب ، والاستعانة بخالقها وهو الله عز وجل ، وهذا ماقرره ابن القيم في مدارجه[2] .

فالجمع بين الأسباب ، والأخذ بها ، والتوكل كما سبق ، أمر مطلوب شرعا كما ورد في الآيات الكريمات والأحاديث الشريفة التي منها :

١ - قال تعالى : **﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وماكان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون * وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرنّ على ماآذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾** «إبراهيم : ١١-١٢» .

في هذه الآية يخاطب الرسل عليهم السلام أقوامهم بأن التوكل على الله عز وجل أمر مطلوب ، لأن مسبب سبب الهداية هو الله عز وجل ، ولم يمنع هذا رسل الله عليهم

---

(١) سبق تخريجه ص ١٥٦ .

(٢) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج٣ ، ص٥٠١ .

السلام من الأخذ بالأسباب من الصبر على الأذى من أقوامهم، والأخذ بالحيطة والحذر، وأسباب الدعوة، والدعاء، وطلب العون من الله عز وجل بالتقرب إليه بالطاعات .

٢ - قال تعالى : **﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم * إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** «آل عمران : ١٢١-١٢٢» .

هذه الآية تتحدث عن معركة أحد، وكيف أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب في تجهيز الجيش .

٣ - قال تعالى : **﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾** «النحل : ٤٢» .

أي : صبروا على أقوامهم، واذاهم متوكلون على الله عز وجل في تيسير أمورهم في الدعوة، وفي الصبر عليها . فالآيات السابقات وغيرها مما سبق ذكره، دليل على اجتماع التوكل مع الأسباب ، وعلاقتهما ببعضهما ببعض، بحيث لايحصل توكل إلا بالأخذ بالأسباب، وإلاأصبح تواكلاً، ولا أسباب بدون توكل على خالقها، وإلا أصبح شركاً .

٤ - قال تعالى : **﴿ . . . وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾ إلى قوله ﴿وخذوا حذركم... الآية﴾** «النساء : ١٠٢» .

قال تعالى : **﴿وأعدوالهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل...الآية﴾** «الأنفال : ٦٠» .

قال تعالى : **﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله... الآية﴾** «الجمعة : ١٠» .

يقول ابن رجب : « . . واعلم أن تحقيق التوكل لاينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل

بالقلب عليه إيمان به، . . . ، وقال سهل التستري(*) : من طعن في الحركة : يعني في السعي والكسب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته»أ. هـ[١].

٥ - عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كمايرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً». أ. هـ[٢].

هذاالحديث دليل على التوكل مع الأخذ بالأسباب، فلم تجلس الطيور في أعشاشها تنتظر الرزق يأتي إليها من السماء، ولكنها غدت وراحت إلى ذلك، ومن ذلك، حتى حصلت على ماقدر لها من الرزق، وأعانها الله عز وجل على ذلك، فالفهم الخاطئ للحديث أن يتكل الإنسان على الله عز وجل في طلب الرزق بدون سعي مستشهداً بهذا الحديث، وهو لايفهم معناه. فقد سبق توضيح معانيه، وأقوال العلماء فيه، وأن السعي مطلوب مع التوكل على الله عز وجل، وليس الاتكال والتواكل. والله أعلم.

٦ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وماشاء فعل، فإن لو تفتح باب الشيطان»أ. هـ[٣].

---

(*) سهل بن عبدالله بن يونس التستري، أبومحمد، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم، والمتكلمين في علوم الإخلاص، والرياضيات، وعيوب الأفعال. له كتاب في «تفسير القرآن»، «وكتاب رقائق المحبين»، وغير ذلك. ولد سنة ٢٠٠هـ، وتوفي سنة ٢٨٣هـ. «شذرات الذهب، ج٢، ص١٨٢. - حلية الأولياء، ج١٠، ص١٨٩-٢١٢. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص٣٣٠. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص١٤٣».

(١) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ص٤٣٦.

(٢) سبق تخريجه، وشرحه، ص ١٥٩ .

(٣) سبق تخريجه ص ١٥٦ .

يقـول ابن رجب بعـد ذكـر هذاالحـديث ، وأحـاديث أخـرى في نفس الشـأن :
« . . . . ومعناه أن الإنسان يأخذ بالكيس والسعي في الأسباب المباحة ويتوكل على الله بعد سعيه ، وهذا كله إشارة إلى أن التوكل لاينافي الإتيان بالأسباب بل يكون جمعها أفضل .
قال معاوية بن قرة(*) : لقي عمر بن الخطاب ناسا من أهل اليمن . فقال : من أنتم؟ قالوا : نحن المتوكلون ، قال : بل أنتم المتأكلون ، إنما المتوكل الذي يلقى حبه في الأرض ويتوكل على الله(**) . . . . »أ. هـ[1] .

**مسألة :**

عن حصين بن عبدالرحمن(***) قال : «كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت : أنا ، ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة . ولكني لدغت ، قال : فما صنعت؟ قلت : ارتقيت . قال : فما حملك على ذلك؟ قلت : حديث

---

(*) معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رئاب ، الإمام العالم الثبت أبوإياس المزني البصري والد القاضي إياس المزني . وثقه ابن معين ، والعجلي ، وأبوحاتم ، وابن سعد ، والنسائي . ولد يوم الجمل ، ومات سنة ١١٣هـ قاله ابن خياط ، وقال ابن معين : مات سنة ٧٦هـ . «انظر : شذرات الذهب ، ج١ ، ص١٤٧ . - سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ج٥ ، ص١٥٣-١٥٥» .
(**) رواه الخلال في الحث على التجارة ، رقم «١٠٣» برواية ابن عباس . - ورواه البيهقي في الشعب ، ج٢ ، ص٨١ ، برقم «١٢١٥» . - ورواه ابن أبي الدنيا في التوكل ، برقم «١١» ، ص٥٩ .
قال أبو عبدالله الحداد محقق كتاب الحث على التجارة للخلال : إسناده ضعيف ، رواه العسكري في الأمثال ، وعلقه البيهقي في شعب الإيمان . وقال سالم بن أحمد بن عبدالهادي السلفي محقق كتاب التوكل لابن أبي الدنيا : رجاله ثقات . إلا أن فيه انقطاعا ، فمعاوية لم يدرك عمر حيث أنه ولد سنة ٣٧هـ بينما توفى عمر سنة ٢٣هـ .
(١) ابن رجب ، جامع العلوم والحكم ، ص٤٤٠ .
(*) حصين بن عبدالرحمن الحافظ الحجة المعمر أبوالهذيل السلمي الكوفي . قال أحمد بن حنبل : حصين بن عبدالرحمن الثقة المأمون من كبار أصحاب الحديث ، وقال ابن معين : ثقة ، وغير ذلك من الأقوال . ولد سنة ٤٣هـ في زمن معاوية ، ومات سنة ١٣٦هـ . «سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ج٥ ، ص٤٢٢-٤٢٤» .

حدثناه الشعبي(*)، قال: وماحدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب(**) أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة، قال قد أحسن من انتهى إلى ماسمع. ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ﷺ ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد. إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي. فقيل لي: هذاموسى وقومه، فنظرت فإذاسواد عظيم، فقيل لي: هذا أمتك. ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

ثم نهض فدخل منزله. فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا. وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه. فقال: «هم الذين لايسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون». فقام عكاشة بن محصن(***) فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة»أ. هـ[1].

هذا الحديث قد اختلف فيه كثير من الناس، فالصوفية جعلوه ذريعة لترك الأسباب، وان هذا الحديث وصف لهم، وابن تيمية فهم الحديث على النهي عن الطلب.

---

(*) عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي الحميري، أبو عمرو: رواية، من التابعين، يضرب المثل بحفظه. اتصل بعبدالملك بن مروان، فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم. وسئل عما بلغ إليه حفظه، فقال: ماكتبت سوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته. وهو من رجال الحديث. ولد سنة ١٩هـ، وتوفي سنة ١٠٣هـ. «انظر: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٢٩٤. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٢٥١».

(**) بريدة بن حصيب بن عبدالله بن الحارث الأسلمي، من أكابر الصحابة، أسلم قبل بدر، ولم يشهدها. وشهد خيبر، وفتح مكة، واستعمله النبي ﷺ على صدقات قومه، وسكن المدينة، وانتقل إلى البصرة، مات سنة ٦٣هـ بمرو. «الإستيعاب، ج١، ص١٧٣. - الإصابة، ج٢، ص١٤٦. - الأعلام، للزركلي، ج٢، ص٥٠».

(***) عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي، من بني غنم، صحابي من أمراء السرايا. يعد من أهل المدينة. شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، توفي سنة ١٢هـ قتل في حرب الردة ببزاخة بأرض نجد، قتله طليحة بن خويلد الأسدي. «الاستيعاب، ج٣، ص١٥٥-١٥٧. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٣٠٧. - الإصابة، ج٢، ص٤٩٤-٤٩٥. - الأعلام، للزركلي، ج٤، ص٢٤٤».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، ج٧، ص١٩٨-٢٠٠.

وأحمد بن حنبل جعل ترك التداوي أفضل، وابن القيم ذكر أربعة أنواع لأحاديث الكي: منها الكراهة، ومنها الأفضل تركه، ومنها فعله، ومنها النهي عنه. ففي هذا المبحث نريد أن نعرف رأي العلماء في هذا الحديث وحل الإشكال الوارد في فهم الحديث:

يقول النووي: «اختلف العلماء في معنى الحديث:

١ - فقال الإمام أبوعبدالله المازري(*): احتج بعض الناس بهذا الحديث على أن التداوي مكروه، ومعظم العلماء على خلاف ذلك واحتجوا بما وقع في أحاديث كثيرة من ذكره ﷺ لمنافع الأدوية، والأطعمة كالحبة السوداء والقسط والصبر وغير ذلك(**)، وبأنه ﷺ تداوى، وبإخبار عائشة رضي الله عنها بكثرة تداويه وبما علم من الاستشفاء برقاه، وبالحديث الذي فيه أن بعض الصحابة أخذوا على الرقية أجرا(***)، فإذا ثبت هذا حمل مافي الحديث على قوم يعتقدون أن الأدوية نافعة بطبعها ولايفوضون الأمر إلى الله تعالى»أ. هـ[1].

---

(*) محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، أبوعبدالله: محدث، من فقهاء المالكية. له عدة مصنفات منها «المعلم بفوائد مسلم» في الحديث، و«التلقين» في الفروع، و«الكشف والإنباء» في الرد على الإحياء للغزالي. وغيرها. ولد سنة ٤٥٣هـ بمازر بجزيرة صقلية، وتوفي سنة ٥٣٦هـ بالمهدية. «انظر: سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص١٠٤. - الأعلام، للزركلي، ج٦، ص٢٧٧».

(**) راجع ص ٩٩ - ١٠١ من هذا البحث.

(***) عن أبي سعيد الخدري أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر فمروا بحي من أحياء العرب فاستضافوهم فلم يضيفوهم. فقالوا لهم هل فيكم راق؟ فإن سيد الحي لديغ أو مصاب فقال: رجل منهم نعم، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب فبرأ الرجل فأعطى قطيعا من غنم فأبى أن يقبلها. وقال حتى أذكر ذلك للنبي ﷺ فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال يارسول الله والله مارقيت إلا بفاتحة الكتاب. فتبسم وقال: ومادراك أنه رقية؟ ثم قال: خذوا منهم واضربوا لي بسهم معكم» «أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجر على الرقية بالقرآن والإذكار، ج٤، ص١٧٢٧».

(١) النووي، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، ج١، ص٤٩٢.

٢ - يقول القاضي عياض : «قد ذهب إلى هذا التأويل - أي السابق - غير واحد ممن تكلم على الحديث، ولا يستقيم هذا التأويل وإنما أخبر ﷺ أن هؤلاء لهم مزية وفضيلة يدخلون الجنة بغير حساب، وبأن وجوههم تضيء إضاءة القمر ليلة البدر، ولو كان كما تأوله هؤلاء لما اختص هؤلاء بهذه الفضيلة، لأن تلك هي عقيدة جميع المؤمنين، ومن اعتقد خلاف ذلك كفر. . . »أ. هـ[(١)].

٣ - يقول أبوسليمان الخطابي[(*)] : «إن المراد من تركها توكلا على الله تعالى ورضاء بقضائه وبلائه، . . . وهذه من أرفع درجات المحققين بالإيمان»أ. هـ[(٢)].

٤ - يقول القاضي عياض : «وهذا ظاهر الحديث ومقتضاه - أي قول الخطابي - أنه لافرق بين ماذكر من الكي والرقي وسائر أنواع الطب. »أ. هـ[(٣)].

٥ - ويقول الداودي[(**)] : «المراد بالحديث الذي يفعلونه في الصحة فإنه يكره لمن

---

(١) النووي، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، ج١، ص٤٩٢.

(*) حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، أبوسليمان، فقيه محدث، له عدة مؤلفات منها «معالم السنن»، و«بيان إعجاز القرآن»، «تفسير أحاديث الجامع الصحيح للبخاري». ولد سنة ٣١٩هـ من أهل بست من بلاد كابل من نسل زيد بن الخطاب أخي عمر بن الخطاب، وتوفي سنة ٣٨٨هـ في بست في رباط على شاطيء هيرمند. « انظر : سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص٢٣. - الأعلام، للزركلي، ج٢، ص٢٧٣».

(٢) النووي، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، ج١، ص٤٩٢.

(٣) نفس المصدر.

(**) عبدالرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ الداوودي، البوشنجي، أبوالحسن، الإمام العلامة الورع، القدوة، جمال الإسلام، قال ابن النجار : كان من الأئمة الكبار في المذهب، ثقة، عابدا، محققا، درس وأفتى، وصنف ووعظ. جاء إلى بغداد سنة ٣٩٩هـ، وولد سنة ٣٧٤هـ، وتوفي سنة ٤٦٧هـ ببوشنج بالقرب من هراة. «انظر : شذرات الذهب، ج٣، ص٣٢٧. - سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج١٨، ص٢٢٢-٢٢٦».

ليست به علة أن يتخذ التمائم ويستعمل الرقى، وأمامن يستعمل ذلك ممن به مرض فهو جائز»أ. هـ[١].

٦ - يقول النووي: «وذهب بعضهم إلى تخصيص الرقى والكي من بين أنواع الطب لمعنى وأن الطب غير قادح في التوكل، وإذا تطبب رسول الله ﷺ والفضلاء من السلف، وكل سبب مقطوع به كالأكل والشرب للغذاء والري لايقدح التوكل عند المتكلمين في هذا الباب، ولهذا لم ينف عنهم التطبب، ولهذا لم يجعلوا الاكتساب للقوت وعلى العيال قادحا في التوكل إذ لم يكن ثقته في رزقه باكتسابه وكان مفوضا في ذلك كله إلى الله تعالى، والكلام في الفرق بين الطب والكي يطول، وقد أباحهما النبي ﷺ وأثنى عليهما، لكني أذكر منه نكته تكفي وهو أنه ﷺ تطبب في نفسه وطبب غيره، ولم يكتو وكوى غيره، ونهى في الصحيح عن الكي وقال: ماأحب أن أكتوي[*]، هذا آخر كلام القاضي، والله أعلم..»أ. هـ[٢].

والنتيجة من جميع هذه الأقوال عند النووي هي: «..والظاهر من معنى الحديث مااختاره الخطابي ومن وافقه كما تقدم، وحاصله أن هؤلاء كمل تفويضهم إلى الله عز وجل فلم يتسببوا في دفع ماأوقعه بهم، ولا شك في فضيلة هذه الحالة ورجحان صاحبها، وأما تطبب النبي ﷺ ففعله ليبين لنا الجواز. والله أعلم..»أ. هـ[٣].

---

(١) النووي، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، ج١، ص٤٩٢.

(*) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، ج٧، ص١٢.

(٢) النووي، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، ج١، ص٤٩٣.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٤٩٣.

وهناك أقوال أخرى لم يذكرها النووي في شرحه للحديث وهي :

يقول ابن تيمية : «وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب»، وقال : «هم الذين لايسترقون ولايكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» فمدح هؤلاء بأنهم لايسترقون، أي لايطلبون من أحد أن يرقيهم . والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك . وقد روى فيه «ولايرقون» وهو غلط ، فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة ، وكان النبي ﷺ يرقي نفسه وغيره(*) . ولم يسترقِ ، فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره ، وهذا مأمور به ، فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك في قصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم»أ. هـ[1] .

من قول ابن تيمية نستنتج :

١ - أن المقصود بالحديث الذين يطلبون الرقية .

٢ - إن الرقية للغير - من غير طلب - وللنفس حسنة .

يقول ابن حجر : « . . . . .

١ - يقول القرطبي(**) في الرد على مقولة من قال إن استعمال الرقى والكي قادح في التوكل بخلاف سائر أنواع الطب، وفرق بين القسمين : بأن البرء فيها أمر موهوم وماعداهما محقق عادة كالأكل والشرب فلا يقدح فيقول : « . . هذافاسد من وجهين :

---

(*) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الرقى بالقرآن والمعوذات، ج٧، ص٢٢ . - وكذلك باب رقية النبي ﷺ ، ص٢٤ .

(١) ابن تيمية، الفتاوي، ج١، ص١٨٢ .

(**) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبوعبدالله ، القرطبي، من كبار المفسرين، صالح متعبد. له عدة مصنفات منها : «الجامع لأحكام القرآن»، «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، «التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة»، من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب في شمال أسيوط بمصر، وتوفي فيها سنة ٦٧١هـ. «الأعلام، للزركلي، ج٥، ص٣٢٢».

أحدهما أن أكثر أبواب الطب موهوم، والثاني أن الرقى بأسماء الله تعالى تقتضي التوكل عليه والالتجاء إليه والرغبة فيما عنده والتبرك بأسمائه، فلو كان ذلك قادحا في التوكل لقدح الدعاء إذ لا فرق بين الذكر والدعاء، وقد رقى النبي ﷺ ورقي وفعله السلف والخلف، فلو كان مانعا من اللحاق بالسبعين أو قادحا في التوكل لم يقع من هؤلاء وفيهم من هو أعلم وأفضل ممن عداهم»أ. هـ[١].

٢ - ويقول أبوالقاسم القشيري[*]: «التوكل محله القلب، وأما الحركة الظاهرة فلا تنافيه إذا تحقق العبد أن الكل من قبل الله، فإن تيسّر شيء فبتيسيره وإن تعسر فبتقديره»أ. هـ[٢].

والنتيجة من هذه الأقوال عند ابن حجر هي: « . . . إن الجمهور قالوا: يحصل التوكل بأن يثق بوعد الله، ويوقن بأن قضاءه واقع، ولايترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لابد له منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه بل يعتقد أنها لاتجلب بذاتها نفعا ولا تدفع شرا، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح في توكله. . . »أ. هـ[٣].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون الفا بغير حساب، ج١١، ص٤١٧-٤١٨.

(**) عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة النيسابوري القشيري، أبوالقاسم، شيخ خراسان في عصره، زاهدا وعالماً بالدين، له عدة مصنفات منها «التفسير الكبير»، «لطائف الأشارات»، «الرسالة القشيرية»، ولد سنة ٣٧٦هـ، وتوفي سنة ٤٦٥هـ بنيسابور. «شذرات الذهب، ج٣، ص٣١٩.- وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص٢٢٧.- الأعلام، للزركلي، ج٤، ص٥٧».

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، ج١١، ص٤١٧-٤١٨.

(٣) المصدر نفسه .

ويقول الشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ : «واعلم أن الحديث لايدل على أنهم لايباشرون الأسباب أصلا كما يظنه الجهلة - يقصد بعض الصوفية - فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى : ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ «الطلاق : ٤» . أي : كافيه، إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلاً على الله، كالاسترقاء والاكتواء فتركهم له ليس لكونه سبباً لكن لكونه سبباً مكروها، لاسيما والمريض يتشبث بما يظنه سببا لشفائه بخيط العنكبوت . أما نفس مباشرة الأسباب، والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعاً كما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً : «ماأنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»(*) وعن أسامة بن شريك قال : كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا : يارسول الله ﷺ ! أنتداوى؟ فقال : نعم ياعباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داءاً إلا وضع له شفاء، غير داء واحد قالوا : ماهو ؟ قال «الهرم»(**) . . . »أ. هـ[1] .

والنتيجة التي خرج بها الشيخ سليمان :

١ - إن الترك في الحديث بمعنى ترك الأمور المكروهة .

٢ - إن الأمور غير المكروهة في الرقى لا بأس بها .

ويقول ابن القيم بعد أن عرض أحاديث عدة في الكي، من إباحة، وكراهية، ونهي، وبين مافيها من اشكال : «فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع، أحدها : فعله، والثاني، عدم محبته، والثالث : الثناء على من تركه، والرابع : النهي عنه، ولا تعارض

---

(*) سبق تخريجه ، ص ٩٥ .

(**) سبق تخريجه ، ص ٩٥ .

(١) الشيخ سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب ، تيسير العزيز الحميد ، ص١٠١-١١٣ .

بينها بحمد الله تعالى ، فإن فعله يدل على جوازه ، وعدم محبته له لايدل على المنع منه ، وأما الثناء على تاركه ، فيدل على أن تركه أولى وأفضل . وأما النهي عنه ، فعلى سبيل الاختيار والكراهة ، أو عن النوع الذي لايحتاج إليه ، بل يفعل خوفاً من حدوث الداء ، والله أعلم» أ . هـ[1] .

بعد عرضنا لأقوال العلماء ونتائج أقوالهم تبين لنا :

١ - إن العلماء اختلفوا في هذا الحديث بسبب نظر بعضهم إلى الرقى والكي بأنها أسباب ، قد أمر الشرع بإتخاذها كسائر الأسباب ، وفي تعطيلها قدح في العقل والشرع ، أي أنهم قاسوا هذين السببين على غيرهم من الأسباب .

٢ - إن العلماء نظروا إلى الرقى والكي بنظرة عامة ، من حيث أنها أسباب ويجب اتخاذها ، كسائر الأسباب ، ولم ينظروا إلى الحديث من حيث إنه خاص بهما ، ليس بغيرهما من الأسباب .

٣ - أن بعض العلماء جعلوا يبحثون في الكي ، وكراهيته ، فجعلوا ذلك هو السبب في ترك الكي لهؤلاء الممدوحين في الحديث ، ونسي أن يبحث عن دليل على ترك الرقى .

٤ - إن الحد الفاصل في هذه القضية هو ماأوضحه النووي وتوصل إليه بعد عرض أقوال بعض العلماء ، وهو أن الكي والرقى ، وسائر أنواع الطب ، من تركها توكلا على الله ورضاء بقضائه وبلائه ، فهو من أرفع الدرجات حتى استحقوا بها هذه المزية من دخول الجنة بغير حساب . فهؤلاء كمل تفويضهم إلى الله عز وجل فلم يتسببوا في دفع ماأوقعه بهم ، ولاشك في فضيلة هذه الحالة ورجحان صاحبها ، وأما تطبب النبي ﷺ ففعله ليبين الجواز .

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ، ج٤ ، ص٦٣-٦٦ .

فهذا الحديث خاص بالطب، والتداوي، ولاينافي الأخذ بالتداوي والأسباب الأخرى، بل هو مزية لمن أراد . والله أعلم.

أما من ترك الأسباب، وعطلها تعطيلا كاملا فهؤلاء متواكلون، وليسوا بمتوكلين .

**مسألة :**

اختلف العلماء في مسألة التداوي هل هو مباح وتركه أفضل، أو مستحب، أو واجب؟!!

١ - فالمشهور عن الإمام أحمد أنه مباح وتركه أفضل .

٢ - والمشهور عند الشافعي أنه مستحب .

٣ - ومذهب أبي حنيفة(*) مؤكد حتى يداني به الوجوب . أي كاد أن يكون واجبا عنده .

٤ - وأما مالك رضي الله عنه فيستوي عنده الفعل والترك . »أ. هـ[١] .

هذا هو حكم التداوي في الجملة، فما حكمه على التفصيل ؟!

حكم التداوي على التفصيل هو كمايلي :

١ - أن ماعلم، أو غلب على الظن نفعه مع احتمال الهلاك بعدمه، فهو واجب[٢] .

٢ - أن ماغلب على الظن نفعه، ولكن ليس هناك هلاك محقق بتركه فهو أفضل[٣] .

---

(*) النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي، أبوحنيفة: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، كان قوي الحجة، من أحسن الناس منطقا، وقال عنه الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة، له عدة مصنفات: منها «الفقه الأكبر»، «المسند»، «المخارج» في الفقه. ولد سنة ٨٠هـ بالكوفة، وتوفي سنة ١٥٠هـ مات في حبسه في عهد المنصور العباسي، لأنه رفض القضاء. «انظر: سير أعلام النبلاء، ج٦، ص٣٩٠. - الأعلام، للزركلي، ج٨، ص٣٦».

(١) سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب، تيسير العزيز الحميد، ص١١١-١١٢ .

(٢) ابن عثيمين، الشرح الممتع على زاد المستقنع، تحقيق، أباالخيل، والمشيقح، ج٥، ص٢٩٨-٣٠٢ .

(٣) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٩٨-٣٠٢ .

٣ - أن ماتساوى فيه الأمران فتركه أفضل، لئلا يلقى الإنسان بنفسه إلى التهلكه من حيث لايشعر[١].

٤ - أن ماورد الدليل بكراهيته، كالاكتواء، فهو مكروه، وتركه أفضل[٢].

٥ - أن ماورد الدليل بحرمته، فالواجب تركه، كالخمر مثلا[٣].

والأصل في التداوي:

الجواز، كما سبق أن ذكرنا[٤]، وأنه من هديه ﷺ، في فعله، وقوله - أمره -، وتقريره. والله أعلم.

---

(١) المصدر السابق، ج٥، ص٢٩٨-٣٠٢.

(٢) راجع ص ٢٠٣ من هذا الفصل. - سبق تخريج حديث الاكتواء ص ٢٠٣.

(٣) عن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي ﷺ عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء فقال: إنه ليس بدواء ولكنه داء. «أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب تحريم التداوي بالخمر، ج٤، ص٦٦٦».

(٤) راجع الفصل الأول من هذا الباب.

# المبحث الثاني

# الأسباب والقدر

# عند أهل السنة والجماعة

١ - تمهيد :

أ - التعريف في اللغة .

ب - التعريف في الاصطلاح .

٢ - علاقة القدر بالأسباب .

# القدر وعلاقته بالأسباب

لكي نعرف علاقة القدر بالأسباب لابد من معرفة القدر في اللغة والاصطلاح.

## تعريف القدر في اللغة :

القدر : القضاء والحكم، وهو مايقدره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور، وهو ماقاله ابن سيده.

ولذا قيل القدير والقادر : من صفات الله عز وجل يكونان من القدرة ، ويكونان من التقدير. وقوله تعالى : ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾ ، من القدرة، فالله - عز وجل - على كل شيء قدير، والله سبحانه مقدر كل شيء وقاضيه.

والتقدير : الجعل والصنع، ومنه قوله تعالى : ﴿**وقدره منازل**﴾ أي جعل له، وكذا قوله تعالى : ﴿**وقدر فيها أقواتها**﴾ . والتقدير أيضا العلم والحكمة.

قال أبومنصور(*) : وتقدير الله الخلق تيسيره كلا منهم لما علم أنهم صائرون إليه من السعادة والشقاء، وذلك أنه علم منهم قبل خلقه إياهم، فكتب علمه الأزلي السابق فيهم وقدره تقديرا، وقدر الله عليه ذلك يقدره ويقدره قدرا وقدرا، وقدره عليه وله.

والقدر : الشرف، والعظمة، والتزيين، وتحسين الصورة، وبه فسر قوله تعالى : ﴿**فقدرنا فنعم القادرون**﴾ أي : صورنا فنعم المصورين»أ. هـ[1] .

---

(*) أبو منصور : هو الأزهري، وقد سبق ترجمته ص ٥٠ .

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة: ق . د. ر، ج١١ ، ص٥٥-٦٠ . - الزبيدي، تاج العروس، مادة ق. د. ر، ج١٣ ، ص٣٧٠-٣٨٣.

## اصطلاحا :

يقول السفاريني[*] : «إن القدر عند السلف ماسبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد. وأنه عز وجل قدر مقادير الخلائق ومايكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ماقدرها. . .»أ. هـ[1].

ويقول ابن حجر: «. . . والمراد - أي بالقدر - أن الله تعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد ماسبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته، هذا هو المعلوم من الدين بالبراهين القطعية»أ. هـ[2].

وذكر القدر عند الشافعي رحمه الله فأنشأ يقول :

«ماشئت كان وإن لم أشاء ... وما شئت إن لم تشاء لم يكن
خلقت العباد على ماعلمت ... ففي العلم يجري الفتى والمسن
على ماذا امنت وهذا خذلت ... وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنه حسن .»أ. هـ[3]

---

(*) محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، شمس الدين، أبوالعون، عالم بالحديث والأصول والأدب، محقق، رحل إلى دمشق وأخذ عن علمائها. وعاد إلى نابلس فدرس وأفتى، له عدة مصنفات منها: «كشف اللثام، شرح عمدة الأحكام»، «لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية المضية في عقد أهل الفرقة المرضية»، «تحبير الوفا في سيرة المصطفى»، ولد سنة ١١١٤هـ بسفارين من قرى نابلس، وتوفي سنة ١١٨٨هـ بنابلس. «انظر: مختصر طبقات الحنابلة، ص١٤٠-١٤٣. - الأعلام، للزركلي، ج٦، ص١٤».

(١) السفاريني، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية، تعليق: عبدالرحمن أبابطين، وسليمان بن سحمان، ج١، ص٣٤٨.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ج١، ص١٤٥.

(٣) اللالكائي، شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق: أحمد بن سعد الغامدي، ج٤، ص٧٧٧.

وللقدر مراتب يعرف من خلالها علاقة القدر بالأسباب وهي كالتالي :

## أولاً : مرتبة العلم(*) :

وهي العلم السابق، المحيط بجميع الأشياء، فكل مايقع ويوجد من أعيان وأوصاف ويقع من أفعال وأحداث وأسباب، ومسببات فهو مطابق لما علمه الله عز وجل أزلاً .

فالله عز وجل علم الأمور على ماهي عليه، وقد علم أن للأشياء أسبابا تكون بها، فعلم أن السعيد يسعد بالطاعة، والشقي يشقى بالمعصية، والزرع ينبت بما يسقيه من الماء، ويبذر من الحب، والماء يروي، والأكل يشبع . . . وغير ذلك. وهذا ماقاله ابن تيمية : «وذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ماهي عليه، وقد جعل للأشياء أسبابا تكون بها، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ امرأة فيحبلها، فلو قال هذا : إذا علم الله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطء كان أحمق، لأن الله علم أن سيكون بما يقدره من الوطء، وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له بالزرع بما يسقيه من الماء ويبذر من الحب، فلو قال : إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر، كان جاهلا ضالا، لأن الله علم أن سيكون بذلك وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل، وهذا يروي بالشرب، وهذا يموت بالقتل، فلابد من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها . »أ. هـ[1] .

ويقول أيضاً بالنسبة للآخرة مثل ذلك : «وكذلك إذا علم أن هذا يكون سعيدا في الآخرة، وهذا شقيا في الآخرة، قلنا : ذلك لأنه يعمل بعمل الأشقياء، فالله علم أنه يشقى

---

(*) انظر : ابن تيمية، العقيدة الواسطية، شرح محمد خليل هراس، ص١٣٠-١٣١ . - ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ص٦٦-٨٧ .

(١) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص٦٨ .

بهذا العمل، فلو قيل: هو شقي، وإن لم يعمل كان باطلا، لأن الله لايدخل النار أحدا إلا بذنبه، . . . ، ولايعاقب الله العبد على ماعلم أنه يعمله حتى يعمله.»أ. هـ[١].

فهذه مرتبة العلم وصلتها بالأسباب، وهي أن الله عز وجل، علم بالأسباب، والمسببات من الأزل، وهي جارية وفق علمه، ولايمنع علمه العمل بها.

## ثانياً : مرتبة الكتابة(*) :

مرتبة الكتابة تأتي بعد مرتبة العلم السابقة، فالله عز وجل علم ثم كتب هذا العلم في اللوح المحفوظ. فما علم الله كونه، ووقوعه من مقادير الخلائق، وأصناف الموجودات، ومايتبع ذلك من الأحوال، والأوصاف، والأفعال، والأسباب والمسببات، ودقيق الأمور، وجليلها قد أمر القلم بكتابته إلى يوم القيامة.

يقول ابن تيمية: «فجميع الأسباب قد تقدم علم الله بها وكتابته لها، وتقديره إياها، وقضاؤه بها، كما تقدم ربط ذلك بالمسببات، كذلك أيضا الأسباب التي بها يخلق النبات من إنزال المطر وغيره من هذا الباب . . . . فجميع ذلك مقدور معلوم، مقضي مكتوب قبل تكوينه، فمن ظن أن الشيء إذا علم وكتب أنه يكفي ذلك في وجوده ولايحتاج إلى مابه يكون من الفاعل الذي يفعله وسائر الأسباب، فهو جاهل ضال ضلالاً مبينا. . .»أ. هـ[٢].

## ثالثاً : مرتبة المشيئة(**) :

وهي مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة الله وحده فما شاء كان، ومالم يشأ لم يكن، وأنه مافي السموات وما في الأرض

---

(١) المصدر السابق، ج٨، ص٦٩.

(*) ابن القيم، شفاء العليل، ص١٢. - الهراس، شرح العقيدة الواسطية، ص١٣١.

(٢) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص٢٧٧.

(**) ابن القيم، شفاء العليل، ص٩٦. - الهراس، شرح العقيدة الواسطية، ص١٣٣.

من حركة، ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى، ولايكون في ملكه مالايريد، وأنه على كل شيء قدير.

فالأسباب والمسببات خلق لله عز وجل، علم بها، وكتبها، فهي من سنن الله عز وجل الكونية، إن شاء أنفذها، وإن شاء منعها.

فمن قال: إن هناك أسباباً موجبة بذاتها فقد افترى على الله عز وجل، فلابد من تنفيذ أمر الله عز وجل الشرعي في الأخذ بالأسباب، مع الاعتماد والتوكل عليه، لأن حدوثها، وإنتاجها بمشيئته سبحانه وتعالى، وقد سبق توضيح ذلك أثناء الحديث عن الأمر باتخاذ الأسباب، مع الاعتماد على الله عز وجل، وعدم الاعتماد عليها بالكلية.

يقول ابن تيمية: «. . . فالله سبحانه وتعالى هو خالق الأسباب كلها سواء كانت الأسباب حركة حي باختياره وقصده، كما يحدثه تعالى بحركة الملائكة والجن والإنس والبهائم، أو حركة جماد بما جعل الله فيه من الطبع، أو بقاسر يقسره كحركة الرياح والمياه ونحو ذلك، فالله خالق ذلك كله، فإنه لاحول ولا قوة إلا به، وماشاء كان ومالم يشأ لم يكن، فالرجاء يجب أن يكون كله للرب والتوكل عليه والدعاء له، فإنه إن شاء ذلك ويسره كان متيسراً، ولو لم يشأ الناس، وان لم يشاء ولم ييسره لم يكن، وإن شاءه الناس. . . »أ. هـ[١].

وللفهم الخاطئ للمشيئة الإلهية، وعدم التفرقة بين الإرادة الكونية، والإرادة الشرعية[*] وقع كثير من الناس في الخطأ عند التعامل مع الأسباب.

---

(٢) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص١٦٦.

(*) الإرادة الشرعية:

الإرادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضا، كقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل مالايريده الله، أي لايحبه ولايرضاه ولا يأمر به.

==

فمنهم من نفى تأثيرها(*)، ومنهم من تركها بالكلية(**)، ومنهم من اعتمد عليها بالكلية(***).

لذلك يقول ابن تيمية: «ولهذا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، ومجرد الأسباب لايوجب حصول المسبب، فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافيا في حصول النبات، بل لابد من ريح مربية بإذن الله، ولابد من صرف الانتفاء عنه، فلابد من تمام الشروط، وزوال الموانع وكل ذلك بقضاء الله وقدره، وكذلك الولد لايولد بمجرد إنزال الماء في الفرج، بل كم من إنزال ولم يولد له، بل لابد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيه في الرحم، وسائر مايتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع.

وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي سبب، . . . ، بل لابد من عفو الله وفضله ورحمته . . . »أ. هـ[1].

فمع عمومية مشيئة الله عز وجل للخلق، إلا أن ذلك لاينافي حرية العبد،

---

== والإرادة الكونية:

هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث، كقوله تعالى ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء﴾ «الأنعام: ١٢٥». والإرادة الكونية هي الإرادة المذكورة في قول المسلمين «ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن».

«ابن أبي العز الحنفي، شرح الطحاوية، ص٥٣-٥٤»، ابن القيم، شفاء العليل، ص٩٦-١٠٨».

(*) الذين نفوا تأثيرها هم: الأشاعرة، وسيأتي شرح لهذا المذهب إن شاء الله في الباب الثاني.

(**) الذين تركوها بالكلية هم: الصوفية، وسيأتي شرح لهذا المذهب إن شاء الله في الباب الثاني.

(***) الذين اعتمدوا عليها بالكلية: الفلاسفة والمعتزلة، وسيأتي شرح لهذين المذهبين إن شاء الله في الباب الثاني.

(١) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص٧٠.

واختياره للفعل، ولهذا جمع الله بين المشيئتين بقوله: ﴿**لمن شاء منكم أن يستقيم * وماتشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾ «التكوير: ٢٨-٢٩».

فنجد من خلال ماسبق، أن باب المشيئة باب واسع، لذلك نكتفي بالقول: إن الأسباب الشرعية من الطاعات الموصلة إلى الجنة أرادها الله عز وجل إرادة شرعية، والأمر باتخاذ هذه الأسباب أيضا مراد لله إرادة شرعية، وأما الأسباب الموصلة إلى النار من المعاصي فهي مرادة لله تعالى إرادة كونية، والأسباب الكونية الأخرى كلها أرادها الله عز وجل وشاءها بمشيئته النافذة. من نزول للمطر، وجريان للفلك... وهكذا.

## رابعاً: مرتبة الخلق(*):

من خلال المرتبة السابقة، وهي مرتبة المشيئة، تطرقنا للمرتبة الرابعة وهي مرتبة الخلق، فالله عز وجل خالق كل شيء في السموات، أو في الأرض، لا خالق لها سواه. فجميع مافي الكون من الموجودات، والكائنات، والحركات، والسكنات، والأنظمة الكونية خلق لله عز وجل.

وما الأسباب والمسببات إلا جزء من هذه المخلوقات، وهذه الأنظمة الكونية.

يقول ابن تيمية: «والله سبحانه خلق الأسباب والمسببات، وجعل هذا سببا لهذا، فإذا قال القائل إن كان هذا مقدرا حصل بدون السبب وإلا لم يحصل، جوابه أنه مقدر بالسبب وليس مقدرا بدون السبب، ....»أ.هـ[1].

وكذلك يذكر ابن تيمية في نص آخر أن الله عز وجل خالق الأسباب الشرعية، والأسباب الكونية، وقد سبق ذكره[2].

---

(*) خليل الهراس، شرح العقيدة الواسطية، ص١٣٣-١٣٤. - ابن القيم، شفاء العليل، ص١٠٩-١٤١.

(١) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص١٣٩.

(٢) راجع ص ١٨٤ - ١٩٥ من هذا البحث.

## علاقة القدر بالأسباب :

من خلال عرضنا السابق لتعاريف القدر، والمراتب وعلاقتها بالأسباب، ومعرفة أن القدر هو ماسبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه عز وجل قدر مقادير الخلائق، ومايكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ماقدرها.

هذا التعريف يبين لنا مدى العلاقة بين القدر والأسباب بحيث إن الله عز وجل سبق علمه، وجرى قلمه بما هو كائن من المسببات بأسبابها إلى الأبد، وإنه قدر عز وجل مقادير الخلائق، بأن جعل لكل شيء سببا، ولكل مسبب سببا، ولكل سبب مسببا، وعلمه سبحانه بهذه الأسباب قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها تقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وهي حدوث أو عدم حدوث المسبب بوجود السبب، وعلى هيئات معينة، وصفات مخصوصة، على حسب تقديره سبحانه وتعالى.

فالأسباب الشرعية، والكونية بتقدير الله عز وجل جعلت منتجة لمسبباتها، فالله عز وجل خالق الأسباب والمسببات، وجاعل هذه العلاقة بينهما.

يقول ابن تيمية: «.. وذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ماهي عليه، وهو قد جعل للأشياء أسبابا تكون بها، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب...»أ.هـ[١].

ويقول: «... ومجرد الأسباب لايوجب حصول المسبب، ......، فلابد من تمام الشروط، وزوال الموانع وكل ذلك بقضاء الله وقدره، .....، وكذلك أمر الآخرة...»أ.هـ[٢].

والآيات والأحاديث الدالة على أن الأخذ بالأسباب لايتعارض مع القدر، وإنما الأسباب هي من قدر الله عز وجل كثيرة فمنها:

---

(١) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٨، ص٧٠.

١ - قال تعالى: ﴿ **فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى** ﴾ «الليل: ٥-١٠».

فهذا دليل واضح على تقدير الله عز وجل، بأن جعل الأعمال الصالحة سببا للخير، والإعانة عليها، والأعمال السيئة سببا للشر، والخذلان.

يقول ابن كثير: «.... والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عز وجل يجازي من قصد الخير بالتوفيق له ومن قصد الشر بالخذلان وكل ذلك بقدر مقدر...» أ. هـ[١].

ويقول الحكمي: «....، فالله سبحانه وتعالى قدر المقادير وهيأ لها أسبابا وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسر كلا من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة، فهو مهيأ له ميسر له، فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهادا في فعلها والقيام بها وأعظم منه في أسباب معاشه ومصالح دنياه من كون الحرث سببا في وجود الزرع، ...، وكذلك العمل الصالح سبب في دخول الجنة، والعمل السيء سبب في دخول النار..» أ. هـ[٢].

وهذه الآية الكريمة قد ذكرها رسول الله ﷺ بعد حديثه عن الأعمال، وتقدير الله عز وجل لها في القدر السابق، وسؤال الصحابة رضوان الله عليهم عن فائدة العمل. فقال ﷺ: «مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة، فقام رجل من القوم فقال: الا نتكل يارسول الله؟ قال: لا، اعملوا فكل ميسر، ثم قرأ ﴿ **فأما من أعطى واتقى...الآية** ﴾» أ. هـ[٣].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٥١٩-٥٢٠.

(٢) الحافظ الحكمي، معارج القبول، ج٢، ص٣٦٣.

(٣) سبق تخريجه، وشرحه، وأقوال العلماء فيه، ص ٩١ ومابعدها.

فهنا أخبر النبي ﷺ أصحابه بسبق المقادير، وجريانها، وجفاف القلم بها، فظنوا أن ذلك كاف ولا يحتاج الناس إلى العمل، فأخبرهم رسول الله ﷺ أن ذلك غير كاف، فجميع ذلك مقدر معلوم، مقضي مكتوب قبل تكوينه، فمن ظن أن الشيء إذا علم وكتب أنه يكفي ذلك في وجوده ولايحتاج إلى ما به يكون من الفاعل الذي يفعله وسائر الأسباب، فهو جاهل ضال، ضلالا مبينا. فجميع الأسباب قد تقدم علم الله بها وكتابته لها، وتقديره إياها، وقضاؤه بها، كما تقدم ربط ذلك بالمسببات(١).

فالأسباب الشرعية والكونية من قدر الله عز وجل، والأمر باتخاذها من قدر الله عز وجل، وإنتاجها بقدر الله عز وجل، فالمؤمن الحق يأخذ بالأسباب الشرعية والكونية، ويعتمد علي خالقها وموجدها. فالله عز وجل قضى أن المسببات تكون بالأسباب، وكلاً ميسر بيد الله عز وجل لما خلق له.

يقول ابن القيم: «فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لايمنع من العمل، ولايوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد، . . . ، فإن النبي ﷺ أخبرهم -أي الصحابة- بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب، فإن العبد ينال ماقدر له بالسبب الذي أقدر عليه ومكن منه وهيئ له، فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب، وكلما زاد اجتهاداً في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه. . »أ. هـ(٢).

٢ - قال تعالى: **﴿الله يعلم ماتحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾** «الرعد: ٨».

الشاهد: «وكل شيء عنده بمقدار».

---

(١) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص٦٧، ص٢٧٢-٢٧٧ . بتصرف.

(٢) ابن القيم، شفاء العليل، ص٥٦.

يقول الطبري: « «وكل شيء عنده بمقدار» لايجاوز شيء من قدره عن تقديره ولا يقصر أمر أراده فدبره عن تدبيره . . . »أ. هـ[١].

٣ - قال تعالى: **﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون * وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين * وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾** «الحجر: ١٩-٢١».

يقول الطبري: « . . . عن قتادة . . . وقوله وأنبتنا فيها من كل شيء موزون يقول وأنبتنا في الأرض من كل شيء يقول من كل شيء بقدر مقدر وبحد معلوم . . »أ. هـ[٢].

ويقول ابن كثير: « . . . والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسره لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها . . . »أ. هـ[٣].

وأما قوله: **﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾**.

فيقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: ومامن شيء من الأمطار إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر لكل أرض، معلوم عندنا حده ومبلغه . . . »أ. هـ[٤].

٤ - قال تعالى: **﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾** «القمر: ٤٩».

وهذه الآيات السابقة واضحة المعنى في أن الله عز وجل خلق الكون بنظام، وترتيب، جعلت فيه المسببات بقدر الأسباب . فجعل لكل سبب مسبباً، ولكل مسبب سببا، بقدر معلوم[٥].

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج١٣، ص٧٣.

(٢) المصدر نفسه، ج١٤، ص١١-١٢. - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٥٢٩.

(٣) المصدرين السابقين.

(٤) المصدر نفسه، ج١٤، ص١٣.

(٥) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٣، ص٤٩٨، بالهامش.

يقول ابن تيمية : «وماقدره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت ، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب ، والله خالق الأسباب والمسببات . . »أ . هـ[١] .

٥ - عن أبي خزامة[*] عن أبيه قال : سألت رسول الله ﷺ . فقلت : يارسول الله أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيء ؟ قال : هي من قدر الله»أ . هـ[٢] .

يقول ابن تيمية : «وذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو يعلم الأشياء على ماهي عليه وكذلك يكتبها ، فإذا كان قد علم أنها تكون بأسباب من عمل وغيره وقضى أنها تكون كذلك وقدر ذلك لم يجز أن يظن أن تلك الأمور تكون بدون الأسباب التي جعلها الله أسبابا ، وهذا عام في جميع الحوادث»أ . هـ[٣] .

هذا ماذكره ابن تيمية تعليقا على هذا الحديث .

ويقول ابن القيم تعليقا على هذا الحديث : «فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، . . . ، وفيها رد على من أنكر التداوي ، وقال : إن كان الشفاء قد

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوي ، ج٨ ، ص٧٠ .

(*) أبوخزامة أحد بني الحارث بن سعد هذيم العذري ، حديثه عن الزهري عن ابن أبي خزامة عن أبيه ، واسم أبي خزيمة أو خزامة يعمر سماه مسلم وغيره ، بالرواية السابقة ، وسماه من طريق أخرى زيد بن الحارث ، وقال أبو عمر ذكره بعضهم في الصحابة لحديث أخطأ فيه رواية عن الزهري وهو تابعي . «الاستيعاب ، لابن عبدالبر القرطبي ، ج٤ ، ص٥١ . - انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر ، ج٤ ، ص٥٢» .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الطب ، باب ماجاء في الرقى والأدوية ، ج٤ ، ص٣٩٩-٤٠٠ . - وأخرجه الحاكم في مستدركه ، كتاب الطب ، باب خير ماأعطى العبد المسلم خلق حسن ، ج٤ ، ص١٩٩ . قال أبوعيسى الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . - وقال الحاكم برواية حكيم بن حزام : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . - وقال الذهبي في التلخيص : صحيح .

(٣) ابن تيمية ، الفتاوي ، ج٨ ، ص٢٧٦ .

قدر، فالتداوي لايفيد، وإن لم يكن قد قدر، فكذلك، وأيضا، فإن المرض حصل بقدر الله، وقدر الله لايدفع ولا يرد، وهذا السؤال هو الذي أورده الأعراب على رسول الله ﷺ . وأما أفاضل الصحابة فأعلم بالله وحكمته وصفاته من أن يوردوا مثل هذا، وقد أجابهم النبي ﷺ بما شفى وكفى، فقال: هذه الأدوية والرقى والتقى هي من قدر الله، فما خرج شيء عن قدره، بل يرد قدره بقدره، وهذا الرد من قدره، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما، وهذا كرد قدر الجوع، والعطش والحر، والبرد بأضدادها، وكرد قدر العدو بالجهاد، وكل من قدر الله الدافع والمدفوع والدفع.»أ. هـ[1].

فهذا الحديث الشريف دليل على أن اتخاذ الأسباب من قدر الله عز وجل، ورد البلاء، والحر، والعطش، والجوع، والآفات، وجلب المصالح... وغيرها، هي من قدر الله عز وجل، تدفع، وتجلب بقدر الله عز وجل. فالله عز وجل قدر السبب، وقدر المسبب، وقدر المصائب، وقدر المصالح، وقدر الجلب بالأسباب، وقدر الدفع بالأسباب، فكلها واقعة تحت قدر الله عز وجل.

٦ - عن ابن عباس: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ[*] لقيه أمراء الأجناد أبوعبيدة بن الجراح[**] وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام قال ابن عباس فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٤، ص١٤-١٧.

(*) بسرغ: مدينة افتتحها أبوعبيدة، وهي واليرموك، والجابية متصلات وبينها وبين المدينة ١٣ مرحلة، وقال ابن عبدالبر: قيل إنه واد بتبوك، وقيل بقرب تبوك، وقال الحازمي: هي أول الحجاز...» «فتح الباري، ابن حجر، ج١٠، ص١٩٥».

(**) عامر بن عبدالله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي، الأمير القائد، فاتح الديار الشامية، والصحابي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان لقبه: أمين الأمة، وكان داهية قريش، وشهد المشاهد، له ١٤ حديثا، نزع بأسنانه نصلا من جبهة رسول الله ﷺ فأصبح أثرم الثنيتين، ولد سنة ٤٠ق. هـ بمكة، وتوفي بطاعون عمواس ودفن في غوربيسان سنة ١٨هـ. «الاستيعاب، ج٣، ص٢-٤. - شذرات الذهب، ج١، ص٢٤، ٢٧، ٢٩، ٣١. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٥. - الإصابة، ج٢، ص٢٥٢-٢٥٤. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٢٥٢».

وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا فقال بعضهم: قد خرجنا لأمر ولا نرى أن نرجع عنه وقال بعضهم معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولانرى أن تقدمهم على هذا الوباء فقال ارتفعوا عني ثم قال: ادع لي الأنصار فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم فقال ارتفعوا عني ثم قال ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان فقالوا نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء فنادى عمر في الناس إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه قال أبوعبيدة بن الجراح أفرارا من قدر الله فقال عمر لو غيرك قالها ياأباعبيدة نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وان رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله قال فجاء عبدالرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته فقال إن عندي في هذا علماً سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه قال فحمد الله عمر ثم انصرف.»أ. هـ[١].

يقول ابن حجر: «قوله «نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله» . . . وأطلق عليه فراراً لشبهه به في الصورة وإن كان ليس فرارا شرعيا. والمراد أن هجوم المرء على مايهلكه منهي عنه، ولو فعل لكان من قدر الله، وتجنبه مايؤذيه مشروع وقد يقدر الله وقوعه فيما فر منه فلو فعله أو تركه لكان من قدر الله، فهما مقامان: مقام التوكل، ومقام التمسك بالأسباب . . . ومحصل قول عمر «نفر من قدر الله إلى قدر الله» أنه أراد أنه لم يفر من قدر الله حقيقة، وذلك أن الذي فر منه أمر خاف على نفسه منه فلم يهجم عليه، والذي فر إليه أمر لايخاف على نفسه منه إلا الأمر الذي لابد من وقوعه سواء كان ظاعنا أو مقيما»أ. هـ[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب مايذكر في الطاعون، ج٧، ص٢١.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب مايذكر في الطاعون، ج١٠، ص١٩٦.

ويقول ابن القيم: «... وبالجملة ففي النهي عن الدخول في أرضه - أي الطاعون- الأمر بالحذر والحيطة، والنهي عن التعرض لأسباب التلف. وفي النهي عن الفرار منه الأمر بالتوكل، والتسليم، والتفويض، فالأول: تأديب وتعليم، والثاني: تفويض وتسليم.» أ. هـ[1].

ويقول النووي: «... ذكر له عمر - أي لأبي عبيدة - دليلا واضحا من القياس الجلي الذي لاشك في صحته، وليس ذلك اعتقادا منه أن الرجوع يرد المقدور، وإنما معناه أن الله تعالى أمر بالاحتياط والحزم، ومجانبة أسباب الهلاك، كما أمر سبحانه بالتحصن من سلاح العدو، وتجنب المهالك، وإن كان كل واقع بقضاء الله وقدره السابق في علمه. وقاس عمر على رعي العدوتين، لكونه واضحا لاينازع فيه أحد مع مساواته لمسألة النزاع...» أ. هـ[2].

فهذا الحديث، وهذه الأقوال من العلماء الأجلاء دليل على أن الأسباب، والمسببات من قضاء الله وقدرته، ورد البلاء، واتخاذ الأسباب لايتعارض مع ذلك، وإنما هي من قضاء الله وقدرته.

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٤، ص٤٤.

(٢) النووي، صحيح مسلم بشرحه، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة وغيرها، ج٥، ص٧٠.

# المبحث الثالث

## الأسباب والدعاء

## عند أهل السنة والجماعة

١ - تمهيد :

أ - التعريف في اللغة .

ب - التعريف في الاصطلاح .

٢ - علاقة الدعاء بالأسباب .

## الدعاء وعلاقته بالأسباب

لكي نعرف علاقة الدعاء بالأسباب لابد من معرفة الدعاء في اللغة والاصطلاح .

### تعريف الدعاء في اللغة :

«الدعاء : يأتي بمعنى الاستغاثة ، قال تعالى : ﴿**وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾ «البقرة : ٢٣»

وقال الفراء(*) : وادعوا شهداءكم من دون الله ، يقول : آلهتكم ، يقول استغيثوا بهم .

وقال أبوإسحاق(**) في قوله عز وجل : ﴿**أجيب دعوة الداع إذا دعاني**﴾ «البقرة : ١٨٦» . معنى الدعاء لله على ثلاثة أوجه :

فضرب منها توحيده والثناء عليه .

والضرب الثاني : مسألة الله العفو والرحمة ومايقرب منه .

والضرب الثالث : مسألة الله الحظ من الدنيا .

---

(*) يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي ، مولى بني أسد ، أبوزكريا ، المعروف بالفراء ، إمام الكوفيين ، وأعلمهم بالنحو واللغة ، وفنون الأدب ، كان يقال : الفراء أمير المؤمنين في النحو ، وقالوا : لولا الفراء ماكانت اللغة ، يميل إلى الاعتزال ، له عدة مصنفات منها : «المعاني» ، و«اللغات» ، و«مشكل اللغة» ، ولد سنة ١٤٤هـ بالكوفة ، وتوفي سنة ٢٠٧هـ بطريق مكة . «انظر : سير أعلام النبلاء ، ج١٠ ، ص١١٨ . - الأعلام ، للزركلي ، ج٨ ، ص١٤٥-١٤٦» .

(**) إبراهيم بن السري بن سهل ، أبوأسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، وله عدة مصنفات منها «معاني القرآن» ، و«الاشتقاق» ، و«الأمالي» ، ولد سنة ٢٤١هـ ببغداد ، وتوفي سنة ٣١١هـ فيها أيضا . «انظر : سير أعلام النبلاء ، ج١٤ ، ص٣٦٠ . - الأعلام ، للزركلي ، ج١ ، ص٤٠» .

وروى عن النبي ﷺ أنه قال : «الدعاء هو العبادة، ثم قرأ : ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي ... الآية**﴾ «غافر : ٦٠» . »أ . هـ[١] .

والدعاء : «الرغبة إلى الله عز وجل . »أ . هـ[٢] .

## الدعاء في الاصطلاح :

يقول الخطابي : «ومعنى الدعاء : استدعاء العبد ربه عز وجل العناية واستمداده إياه المعونة»أ . هـ[٣] .

وللدعاء نوعان يعرف من خلالها علاقة الدعاء بالأسباب :

١ - دعاء عبادة : وهو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله عز وجل، والاستكانة إليه، وماشرعت العبادات إلا للخضوع للبارئ وإظهار الافتقار إليه[٤] .

فلذلك كانت علاقة هذا النوع من الدعاء بالأسباب، كعلاقة سائر الأسباب الشرعية بمسبباتها، أي : في اقتضائها الأثابة .

يقول ابن تيمية : «الدعاء في اقتضائه الإجابة كسائر الأعمال الصالحة في اقتضائها الأثابة، وكسائر الأسباب في اقتضائها المسببات . . . »أ . هـ[٥] .

٢ - دعاء مسألة : وهو دعاء الطلب، وهو الالتجاء إلى الله عز وجل بطلب الحوائج، واستجابة الدعاء .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ماجاء في فضل الدعاء، ج٥، ص٤٥٦ . قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٣٥٩-٣٦٣ . - الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج٤، ص٣٢٧-٣٢٨ .

(٣) الخطابي، شأن الدعاء، ص٣-٤ . «نقلا عن المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، لعبدالإله الأحمدي، ج٢، ص٢٦٤» .

(٤) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الدعوات، ج١١، ص٩٨ .

(٥) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص١٩٢ .

يقول ابن القيم: «. . . نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلبماينفع الداعي وطلب كشف مايضره أو دفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا، والمعبود لابد وأن يكون مالكا للنفع والضر. . . »أ. هـ[١].

فالدعاء يقتضي الإجابة، كسائر الأسباب والمسببات، يقول ابن تيمية: «. . . فيعلم أن الله تعالى بفضله ورحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير المانعة من الشر. . »أ. هـ[٢].

فدعاء العبادة، ودعاء المسألة كما سبق أن ذكر ابن القيم هما متلازمان، فدعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة. يقول ابن القيم: «. . . فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة وعلى هذا فقوله تعالى: **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان...الآية﴾** «البقرة: ١٨٦». يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية، قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً، فتأمله فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له. »أ. هـ[٣].

## علاقة الدعاء بالأسباب:

من خلال عرضنا لتعريف الدعاء، ونوعيه وعلاقتهما بالأسباب، ومعرفة أن الدعاء قد يأتي بعدة معان: منها الاستغاثة، والقول، والرغبة إلى الله عز وجل في دفع الشر، وإتيان الخير، والنداء، والمسألة، وهذا كله عبادة لله تعالى.

---

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد، ج٢، ص٣.

(٢) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص٢١٦.

(٣) ابن القيم، بدائع الفوائد، ج٢، ص٤.

فالدعاء بجميع هذه المعاني يدل على أنه سبب من الأسباب الموصلة إلى خير الدنيا والآخرة، بحيث إن العبادة كما سبق أن قلنا أسباب شرعية موصلة إلى مسبباتها من دخول الجنة، والنجاة من النار، ومن جهة أخرى يعتبر الدعاء سببا بحيث جعله الله عز وجل أعظم الأسباب لدفع الشر، وجلب الخير في الدنيا أيضاً.

فالدعاء سبب شرعي من حيث إنه عبادة، مأمور بها من الله عز وجل تجلب مسبباتها من دخول الجنة، وسبب شرعي من حيث أمر الله عز وجل به عند ضيق الحال، والحاجة إلى الله عز وجل في دفع عدو، أو جلب نفع. وهذا ما أثبتناه مسبقا بأقوال العلماء.

ويقول ابن تيمية: «... الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته ورحمته وهداه ونصره ورزقه...»أ. هـ[١].

ويقول في موضع آخر: «... وكذلك الدعاء والتوكل من أعظم الأسباب لما جعله الله سبباً له...»أ. هـ[٢].

ويقول: «وأمر ﷺ عند انعقاد أسباب الشر بما يدفع موجبها بمشيئة الله تعالى وقدرته من الصلاة، والدعاء، والذكر، والاستغفار، والتوبة، والإحسان بالصدقة، والعتاقة. فإن هذه الأعمال الصالحة تعارض الشر الذي انعقد سببه، كما في الحديث: «إن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان»[٣]. وهذا كما لو جاء عدو فإنه يدفع بالدعاء، وفعل الخير، وبالجهاد له، ...، فكذلك الأعمال الصالحة والدعاء»أ. هـ[٤].

---

(١) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٨، ص١٧٦.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الدعاء، باب الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، ج١، ص٤٩٢.
يقول الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ويقول الذهبي في التلخيص: «قلت زكريا مجمع على ضعفه».

(٤) ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص٢٧٢.

ويقول ابن أبي العز الحنفي : « . . . والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل وغيرهم : أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار . . . »أ. هـ[1] .

ويقول ابن القيم : « . . . أنه قد قدر له مطلوبه بسبب إن تعاطاه حصل له المطلوب، وإن عطل السبب فاته المطلوب، والدعاء من أعظم الأسباب في حصول المطلوب. . . ، . . . »أ. هـ[2] .

فهذه الأقوال وغيرها دليل على علاقة الأسباب بالدعاء، وإن الدعاء ماهو إلا سبب من الأسباب الموصلة إلى مسبباتها، المطلوبة منها. وإن في تعطيل الدعاء تعطيلاً للعبادة والأمر، وتعطيلاً للغاية من الدعاء. والأمر بالدعاء والالتجاء إلى الله عز وجل، وحصول مسببه عند فعله دلت عليه نصوص الكتاب والسنة كما يأتي :

١ - قال تعالى : ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ «غافر : ٦٠» .

إن الله عز وجل في هذه الآية جعل الدعاء سبباً للإجابة فقال : ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ جعل الدعاء سببا للإجابة، وجعل ترك الدعاء سببا لدخول جهنم، فهذه الآية دليل واضح على أن الدعاء سبب من الأسباب الشرعية المأمور بها، والمترتب عليها مسبباتها التي تحصل بحصول المطلوب.

٢ - قال تعالى : ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾ «البقرة : ١٨٦» .

هذا دليل آخر على أن الدعاء سبب للإجابة، وهوأيضاً سبب شرعي لدخول الجنة والفلاح في الدنيا.

---

(١) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص٤٠٦ .

(٢) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٤٨١ .

يقول ابن تيمية: « . . . أن الله تعالى إذا قدر أمراً فإنه يقدر أسبابه، والدعاء من جملة أسبابه، كما أنه لما قدرالنصر يوم أحد وأخبر النبي ﷺ - قبل وقوعه - أصحابه بالنصر وبمصارع القوم كان من أسباب ذلك استغاثة النبي ﷺ ودعاؤه، وكذلك ماوعده به ربه من الوسيلة، وقد قضى بها له، وقد أمر أمته بطلبها له، وهو سبحانه قدرها بأسباب منها ماسيكون من الدعاء.

وعلى هذا فالداخل في السبب هو ماوقع من الدعاء المأمور به - والله أعلم بذلك- فيثيب هذا الداعي على مافعله من الدعاء بجعله تمام السبب. »أ. هـ[1].

٣ - قال تعالى: ﴿**فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون**﴾ «العنكبوت: ٦٥»

هذه الآية فيها رد على من أنكر أن الدعاء سبب من الأسباب الموصلة إلى المطلوب، بحيث أنها تخبر عن حال المشركين، بأنهم عرفوا أن الدعاء له دوره ونفعه، وتأثيره عند نزول الشدة، قال تعالى: ﴿**وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا**﴾ «الأسراء: ٦٧» فدعوه في وقت الشدة، ولكن البعض أنكر الدعاء، ولم يجعله إلا عبارة عن عبادة محضة لاتوصل إلى المطلوب. يقول ابن تيمية: « . . . ومن قال: إن الدعاء علامة ودلالة محضة على حصول المطلوب المسئول ليس بسبب، أو هو عبادة محضة لا أثر له في حصول المطلوب وجودا ولا عدما، بل مايحصل بالدعاء يحصل بدونه، فهما قولان ضعيفان فإن الله علق الإجابة به تعليق السبب بالمسبب كقوله: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ وفي الصحيحين[*] عن

---

(١) ابن تيمية، دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، تحقيق محمد السيد الجليند، ج١، ص٣٠٩-٣١٠.

(*) لم يذكر هذا الحديث بهذا اللفظ في الصحيحين. وإنما ذكر حديث الاستعجال. راجع ص ٢٣٤.

النبي ﷺ «أنه قال مامن مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى خصال ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها، قالوا: يارسول الله إذاً نكثر قال الله أكثر»[(١)] . . . . »أ. هـ[(٢)].

يقول ابن القيم في الرد على من أنكر تأثير الدعاء: « . . . فيقال لهذا الغالط: بقي عليك قسم آخر - وهو الحق - أنه قد قدر له مطلوبه بسبب إن تعاطاه حصل له المطلوب، وإن عطل السبب فاته المطلوب، والدعاء من أعظم الأسباب في حصول المطلوب، ومامثل هذا الغالط إلا مثل من يقول: إن كان الله قد قدر لي الشبع، فأنا أشبع، أكلت أو لم آكل، وإن لم يقدر لي الشبع، لم أشبع أكلت أو لم آكل، فما فائدة الأكل؟ . . . »أ. هـ[(٣)].

وهناك ردود أخرى كثيرة، سوف نذكرها في حينها إن شاء الله[(٤)].

٤ - قال تعالى: **﴿ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾** «الأنبياء: ٧٦»

قال تعالى: **﴿ولقد نادنا نوح فلنعم المجيبون﴾** «الصافات: ٧٥».

قال تعالى: **﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر واءتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾** «الأنبياء: ٨٣-٨٤».

وقال تعالى: **﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في**

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك، ج٥، ص٥٦٦. قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص١٩٣.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٤٨١.

(٤) في الباب الثاني إن شاء الله تعالى. ومن هذه الردود: ابن أبي العز الحنفي، شرح الطحاوية، ص٤٠٧ وابن القيم، الداء والدواء، ص٢٢.

**الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نجى المؤمنين﴾** «الأنبياء: ٨٧-٨٨».

وقال تعالى: **﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لاتذرني فردا وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾** «الأنبياء: ٨٩-٩٠».

هذه الآيات عظيمة الدلالة على أن الأنبياء عليهم السلام أخذوا بالأسباب الموصلة إلى المطلوب، فوصلوا إلى مرادهم. فالأنبياء عليهم السلام عندما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من أذاهم من قومهم، وكذلك عند طلبهم للشفاء، والولد، عرفوا أن هناك سبباً موصلاً وهو الدعاء، فالتجأوا إلى الله عز وجل بالدعاء، فاستجاب لهم وأعطى كل نبي حاجته. فلم يتكاسلوا عن الطلب، ولم يتركوا الدعاء، متكلين على القدر، ولكن فعلوا السبب وهو الدعاء، فحصلوا على الطلب أو المطلوب وهو الاستجابة.

فهذا دليل على أن الدعاء سبب من الأسباب الموصلة إلى دفع الضر، وجلب النفع. ففي آخر هذه الآيات يقول تعالى: **﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾**. أي عرف الأنبياء عليهم السلام أنها عبادة مأمور بها موصلة إلى خير الدنيا والآخرة، وكذلك عرفوا أن في تقديمها على أحسن وجه لله عز وجل يحقق الإجابة أكثر، فعبدوه، ودعوه حق العبادة والدعاء، فأعطوا ماطلبوا.

٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لايزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل، قيل: يارسول الله ما الاستعجال؟ قال: يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء» أ. هـ[1].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي مالم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي، ج٤، ص٢٠٩٦.

هذا الحديث دليل على أن الدعاء سبب للإجابة مالم يستعجل . يقول النووي : «ففيه : أنه ينبغي إدامة الدعاء، ولا يستبطئ الإجابة»أ . هـ[١] .

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة . فالدعاء سبب من الأسباب الموصلة إلى خير الدنيا والآخرة، وقد جعلها ابن تيمية، وابن أبي العز الحنفي، وابن القيم، من أقوى الأسباب وأعظمها كما سبق بيانه .

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم، ج٥، ص٥٧٩ .

# المبحث الرابع

# الأسباب والخوارق

# عند أهل السنة والجماعة

١ - تمهيد :

أ - التعريف في اللغة .

ب - التعريف في الاصطلاح .

٢ - علاقة الخوارق بالأسباب .

# الخوارق وعلاقتها بالأسباب

لكي نعرف علاقة خوارق العادات بالأسباب ، لابد من معرفة ماهي الخوارق، وأنواعها؛ ثم تعريف كل نوع لغة واصطلاحا.

## خوارق العادات :

خوارق العادات أنواع عدة(١) منها:

١ - المعجزة .

٢ - الكرامة .

٣ - السحر(*) .

٤ - العين(**) .

## ١ - المعجــزة :

### في اللغة :

الإعجاز إفعال من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء، من عمل أو رأي أو تدبير . والذي يظهر على الخلق من هذا المعنى ثلاث درجات: مخرقة، كرامة، معجزة. أ. هـ(٢) .

والمعجزة، بفتح الجيم وكسرها، مفعلة من العجز: عدم القدرة.

---

(١) السفاريني، لوامع الأنوار البهية، ج٢ ، ص٣٩٢ .

(*) السحر : يعتبر خارقاً بالنسبة لمن لايعرف حقيقته وصنعته، وهي من الخوارق الفاسدة .

(**) العين : ألحقتها بالخوارق، لأن ابن كثير في أنواع السحر اعتبرها من النوع الثاني وهو تأثير النفوس القوية .

(٢) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، ج١ ، ص٦٥ .

والتعجيز : التثبيط . ومعجزة النبي ﷺ : ماأعجز به الخصم عند التحدي ، والهاء للمبالغة ، والجمع معجزات . أ . هـ[١] .

ويطلق على المعجزة : آية .

يقول ابن تيمية : «وإن كان اسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة ، وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ، ويسمونها : الآيات» . أ . هـ[٢] .

ويقول : « . . . كما اضطربوا في مسمى المعجزات ولهذا لم يسمها الله في كتابه إلا آيات وبراهين ، فإن ذلك اسم يدل على مقصودها ويختص ، لايقع على غيرها : لم يسمها معجزة ولا خرق عادة وإن كان ذلك من بعض صفاتها فهي لاتكون آية وبرهانا حتى تكون قد خرقت العادة وعجز الناس عن الإتيان بمثلها . »أ . هـ[٣] .

## في الاصطلاح :

يقول ابن حمدان[*] : «المعجزة هي ماخرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدي ابتداء بحيث لايقدر أحد عليها ولا على مثلها ولا على مايقاربها . »أ . هـ[٤] .

وقد سبق أن ذكرنا تسمية ابن تيمية للمعجزة وهي الآية والبرهان .

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج٩ ، ص٥٨ . - الزبيدي ، تاج العروس ، ج١٥ ، ص٢١١ .

(٢) ابن تيمية ، الفتاوي ، ج١١ ، ص٣١١ .

(٣) ابن تيمية ، النبوات ، ص٢٠٧ . - ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ج٤ ، ص٦٧-٧١ .

(*) أحمد بن حمدان بن شبيب بن حمدان النميري الحراني ، أبوعبدالله ، فقيه حنبلي ، أديب ، ولي نيابة القضاء بالقاهرة ، له عدة مصنفات منها «الرعاية الكبرى» ، «الرعاية الصغرى» ، «صفة المفتي والمستفتي» ، «مقدمة في أصول الدين» ، ولد ونشأ بحران سنة ٦٠٣هـ ، وسكن القاهرة ، وأسن ، وكف بصره وتوفي فيها سنة ٦٩٥هـ . «انظر : سير أعلام النبلاء ، ج١٦ ، ص١٩٣ . - مختصر طبقات الحنابلة ، ص٥٩ . - الأعلام ، للزركلي ، ج١ ، ص١١٩» .

(٤) السفاريني ، لوامع الأنوار البهية ، ج٢ ، ص٢٩٠ .

## علاقة المعجزة بالأسباب :

المعجزة كما سبق تعريفها فهي أمر خارق للعادة، أي خارق لنظام الكون الذي جعله الله سبحانه وتعالى، الذي منه ترتب المسببات على أسبابها .

فالمعجزة خارجة عن هذا النظام، وكذلك عرفنا أن المعجزة عند ابن تيمية هي الآية والبرهان، فالآية في لغة العرب العلامة الدالة على الشيء، والمراد بها هنا : مايجريه الله عز وجل على أيدي أنبيائه ورسله من خارقة للسنن الكونية المعتادة، التي لاقدرة للبشر على الأتيان بمثلها؛ كإحياء الموتى، وقلب العصا ثعبان مبين، ونزول كتاب من عند الله عز وجل .

١ - فنظام ترتب المسببات على أسبابها يقتضي أن يولد الإنسان من أبوين، وتغير هذا النظام في خلق عيسى عليه السلام . حيث ولد من أم من غير أب . قال تعالى : ﴿**إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت رب أني يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ «آل عمران : ٤٥-٤٧» .

وقال تعالى : ﴿**قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله ءاية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا**﴾ «مريم : ٢٠-٢١» .

فهذه الآيات دلت على آية خلق عيسى عليه السلام التي خالفت السنن الكونية في ترتب المسبب على السبب، فالله عز وجل خلق عيسى عليه السلام من أم دون أب، بدون أسباب الحبل، ورزق الولد التي سبق أن ذكرناها في الحديث عن اتخاذ الأسباب الكونية من نكاح، ووطء، لحدوث المسبب، وهو الرزق بالولد .

٢ - وأيضاً من نظام ترتب المسببات على أسبابها إحراق النار، فالنار سبب، والاحتراق الحاصل لما تقابله مسبب عنها. ولكن الله عز وجل خرق هذا النظام في قصة إبراهيم عليه السلام، حين ألقي في النار، فأصبحت برداً وسلاماً عليه عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿**قالوا حرقوه وانصروا ءالهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم * وارادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين**﴾ «الأنبياء: ٦٨-٧٠»

قال تعالى: ﴿**فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**﴾ «العنكبوت: ٢٤»

يقول ابن تيمية بعد ذكر الآيات الدالة على سنة الله عز وجل في نصر أوليائه وعقوبة أعدائه من الكفار: «وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات، فإن هذه السنة ينقضها إذا شاء بما شاء من الحكم، كما حبس الشمس على يوشع، وكما شق القمر لمحمد ﷺ، وكما ملأ السماء بالشهب، . . .»أ. هـ[1].

ويقول ابن تيمية في معرض الرد على الفلاسفة في ادعائهم أن المعجزات من قوى النفس فهي مازالت تابعة لسنن الله عز وجل في الكون، تابعة لنظام ترتب المسببات على أسبابها فيقول: « . . . الثاني: إن في ذلك إثبات أن الله فاعل مختار يفعل بمشيئته وقدرته، يحدث مايشاء بحسب مشيئته وحكمته، ليس موجبا بالذات، فإن الموجب بالذات مستلزم لآثاره، فيمتنع أن تتغير أفعاله عن القانون الطبيعي. والأشكال الفلكية، والاتصالات الكوكبية. وإن كانت تحدث بها أنواع من الغرائب في هذا العالم فلابد من استعداد القوابل، ولابد أن تكون تلك الاتصالات جارية على القانون المعتاد عندهم، وكلاهما

---

(١) ابن تيمية، جامع الرسائل «رسالة في لفظ السنة في القرآن»، ص٥٢.

منتف في هذه الخوارق، فالمادة السفلية لاتقبل مثل هذا في العادة، والاتصالات الفلكية لايحدث عنها مثل هذا، ولهذا كان مايحدث من الغرائب بسبب تمزيج القوى الفعالة السماوية أو القوى المنفعلة الأرضية ليس هومن هذا الباب، بل هو مما أعتيد نظيره: مثل دفع بعض الحيوان عن مكان أو جذبهم إليه، أو أمراض بعض الأبدان أو موتها، أو غير ذلك من الأمور . . »أ. هـ[(١)].

فمن هذه النصوص نستنتج أن المعجزات هي من خوارق السنن الكونية، التي منها ترتب المسببات على أسبابها. فكل ذلك من قدر الله عز وجل.

فابن تيمية في النص السابق يبين الفرق بين المعجزة - وهو ماأطلق عليه آية- وبين السنن الكونية المعتادة، فالمعجزة ماجاءت إلا لتبين الإعجاز، وتبين عجز الإنسان عن الإتيان بمثلها، وكذلك تبين أن الله عز وجل على كل شيء قدير، وأنه قادر على تغيير هذا النظام الكوني إذا شاء متى ماشاء، فإنما أمره إذا قضى أو أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فلو كانت المعجزة من ضمن القوانين الكونية لما كانت دليلا وبرهانا وآية على صدق النبي أو الرسول عليهم السلام، لكانت مجرد عارض أو حادثة من ضمن العوارض والحوادث التي تحصل في الكون، ولكن جاءت مخالفة، وخارقة لعادات هذا النظام، لتدل على صدق النبي أو الرسول عليهم السلام.

فالمعجزة خارجة عن نظام ترتب المسببات على أسبابها، ولا علاقة بينهما. والله أعلم.

## ٢ - الكرامة :

### في اللغة :

الكرامة: من الكرم. ومنها الكريم. فالكريم: من صفات الله وأسمائه، وهو الكثير الخير الجواد المعطي الذي لاينفد عطاؤه.

---

(١) ابن تيمية، الصفدية، ج١، ص١٨٦.

وقال ابن سيده : والكرم نقيض اللؤم.

وقيل : وقد كرم الرجل وغيره، بالضم، كرما وكرامة، فهو كريم.

وقال الجوهري : الكرام، بالضم، مثل الكريم فإذا أفرط في الكرم. قلت كرام، بالتشديد، والتكريم والإكرام بمعنى، والإسم منه الكرامة.»أ. هـ[١].

## في الاصطلاح :

«الكرامة هي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها ذلك العبد أم لم يعلم.»أ. هـ[٢].

## علاقة الكرامة بالأسباب :

يقال في الكرامة ما قد قيل في المعجزة سابقا، فالكرامة أمر خارق للعادة كالمعجزة، ولكن الفروق بين الكرامة والمعجزة كثيرة منها :

١ - إن المعجزة تعطى للنبي أو الرسول عليهم السلام، والكرامة تعطى للولي رضي الله عنه[٣].

٢ - إن المعجزة تعطى للنبي أو الرسول عليهم السلام، ويطالب بإظهارها إثباتاً لنبوته وصدقه، أما الكرامة فللولي إظهارها، أو كتمانها على حسب المصلحة، فإن كانت لنصرة الدين أو تبين حق فله أظهارها، وإن كانت لأمر خاص به، ولا يضر كتمانها فله كتمانها. وهذاالقول ضعفه ابن تيمية[٤].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٧٥-٧٩. - الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج٤، ص١٧٠-١٧١.

(٢) السفاريني، لوامع الأنوار البهية، ج٢، ص٣٩٢.

(٣) ابن تيمية، الفتاوي، ج١١، ص٣١٢.

(٤) ابن تيمية، النبوات، ص٤.

٣ - يقول ابن تيمية : «المراتب ثلاث : آيات الأنبياء، ثم كرامات الأولياء، ثم خوارق الكفار والفجار كالسحرة والكهان . »أ . هـ[١] .

ثم يبين أن مايحصل من الصالحين لايخرج عن المعجزة، لأنهم متبعون لطريقة الأنبياء، وإن كان الأولياء دون الأنبياء والمرسلين حتى ولو حصل لهم مثل ماحصل للأنبياء عليهم السلام . كما أنهم لايبلغون الفضيلة والثواب في درجاتهم، ولكن قد يشاركونهم في بعض أعمالهم[٢] .

٤ - كما أن الكرامة لاتدل على عصمة الولي، والمعجزة تدل على عصمة الرسول أو النبي عليهم السلام[٣] .

وغير ذلك من الفروق .

فالكرامة خارقة للقوانين الكونية المعتادة، فهي خارقة لنظام ترتب المسببات على أسبابها، لذلك فهي خارجة عن نظام الأسباب الذي نتكلم عنه في هذا البحث كالمعجزة .

## ٣ - السحر :

### في اللغة :

«قال الأزهري : السحر عمل تقرب فيه إلى الشيطان وبمعونة منه .

والسحر : الأخذة . وهو كل مالطف مأخذه ودق، فهو سحر، والجمع أسحار وسحور، وسحره يسحره سحرا وسحرا وسحره .

والسحر : البيان والفطنة فقال النبي ﷺ : «إن من البيان لسحرا»[*] .

---

(١) المصدر السابق، ص٤ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه، ص٥ .

(*) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب إن البيان لسحر، ج٧، ص٣٠ .

وقال الأزهري: وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره فكأن الساحر لما أرى الباطل في صورة الحق، وخيل الشيء على غير حقيقته، قد سحر الشيء عن وجهه أي: صرفه.

وقيل: العرب إنما سمت السحر سحرا؛ لأنه يزيل الصحة إلى المرض.

وقيل: السحر: الفساد.»أ. هـ[١].

## في الاصطلاح:

يقول ابن قدامة[*]: «السحر عقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له وله حقيقة: فمنه مايقتل وما يمرض ومايأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها ومنه مايفرق بين المرء وزوجه ومايبغض أحدهما إلى الآخر، أو يحبب اثنين وهذا قول الشافعي»أ. هـ[٢].

وهناك تعاريف أخرى للسحر لكن عبارة عن أنواع السحر:

١ - يقول ابن حجر: «قوله «باب السحر» قال الراغب وغيره: السحر يطلق على معان: أحدها مالطف ودق، ومنه سحرت الصبي: خادعته واستملته. . .، الثاني: مايقع بخداع وتخييلات لا حقيقة لها، نحو مايفعله المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده، . . .، والثالث: مايحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص١٨٩-١٩٢. - الزبيدي، تاج العروس، ج١١، مادة سحر، ص٥١٠-٥٢٠.

(*) عبدالله بن أحمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، أبومحمد، موفق الدين، فقيه، من أكابر الحنابلة، له عدة تصانيف منها «المغني»، «روضة الناظر»، «ذم التأويل»، ولد سنة ٥٤١هـ في جماعيل من قرى نابلس بفلسطين، وتوفي سنة ٦٢٠هـ بدمشق. «انظر: مختصر طبقات الحنابلة، ص٥٢-٥٤. - الأعلام، للزركلي، ج٤، ص٦٧».

(٢) ابن قدامة، المغني، ج١٠، ص١١٣.

إليـهـم، . . . ، الرابع : مـايـحـصـل بمخـاطبـة الكواكب واسـتنزال روحـانيـاتهـا بزعمهم، . . . »أ. هـ[١] .

٢ - ويقـول أيضـاً : «ثم السحر يطلق ويراد به الآلة التي يسحربهـا، ويطلق ويراد به فعل السـاحـر ، والآلة تارة تكون معنى من المعاني فقط كالرقى والنفث في العقد، وتارة تكون بالمحسوسات كتصوير الصورة على صورة المسحور، وتارة بجمع الأمرين الحسي والمعنوي وهو أبلغ»أ. هـ[٢] .

٣ - ويقول ابن القيم : «والسحر هو مركب من تأثيرات الأرواح الخبيثة، وانفعال القوى الطبيعة عنها، وهو أشد مايكون من السحر. . . »أ. هـ[٣] .

٤ - يقول ابن كثير : «ثم قد ذكر أبوعبدالله الرازي أن أنواع السحر ثمانية :

الأول : سحر الكذابين والكشدانيين(*) . . . . .

الثاني : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية . . . . (**) .

الثالث : من السحر الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن، . . . . ، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير. . . ، . . . .

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب السحر، ج١٠، ص٢٣٢ .

(٢) المصدر نفسه، ج١٠، ص٢٣٢ .

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ج٤، ص١٢٦ .

(*) الكشدانيين : الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة وهي السيارة وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم وأنها تأتي بالخير والشر وهم الذين بعث الله إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام، مبطلا لمقالتهم وردا لمذهبهم. «ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٣٨» .

(**) أصحاب الأوهام والنفوس القوية : إن الوهم له تأثير بأن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجذع الموضوع على وجه الأرض ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدداً على نهر أو نحوه، قال : وكما أجمعت الأطباء على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر والمصروع إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران وماذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام. وقال : إذا عرفت هذا فنقول النفس التي تفعل هذه الأفاعيل تكون قوية جدا فتستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات . تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، للرازي، ج٢، ص٢٢٤-٢٣١ . - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٣٨-١٣٩ .

الرابع: من السحر التخييلات والأخذ بالعيون والشعوذة، ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويشتغل بالشيء المعين دون غيره . . .

الخامس: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب الهندسية كفارس على فرس في يده بوق كلما مضت ساعة من النهار وضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد . . . فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل . . . قلت: يعني ماقاله بعض المفسرين: أنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصي فحشوها زئبقاً فصارت تتلوى بسبب مافيها من ذلك الزئبق فيخيل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها - يقصد سحرة فرعون - . . . قال الرازي: ومن هذا الباب تركيب صندوق من الساعات، . . .

وهذا في الحقيقة لاينبغي أن يعد من باب السحر لأن لها أسباباً معلومة يقينية من اطلع عليها قدر عليها . . . .

السادس: الاستعانة بخواص الأدوية يعني في الأطعمة والدهانات. قال: واعلم أن لا سبيل إلى إنكار الخواص فإن تأثير المغناطيس مشاهد. قلت: يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعي الفقر ويتحايل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعياً أنها أحوال له من مخالطة النيران وسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات . . .

السابع: التعليق للقلب وهو أن يدعي الساحر أنه عرف الاسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور إذا اتفق أن يكون ذلك السامع ضعيف العقل قليل التمييز . . . .

الثامن: السعي بالنميمة والتقرب من وجوه خفيفة لطيفة وذلك شائع في الناس . . . »أ. هـ[1].

---

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج٢، ص ٢٢٤ - ٢٣١ . - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٣٨-١٤٠ .

## علاقة السحر بالأسباب :

من خلال معرفة السحر في اللغة والاصطلاح، ومعرفة أنواع السحر، وجدنا أن السحر داخل في نظام ترتب المسببات على أسبابها، فالسحر يكون بأسباب عدة منها :

أولاً : إما أن يكون بالاستعانة بالشياطين والجن في ذلك، وهو النوع الأول، والثالث[١] من تقسيم الرازي المذكور آنفاً .

ثانياً: وإما أن يكون بالاستعانة بالوهم والنفوس القوية، في عمل بعض الأعمال اعتماداً على قوى النفس التي عندهم . وهو النوع الثاني[٢] .

ثالثاً : وإما أن يكون بالاستعانة بالآلات، والأدوية، والعقاقير، كمافي النوع الخامس والسادس[٣] .

رابعاً : وإما أن يكون بالاستعانة بالضحك على العيون والعقول، كما في النوع الرابع، والسابع، والثامن[٤] .

فنجد إن السحر له أسباب يترتب عليها مسبباتها، كما سبق ذكر الأنوع وأسباب حصول تأثيرها، فهي صنعة مكتسبة يمكن تعلمها، والعمل بها .

بعكس المعجزة والكرامة التي سبق ذكرها فهي من غير أسباب، وإنما عطية من الله عز وجل دون سبب يتعلم، إنما هبة من الله عز وجل لنصرة دينه، وتأييده .

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٣٨-١٣٩ . - ابن عثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد، ج٢، ص٥ .

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٨-١٣٩ . - ابن تيمية، الصفدية، ج١، ص١٧٩-١٩٣ .

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٨-١٣٩ . - ابن عثيمين، القول المفيد، ج٢، ص٥ .

(٤) المصدرين السابقين

ولكن السحر مع أنه خارق للعادة بالنسبة لمن لايعرف هذه الصنعة، فله أسباب معروفة معتادة عند أصحاب هذه الصنعة. يقول ابن تيمية: «. . . فإن السحر هو من الأمور المعتادة كالأسباب التي تحصل بها المرض والموت ونحو ذلك، ومنه أمور تخالف العادة والطبيعة، ولكن هو مما اعتيد أنه يحصل بالشياطين، لكن مقرونا بما يدل على كذبه وفجوره، فلا يشبه كرامات الصالحين فضلاً عن المعجزات»أ. هـ[1].

والأدلة على أن السحر له حقيقة وهو صنعة يمكن تعلمها، ولها أسبابها، فكثيرة في الكتاب والسنة:

١ - قال تعالى: ﴿ **واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وماأنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ومايعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون مايضرهم ولاينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون**﴾ «البقرة: ١٠٢».

هذه الآية دليل على أن السحر صنعة يمكن تعلمها مما علمها من قبل. قال تعالى: ﴿**فيتعلمون منهما** ﴾، وليست كالمعجزة، لايمكن تعلمها، كما سبق أن ذكرنا. فالسحر له حقيقة وتأثير، فإنه يفرق بين المرء وزوجه وهي حقيقة وتأثير. قال تعالى: ﴿**مايفرقون به بين المرء وزوجه**﴾، وكذلك القتل، والأمراض، والعاهات التي تحصل كلها حقائق مشاهدة للإنسان.

يقول النووي: «قال الإمام المازري رحمه الله: مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة، خلافاً لمن أنكر

---

(١) ابن تيمية، الصفدية، ج١، ص١٨٢.

ذلك ونفى حقيقته، وأضاف مايقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها، وقد ذكره الله تعالى في كتابه، وذكر أنه مما يتعلم، وذكر مافيه إشارة إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرق بين المرء وزوجه، وهذا كله لايمكن فيما لا حقيقة له. . . »أ. هـ[١].

ولكن هل هذا السحر يقلب العين، كقلب الجماد حيوان، أو قلب العصا ثعبان، أم أنه مجرد تخييل ؟!!.

إن الله عز وجل قادر على ذلك، على أن يجعل للساحر قدرة على قلب الأمور امتحانا وابتلاء وفتنة، ولكن مانراه في الواقع، وما حدثتنا به الآيات والأحاديث إنه مجرد تخييل، وأخذ بالأبصار. يقول الحافظ الحكمي: « . . . وقد ثبت وتقرر من هذا وغيره تحقق السحر وتأثيره بإذن الله بظواهر الآيات والأحاديث وأقوال عامة الصحابة، وجماهير العلماء رواية ودراية، فأما القتل به والأمراض والتفرقة بين المرء وزوجه وأخذ بالأبصار فحقيقة لا مكابرة فيها، وأما قلب الأعيان كقلب الجماد حيوان وقلب الحيوان من شكل إلى آخر فليس بمحال في قدرة الله عز وجل ولا غير ممكن، فإنه هو الفاعل في الحقيقة وهو الفعال لما يريد، فلا مانع من أن يحول الله ذلك عندما يلقى الساحر ما ألقى امتحانا وابتلاء وفتنة لعباده، ولكن الذي أخبرنا الله تعالى به في الواقع من سحرة فرعون في قصتهم مع موسى إنما هو التخييل والأخذ بالأبصار حتى رأوا الحبال والعصي حيات، فنؤمن بالخبر، ونصدقه ولا نتعداه ولا نبدل قولا غير الذي قيل لنا ولا نقول على الله مالانعلم. وبالله التوفيق. . »أ. هـ[٢].

٢ - قال تعالى: **﴿قل أعوذ برب الفلق من شر ماخلق * ومن شر غاسق إذا وقب * ومن شر النفاثات في العقد * ومن شر حاسد إذا حسد﴾** «الفلق: ١-٤». .

---

(١) النووي، صحيح مسلم بالشرح، كتاب السلام، باب السحر، ج٥، ص٣٥.

(٢) الحكمي، معارج القبول، ج١، ص٥١٢.

يقول ابن القيم: «الشر الثالث: شر النفاثات في العقد، وهذاالشر هو شر السحر، فإن النفاثات في العقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد مايردن من السحر، والنفث: هو النفخ مع ريق، وهو دون التفل، وهو مرتبة بينهما. والنفث: فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقد نفخا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى، مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الأمر الشرعي»أ. هـ[1].

ويقول ابن قدامة في قوله تعالى ﴿**ومن شر النفاثات في العقد**﴾: «أي اللهم أعوذ بك من السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن عليه، ولولا أن السحر موجود وله حقيقة لم نؤمر بالاستعاذة منه»أ. هـ[2].

ويقول شارح الطحاوية: «وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وأنواعه: والأكثرون يقولون: إنه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه...»أ. هـ[3].

فلذلك أمرنا بالاستعاذة منه، وكذلك التداوي من مرضه بالرقى الشرعية، فلو لم يكن له حقيقة لما أمرنا بذلك، ولما ورد النهي عنه في الشرع، والوعيد على فاعله، والعقوبات الدنيوية والأخروية على متعاطيه. ويكفي أن نعرف أن سبب نزولها - أي سورة الفلق - سحر النبي ﷺ، ليكفيه شر السحر بعد ذلك، ويستعيذ منه. فلو كان تخيلاً لما استحق أن نتعوذ منه، أو تنزل كيفية الاستعاذة منه.

---

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد، ج١، ص٤٦٢.

(٢) ابن قدامة، المغني، ج١٠، ص١١٤. بتصرف.

(٣) ابن أبي العز الحنفي، شرح الطحاوية، ص٤٥٢.

٣ - عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ومافعله. حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - وهو عندي، لكنه دعا ثم قال: ياعائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ماوجع الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: في أي شيء؟ قال: في مشطه ومشاطه، وجف طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان. فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه. فجاء فقال: ياعائشة كأن ماءها نقاعه الحناء، وكأن رءوس نخلها رؤوس الشياطين. قلت: يارسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شرا. فأمر بها فدفنت»أ. هـ[1].

هذا الحديث أيضا دليل على حقيقة السحر وتأثيره، فقد أثر على النبي ﷺ وأمرضه، في قولها: «يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ومافعله». كذلك هنا دليل آخر على حقيقة السحر وتأثيره، وهو قولها: «يارسول الله أفلا استخرجته؟ . . . . فأمر بها فدفنت». فهي أشياء دفنت وأخرجت، فهي حقائق.

يقول النووي: «وهذا الحديث أيضا مصرح بإثباته - أي السحر - وأنه أشياء دفنت وأخرجت وهذا كله يبطل ماقالوه، فإحالة كونه من الحقائق محال. . . »أ. هـ[2].

ويقول ابن تيمية: «إن مايأتي به السحرة والكهان ونحوهم هو مما يصنعه الإنس والجن لايخرج ذلك عنهم، . . . ، ومقدورات الجن هي من جنس مقدورات الإنس، لكن يختلف في المواضع فإن الإنسي يقدر على أن يضرب غيره حتى يمرض أو يموت بل يقدر أن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب السحر، ج٧، ص٣٠. مع الفتح (١٠/ ٢٣٢).
(٢) النووي، صحيح مسلم بالشرح، كتاب السلام، باب السحر، ج٥، ص٣٥.

يكلمه بكلام يمرض به أو يموت، فما يقدر عليه الساحر من سحر بعض الناس حتى يمرض أو يموت هو من مقدورات الجن وهو من جنس مقدور الإنس، ومنعه من الجماع هو من جنس المرض المانع له من ذلك، والحب والبغض لبعض الناس كما يفعله الساحر هو من استعانته بالشياطين . . . »أ. هـ[1].

ثم بين بعض الأشياء التي يزيد بها الجني على الإنسي من الطيران في الهواء، والمشي على الماء بدون آلة ما.

فنجد أن الآيات السابقة والحديث دليل على أن للسحر حقيقة وتأثيراً، أما الآيات التي تدل على أنه تخييل وتمويه وأخذ بالأبصار فلا تعارض بين ذلك.

١ - قال تعالى: ﴿**قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفه موسى قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى وألق مافي يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى**﴾ «طه: ٦٦-٦٩».

٢ - قال تعالى: ﴿**قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم**﴾ «الأعراف: ١١٦».

فهاتان الآيتان دليل لمن ظن أن السحر تخييل، وسحر لأعين الناس حيث قال تعالى: ﴿**يخيل إليه**﴾ وقال ﴿**سحروا أعين الناس**﴾ . فكيف يحل هذا الإشكال ؟!!

إن هاتين الآيتين تحدثتا عن سحرة فرعون أمام موسى عليه السلام، فكان ماكان من فعلهم في التخييل بقلب العصى والحبال حيات تسعى، فهذا النوع من السحر هو تخييل قلب الأعيان هو مجرد تخييل لا حقيقة له، وضحك على أعين الناس. ولكن ماسبق أن ذكرناه من التأثير بالمرض، والتفريق، والموت، بغير قلب للعين نفسها، فهو حقيقة لاريب فيها كما ثبت في الآيات والأحاديث السابقة.

---

(١) ابن تيمية، النبوات، ص٢٥٨.

يقول ابن حجر: «قوله: ﴿**يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**﴾. هذه الآية عمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل، ولا حجة له بها لأن هذه وردت في قصة سحرة فرعون، وكان سحرهم كذلك، ولايلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل» أ. هـ[1].

ويقول: «واختلف في السحر فقيل: هو تخييل فقط ولا حقيقة له وهذا اختيار أبي جعفر الاستراباذي[*] من الشافعية وأبي بكر الرازي[**] من الحنفية وابن حزم الظاهري[***] وطائفة. قال النووي: والصحيح أن له حقيقة وبه قطع الجمهور وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة انتهى. لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عين أم لا؟ فمن قال إنه تخييل فقط منع ذلك. ومن قال إن له حقيقة اختلفوا هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعا من الأمراض أو ينتهي إلى الإحالة بحيث يصير الجماد حيواناً مثلاً وعكسه؟ فالذي عليه الجمهور هو الأول، وذهبت طائفة

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب السحر، ج١٠، ص٢٣٦.

(*) حسن بن محمد بن شرفشاه الحسيني الأستراباذي، ركن الدين، عالم الموصل في عصره. له عدة مصنفات منها «شرح مختصر ابن الحاجب»، «شرح الحاوي»، في فقه الشافعية، «شرح الحماسة»، ولد سنة ٦٤٥هـ، وتوفي سنة ٧١٥هـ بالموصل. «انظر: شذرات الذهب، ج٦، ص٣٥، ٤٨. - الأعلام، للزركلي، ج٢، ص٢١٥».

(**) محمد بن زكريا الرازي، أبوبكر، فيلسوف، من الأئمة في صناعة الطب، اشتغل بالكيمياء، ثم عكف علي الطب والفلسفة، فنبغ واشتهر. وتولى تدبير مارستان الري، ثم رياسة اطباء البيمارستان في بغداد، له عدة مصنفات منها «الحاوي»، «المرشد»، «الكافي»، ولد سنة ٢٥١هـ بالري، وتوفي سنة ٣١٣هـ ببغداد. «انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص٣٥٤. - الأعلام، للزركلي، ج٦، ص١٣٠».

(***) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبومحمد، عالم الأندلس في عصره، وأحد الأئمة في الإسلام، كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه، يقال لهم «الحزمية»، له عدة مصنفات «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، «المحلى»، «جمهرة الأنساب»، ولد سنة ٣٨٤هـ بقرطبة، وتوفي سنة ٤٥٦هـ ببادية لبلة من بلاد الأندلس لطرده من الأندلس لتضليل العلماء له. «انظر: شذرات الذهب، ج١، ص٦٢-٦٨. - سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص١٨٤. - الأعلام، للزركلي، ج٤، ص٢٥٤».

قليلة إلى الثاني فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمسلم، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف . . . »أ. هـ[١].

ويقول المازري: جمهور العلماء على إثبات السحر وأن له حقيقة، ونفى بعضهم حقيقته، وأضاف مايقع منه إلى خيالات باطلة، وهو مردود لورود النقل بإثبات السحر، ولأن العقل لاينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو مزج بين قوى على ترتيب مخصوص، . . . . . »أ. هـ[٢].

ويقول ابن القيم: «وقد دل قوله: ﴿**ومن شر النفاثات في العقد**﴾ وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر، وأن له حقيقة. وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لاتأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل ولا حل ولا عقد. قالوا: وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك.

وهذا خلاف ماتواترت به الآثار عن الصحابة والسلف واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف ومايعرفه عامة العقلاء. والسحر الذي يؤثر مرضا وثقلا وحلا وعقدا وحبا وبغضا ونزيفا وغير ذلك من الآثار موجودة تعرفه عامة الناس. وكثير منهم قد علمه ذوقا بما أصيب به منه، وقوله تعالى: ﴿**من شر النفاثات في العقد**﴾ دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه، ولو كان الضرر لايحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً، كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه . . . »أ. هـ[٣].

ثم بين الفرق بين الحقيقة والخيال فيقول: «وأيضاً، فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ماهو به، مع أن هذا تغير في

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب السحر، ج١٠، ص٢٣٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن القيم، بدائع الفوائد، ج١، ص٤٦٩.

إحساسهم، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم؟ وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟ فإذاً غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركا، والمتصل منفصلا، والميت حيا، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب إليه بغيضا والبغيض محبوباً، وغير ذلك من التأثيرات. وقد قال تعالى عن سحرة فرعون إنهم: ﴿**سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم**﴾ «الأعراف: ١١٦». فبين سبحانه أن أعينهم سحرت، وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي، وهو الحبال والعصي، مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها، وهي الشياطين. . . . . . وإما أن يكون التغيير حدث في الرائي حتى رأى الحبال والعصي تتحرك وهي ساكنة في أنفسها. . . . »أ. هـ[١].

فهذه الآيات والأحاديث وأقوال العلماء تثبت لنا حقيقة السحر وتأثيره، وكيف يكون مخالفاً، للمعجزة، بحيث إن المعجزة قلب للعين، فالعصا تقلب حية حقيقة، والقمر ينشق حقيقة، وليس أخذاً بالأبصار، أو تمويهاً على الناظرين. والسحر صنعة تتعلم، فيكون السحر على يد الساحر يفعل ماتعلمه، ولكن المعجزة ليست كذلك فتكون من الله عز وجل إبهاراً للخلق.

فالسحر أحوال وأفعال يفعلها الساحر ويتعلمها ويحصل له مايريده من الخوارق بالاستعانة بالشياطين، وبالآلآت، وبالنفوس القوية والأوهام، ولكن الكرامة لاتحتاج إلى أقوال وأفعال وإنما تقع اتفاقاً بإرادة الله عز وجل، والمعجزة كالكرامة إلاأنها للأنبياء ويقع بها التحدي، وتكون أعلى منزلة وفضيلة، وثوابا، كما قاله ابن حجر[٢].

فالسحر عمل له أسبابه يحصل بها مايريده من مسببات بإذن الله تعالى، فهو داخل في النظام المعتاد، ولكنه بالنسبة للناس العاديين يعتبر خارقاً للعادة، ولايعتبر خارقاً لأهل

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٦٩-٤٧٠.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب السحر، ج١٠، ص٢٣٣.

الصنعة من السحرة، يقول ابن تيمية: «وأما إخبار الكهان ببعض الأمور الغائبة لإخبار الشياطين لهم بذلك وسحر السحرة بحيث يموت الإنسان من السحر أو يمرض ويمنع النكاح ونحو ذلك مما هو بإعانة الشياطين فهذا أمر موجود في العالم كثير معتاد يعرفه الناس ليس هذا من خرق العادة، بل هو من العجائب الغريبة التي يختص بها بعض الناس كما يختص قوم بخفة اليد والشعبذة، وقوم بالسباحة الغريبة حتى يضطجع أحدهم على الماء، . . . . ، فهذه كلها قد يأتي الشخص منها بما لايقدر عليه أهل البلد بل أهل الإقليم لكنها مع ذلك مقدورة مكتسبة معتادة. . . . . . وكذلك الساحر إنما يقتل ويمرض ويصعد في الهواء ونحو ذلك بإعانة الشياطين له. . . »أ. هـ[١].

فالسحر من الأمور المعتادة، التي يمكن تعلمها، فهي أمور مكتسبة، لها أسبابها، ولها مسبباتها، ولها تأثير وحقيقة، في المرض، والحب، والبغض، والموت، ولا حقيقة لها في قلب الأعيان.

فالسحر علاقته بالأسباب والمسببات هو من هذا النظام. فهو سبب من الأسباب المؤثرة بإذن الله عز وجل إرادة كونية لا إرادة شرعية. والله أعلم.

### ٤ - العين:

### في اللغة:

«العين: حاسة البصر والرؤية.

قال ابن السكيت[*]: العين التي يبصر بها الناظر، والجمع أعيان وأعين وأعينات.

والعين المقصودة هنا: الإصابة بالعين.

---

(١) ابن تيمية، النبوات، ص٢٠٦-٢٠٧.

(*) يعقوب بن إسحاق، أبويوسف، ابن السكيت، إمام في اللغة والأدب، اتصل بالمتوكل العباسي، فعهد إليه بتأديب أولاده، وجعله في عداد ندمائه، وله عدة مصنفات منها «إصلاح المنطق»، «الألفاظ»، «النوادر»، أصله من خوزستان بين البصرة وفارس، ولد سنة ١٨٦هـ، وتوفي سنة ٢٤٤هـ قتله المتوكل لسبب مجهول. «شذرات الذهب، ج٢، ص١٠٦. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج١٢، ص١٦. - الأعلام، للزركلي، ج٨، ص١٩٥».

وعان الرجل بعينه عينا ، فهو عائن ، والمصاب معين ، على النقص ، ومعيون ، على التمام : أصابه بالعين .

قال الزجاج : المعين المصاب بالعين ، والمعيون الذي فيه عين .

قال عباس بن مرداس(*) :

قد كان قومك يحسبونك سيدا وإخال أنك سيد معيون

وحكى اللحياني(**) : إنك لجميل ولا أعنك ولا أعنيك ، الجزم على الدعاء ، والرفع على الإخبار ، أي : لا أصبك بعين .

ورجل معيان وعيون : شديد الإصابة بالعين ، والجمع عين وعين ، وما أعينه .

وفي الحديث : العين حق وإذا استغسلتم فاغسلوا[1] .

يقال : أصابت فلانا عين إذا نظر إليه عدو أو حسود فأثرت فيه فمرض بسببها .

وفي الحديث : كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين[2] . وغيرها من الأحاديث . . . . » أ . هـ[3] .

---

(*) العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي ، من مضر ، أبوالهيثم ، شاعر ، فارس ، من سادات قومه ، أمه الخنساء الشاعرة ، أدرك الجاهلية والإسلام ، وأسلم قبيل فتح مكة ، كان في بادية البصر فإذا حضر الغزو مع النبي ﷺ لم يلبث أن يعود إلى باديته ، وهو ممن ذم الخمر وحرمها من الجاهلية ، توفي سنة ١٨هـ ي خلافة عمر رضي الله عنه . «الاستيعاب ، ج٣ ، ص١٠١-١٠٣ . - وانظر : الإصابة ، ج٢ ، ص٢٧٢ . - الأعلام ، للزركلي ، ج٣ ، ص٢٦٧» .

(**) اللحياني لم أجده .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب السلام ، باب الرقى والمرض والطب ، ج٤ ، ص١٧١٩ .

(٢) أخرجه أبوداود في سننه ، كتاب الطب ، باب ماجاء في العين ، ج٤ ، ص٢١٠ . سكت عنه المنذري في عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٠/ ٣٦٣) . وقال الأرنؤوط في تخريج زاد المعاد : ورجاله ثقات ، إسناده صحيح (٤/ ١٦٣) .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، باب العين ، ج٩ ، ص٥٠٥ . - الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، فصل العين ، باب النون ، ج٤ ، ص٢٥١-٢٥٢ .

## وفي الاصطلاح :

يقول ابن حجر : «والعين نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر . . . »أ . هـ[١] .

ويطلق على العين أيضا النفس . يقول ابن القيم : «والنفس : العين ، يقال : أصابت فلانا نفس ، أي : عين . . »أ . هـ[٢] .

## علاقة العين بالأسباب :

سبق أن بينا علاقة السحر بالأسباب ، ومن خلال تعريف السحر ذكرنا أنواعه ، ورأينا أن من ضمن أنواعه النوع الثاني وهو سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، وقد سبق أن عرفنا أنه يمكن أن يطلق على العين نفساً ، فالإصابة بالعين هي الإصابة بالنفس .

يقول ابن كثير : «سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجذع الموضوع على وجه الأرض ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه . . . . قال : وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق - وله أن يستدل على ذلك بما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»[*] - قال فإذا عرفت هذا فنقول النفس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً تستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلآت والأدوات وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات ، . . . . »أ . هـ[٣] .

ولكن كيف تحدث العين الإصابة في المعيون يوضح ذلك ابن القيم[٤] فيذكر أنها ليست من العين بذاتها ، إنما هي من تأثير الروح ، فالروح خلق الله عز وجل لها طبائع

---

(*) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب السلام ، باب الطب والمرض والرقي ، ج٤ ، ص١٧١٩ ، ح٢١٨٨ .

(١) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب الطب ، باب رقية العين ، ج١٠ ، ص٢١٠ .

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ، ج٤ ، ص١٦٨ .

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج١ ، ص١٣٨-١٣٩ .

(٤) ابن القيم ، زاد المعاد ، ج٤ ، ص١٦٦ .

وقوى مختلفة، وهو واضح لكل عاقل، بما يشاهده في الكون من خجل ومايصاحبه من احمرار، والخوف ومايصاحبه من اصفرار، كذلك مشاهدة من يسقم من النظروالعين، وهذا من نفس الإنسان وروحه، وينسب للعين لشدة ارتباطها بالفعل. فهناك من يكون أعمى فيوصف له الشيء فيصاب من وصف له بالعين. فالعين تؤثر من غير اتصال بل بمجرد الرؤية والعجب من ذلك الشيء، لأن التأثير تارة يكون بالاتصال، وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات، وتارة بالوهم والتخييل.

فإذا استعاذ الإنسان، وحصن نفسه بالأدعية المأثورة عن النبي ﷺ ، وأصحابه رضوان الله عنهم، كان في حصن حصين من العين بإذن الله تعالى.

وقد قال ابن حجر[١] مثل قول ابن القيم في تفسير الإصابة بالعين وزاد عليه بعض الأقوال. والراجح من ذلك كله أنه من علم الغيب، وهذه الأقوال وغيرها ماهي إلا اجتهادات من العلماء.

لذلك نقول: الإصابة بالعين من الأمور الغيبية التي جعلها الله عز وجل. أما علاقتها بالأسباب والمسببات، فإن الله عز وجل بقدرته ومشيئته وبحكمته جعل العين تصيب وتحدث ضرراً للمعين، عند الرؤية بكيفية هو يعلمها سبحانه. فهي من ضمن نظام ترتب المسببات على أسبابها. فعند وقوع النظر على شيء يعجب العائن دون الدعاء عليه بالبركة، أو ذكر الله عز وجل تحدث الإصابة بقدرة الله عز وجل وحكمته، أو لاتحدث. قال رسول الله ﷺ : «إذا رأى أحدكم من نفسه وأخيه مايعجبه فليدع بالبركة فإن العين حق»أ.هـ[٢].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب الرقية من العين، ج١٠، ص٢١٠.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الطب، باب إذا رأى أحدكم من نفسه أو أخيه مايحب فليبرك، ج٤، ص٢١٦. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بذكر البركة. وقال الذهبي في التلخيص «صحيح».

والأدلة على الإصابة بالعين، وأنها مؤثرة كثيرة في السنة منها :

١ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : «أمرني النبي ﷺ أوأمر أن يسترقى من العين»أ. هـ[(١)].

٢ - عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة[(*)] فقال : استرقوا لها فإن بها النظرة[(**)]. »أ. هـ[(٢)].

فهذان الحديثان دليلان على الإصابة بالعين، وأن سببها إما عين إنسية كالحديث الأول، أو عين جنية كالحديث الثاني. فالاسترقاء منها مأمور به. يقول ابن القيم : «والعين : عينان : عين إنسية ، وعين جنية ، ثم ذكر حديث أم سلمة السابق »أ. هـ[(٣)].

وقد رد ابن القيم على من قال إن مايحدث من الإصابة بالعين إنما هو عادة أجراها الله عز وجل، من غير أن يكون هناك تأثير أو قوة، فيقول : «وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله العادة بخلق مايشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً، وهذا مذهب منكري الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم، وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب، وخالفوا العقلاء جميعاً»أ. هـ[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الرقية من العين، ج٧، ص٢٣.

(*) السفعة : قال إبراهيم الحربي : هو سواد في الوجه ومنه سفعة الفرس سواد ناصيته، وعن الأصمعي : حمرة يعلوها سواد، وقيل صفرة، وقيل سواد مع لون آخر، وقال ابن قتيبة : لون يخالف لون الوجه، وكلها متقاربة. «فتح الباري، لابن حجر، ج١٠، ص٢١٢».

(**) النظرة : يعني بوجهها صفرة، وقيل : عين من نظر الجن، وقيل من الإنس، والأولى أنه أعم من ذلك وأنها أصيبت بالعين فلذلك أذن في الاسترقاء لها. «فتح الباري، لابن حجر، كتاب الطب، باب رقية العين، ج١٠، ص٢١٣».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الرقية من العين، ج٧، ص٢٣.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ج٤، ص١٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٦٦.

ثم وضح ابن القيم كما سبق أن ذكرنا أن التأثير للروح[(١)] .

وقال الخطابي : «في الحديث - أي السابق الذكر حديث عائشة رضي الله عنها[(*)] - أن للعين تأثيراً في النفوس»أ. هـ[(٢)] .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «العين حق ، ونهى عن الوشم»أ. هـ[(٣)] .

٤ - عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : «العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا»أ. هـ[(٤)] .

فهذان الحديثان أيضا دليلان على تأثير العين ، وأنها من باب ترتب المسببات على أسبابها ، فالله عز وجل قدر أن تكون للعين تأثير في المعين ، أو المعيون ، إذا نظرت إليه بغير دعاء بالبركة ، ومن غير أن يكون المعيون قد ذكر الله عز وجل واستعاذ منها . فتصيب بقدر الله عز وجل . يقول ابن حجر : « . . . ففيهاتأكيد وتنبيه على سرعة نفوذها وتأثيرها في الذات - أي العين[(**)] - »أ. هـ[(٥)] .

ويقول النووي : «في الحديث إثبات القدر وصحة أمر العين وأنها قوية الضرر»أ. هـ[(٦)] .

---

(١) راجع الصفحات السابقة .

(*) زيادة من الباحث .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب الطب ، باب الرقى من العين ، ج١٠ ، ص٢١٠ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الطب ، باب العين حق ، ج٧ ، ص٢٤ .

(٤) سبق تخريجه ص ٢٥٨ .

(**) زيادة من الباحث .

(٥) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب الطب ، باب العين حق ، ج١٠ ، ص٢١٤ .

(٦) النووي ، صحيح مسلم بالشرح ، كتاب السلام ، باب الطب والرقى والمرض ، ج٥ ، ص٣٤ .

فالعين سبب من الأسباب التي يحصل بها المرض والسقم والألم بإذن الله تعالى.
فهي سبب من ضمن الأسباب التي يترتب عليها مسبباتها، ولكنها سبب مضر يجب الاحتراز منه والوقاية منه بالرقى، والاستعاذة كما ورد في الشرع.

فالرقى من العين مبسوطة في كثير من المصادر الإسلامية(*) كالاغتسال، والاستعاذة، وقراءة بعض آيات كتاب الله عز وجل، وبعض الأدعية والإذكارات في أوقات معينة، كما أثر عن النبي ﷺ وليس هو مجال بحثنا.

---

(*) من ضمن المصادر الإسلامية:

١ - ابن القيم، زاد المعاد، ج٤، ص١٦٢-١٧٥.

٢ - ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب الرقى من العين، وباب العين حق، ج١٠، ص٢١٠-٢١٦.

٣ - النووي، صحيح مسلم بالشرح، كتاب السلام، باب الطب والرقى والمرض، وباب الرقية من العين، وباب رقية المريض، ج٥، ص٣٠-٣٤ و ص٤٠-٥٠. وغيرها من المصادر.

# الفصل الرابع

# الآثار المترتبة على اتخاذ الأسباب

تمهيد .

المبحث الأول : الآثار المترتبة على اتخاذ الأسباب الكونية وأحكامها .

المبحث الثاني : الآثار المترتبة على اتخاذ الأسباب الشرعية وأحكامها .

المبحث الثالث : الآثار المترتبة على اتخاذ الأسباب الوهمية وأحكامها .

قد سبق أن عرضنا الأخذ بالأسباب الشرعية والكونية ، وكيفية هذاالأخذ ، وأنه أخذ مأمور به ، وواقع تحت مشيئة الله عز وجل ، إن شاء جعل هذه الأسباب المأمور بها تنتج أو لا ، لذلك يكون الأخذ مع الاعتماد على الله سبحانه وتعالى .

وهنا نريد أن نعرف ماهي الآثار والنتائج المستفادة من الأخذ بالأسباب مع الاعتماد على خالقها وموجدها ، ونريد أن نعرف أيضاً هل كل الأسباب داخلة في الأمر ، أم هناك أسباب أخرى لها أحكام أخرى ؟!!

ونسأل الله عز وجل العون والثبات .

# المبحث الأول

## الآثار المترتبة على اتخاذ

## الأسباب الكونية وأحكامها

قد ذكرنا فيما سبق الأسباب الكونية، وكيفية الأخذ بها مع الاعتماد على الله عز وجل، فوجدنا أن هناك آثاراً لاتخاذ هذه الأسباب في نفوس المؤمنين على حسب اعتبارهم، وتدبرهم، وتأملهم لها، وطريقة الأخذ بها، فظهرت لنا عدة آثار من ضمنها:

## أولاً: زيادة الإيمان بمعرفة الله عز وجل وصفاته من خلال تسخيره للأسباب الكونية:

من خلال عرضنا السابق للأسباب الكونية، وما تحدثه من تأثير في مسبباتها. نجد أن ذلك يدل على وجود إله مسخر لهذه الأسباب لتنتج مسبباتها، التي يستفيد منها الإنسان، فالناظر إلى ملكوت الله عز وجل، والناظر إلى هذا النظام البديع، تزيد معرفته وإيمانه بخالقه وموجده، وخالق هذا الكون ومسخره(*). قال تعالى: **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانها كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾** «فاطر: ٢٧-٢٨».

فهذه الآيات تذكر الأسباب الكونية ومسبباتها، وهي إنزال الماء من السماء، ثم أخرج به: أي بواسطته ثمرات، هذه الثمرات مختلفة الأصناف، والألوان.

ودعا الله عز وجل الناظر في هذه الآية إلى النظر في الجبال، وأنواعها، وألوانها، وأحجامها، وكذلك النظر في أصناف الحيوانات والناس، وألوانهم، وجنسياتهم.

---

(*) يقول عبدالله دراز: «أما قانون السببية فيقرر أن شيئاً من (الممكنات) «لايحدث بنفسه من غير شيء»؛ لأنه لايحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده، «ولايستقل بإحداث شيء»؛ لأنه لايستطيع أن يمنح غيره شيئاً لايملكه هو، كما أن الصفر لايمكن أن يتولد عنه عدد إيجابي، فلابد له في وجوده وفي تأثيره من سبب خارجي، وهذا السبب الخارجي إن لم يكن موجوداً بنفسه احتاج إلى غيره. فلا مفر من الانتهاء إلى سبب ضروري الوجود يكون هو مسبب الأسباب». «انظر: الدنن، لعبدالله دراز، ص١٠٤، ص١٠٤-١٠٥».

ثم يقرر بعد ذلك أن أكثر الناس إيماناً بالله عز وجل هم العلماء، الذين بحثوا في العلم قاطبة ومن ضمنها علم النبات، والحياة، والجبال، والوراثة، وغيرها . فقد ثبت عندهم عن طريق البحث، والتعمق في هذه العلوم، عظمة خالق هذا الكون، وعظيم إتقانه، وتصميمه.

يقول ابن كثير: «أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنة كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر . . . »أ. هـ[1].

وقال تعالى: ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ «الذاريات: ٢٠-٢١».

فالله عز وجل يدعو الإنسان إلى تدبر الآيات في الأرض، من نزول للمطر، وإنبات للزرع، وتسخير الفلك في البحار، والنار للاشتعال، والحديد للصناعة، والنظر والتدبر في النفس الإنسانية، من عين للإبصار، وأذن للسمع، ويد للبطش، . . .، وغيرها.

فالمتدبر والمتأمل لهذه الآيات يزيد يقينا وتسليما وإيمانا لخالق الكون.

قال تعالى: ﴿**والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون**﴾ «النحل: ٥-٨».

هذه الآيات العظام يذكرناالله عز وجل بنعمة هي سبب لمسببات عدة، فيقول ﴿والأنعام خلقها لكم﴾ أي: مسخرة مذللة لتتخذوها سببا كونيا ينتج مسبباته.

فهو سبب واحد كوني وهو الأنعام، ولكن له مسببات كثيرة، واستخدامات، وفوائد جمة. يقول ﴿فيها﴾ أي: في الأنعام، دفء، منافع، أكل، جمال، حمل الأثقال، السفر إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . . . وغيرها.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥٣١.

ألا يزيد ذلك إيمان المرء، ألا يزيد تعظيمه وشكره، وحسن عبادته، ألا يزيد استحياء العبد، وخشيته، وعبادته لله عز وجل، أكثر مما كان عليه من قبل ؟!!

فسبحان الخالق المدبر المسخر.

فهذه الآيات الكريمات وغيرها مما سبق ذكره[١]، دليل للمتأمل في وجود مدبر لهذا الكون، فالأرض بما فيها من جبال، وأنهار، وبحار، وحديد، ومعادن، وأنعام. والسماء بما فيها من سحاب، ومطر، ونجوم، وكواكب، وشمس، وقمر، وليل، ونهار. والإنسان وما أعطاه الله عز وجل من علم بالصناعة، وعلم بالطب، وعلم بالفلك، وتسخير كل ماسبق من أجله ماهذا إلا دليل على وجود إله مدبر، حكيم، عليم، جعل هذا الكون على هذا النظام الدقيق.

فمعرفة الله عز وجل درجات بحسب الإنسان المتأمل لهذا النظام :

١ - فالإنسان الملحد الذي لايعترف بوجود إله، فإن بحثه في المجالات الفلكية، والمجالات الطبية، والمجالات الجيولوجية، والمجالات الصناعية يكتشف من خلال ذلك أن هناك نظاما دقيقا، يسير الكواكب، وهناك نظام دقيق في تكوين الأرض والجبال، ونشوء البحار والأنهار، ويرى من خلال دراسته للمجرات الفلكية عظم هذا الكون، وتنظيم المجرات، وخلق الحواس في الإنسان، وخلق الدواب، مما يدعوه إلى معرفة من وراء هذا الإحكام والإتقان، والنظام، فيحاول البحث عن ذلك، فإما أن يصل، وإما أن لايصل. كما حصل لكثير من علماء الفلك، والطب، والجيولوجيا، وغيرهم. ومنهم جاليلو رائد الفضاء الروسي، وغيره ممن تحدث عنهم كثير من العلماء[٢].

---

(١) راجع الفصل الأول والثاني من هذا الباب.

(٢) كثير من المصادر الإسلامية تحدثت عن قصص لعلماء أسلموا بوجود الإله وهو «الله عز وجل» منها:

١ - عبدالمجيد زنداني، إنه الحق.

٢ - والإنسان المؤمن يزيد إيمانه بقدر ماعرفه من ملكوت الله عز وجل، فكلما رأى آية من آيات الله عز وجل زاد إيمانا وتسليما لها، كما قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء. . .﴾ فكلما زاد العبد علما، كلما زاد يقينا بربه وخشوعا له وتعبدا.

فالإنسان المؤمن يعرف أن تسخير الله عز وجل الكون لبني آدم عليه السلام، من أجل إعانتهم على ماخلقوا له وهوعبادته سبحانه وتعالى، وماذلك إلا ليتيقنوا من وجود الله عز وجل، واستخدام هذه الآيات في الكون للإعانة، ومعرفة الله عز وجل وصفاته من خلال آياته، كذلك استخدامها على الوجه المشروع امتحانا وبلاءاً.

يقول ابن كثير: «ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومننه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نورا وضياءاً يستهدي بها في الظلمات وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه يسير بحركة مقدورة لايزيد عليها ولاينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله. . .»أ. هـ[1].

يقول ابن القيم: «الرب يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته.

والثاني: التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة.

فالنوع الأول كقوله: **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ... الآية﴾** «البقرة: ١٦٤».

---

٢ - كرسي موريسون، العلم يدعو للإيمان.

٣ - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى.

٤ - نخبة من العلماء، الله يتجلى في عصر العلم.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٥٤٥.

وقوله: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب**﴾ «آل عمران: ١٩٠».

والثاني: كقوله: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾ «النساء: ٨٢».....»أ. هـ[١].

ويقول: «ولهذه المعرفة بابان واسعان...

والباب الثاني: التفكير في آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط على خلقه....»أ. هـ[٢].

فالتفكر والتأمل من وسائل المعرفة بالله عز وجل، لذلك نجد الآيات التي تتحدث عن السنن الكونية تنتهي بقوله: ﴿أفلا يتذكرون﴾، ﴿إن في ذلك لآيات لأولى النهى﴾، ﴿إن في ذلك لآيات لأولى الألباب﴾، وهكذا تخاطب ذوي العقول في التفكير والتأمل والتذكر.

ولكن هناك فرق كما سبق أن ذكرنا بين المتأمل لآيات الله عز وجل على أساس عقيدة صحيحة وهو المؤمن، والمتأمل الملحد الذي لايعرف من قبل أن الآيات دليل على وجود الله عز وجل.

لذلك نجد أن المتأمل الملحد ممكن أن ينحرف عن الإيمان بالله عز وجل، بإيمانه بوجود إله آخر غيره والعياذ بالله، ولكن المتأمل المؤمن قد عرف الآيات المسموعة المقروءة، فعندما يشاهد الآيات المحسوسة يتطابق عنده ماسمع مع ماشاهد فيزداد إيماناً مع إيمان.

وهذه المعرفة بالله عز وجل تتضمن معرفة حكمته، ورحمته، وعلمه، وكثير من الصفات:

---

(١) ابن القيم، الفوائد، ص٣١-٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٢١.

**أ - معرفة حكمته عز وجل :**

من خلال معرفتنا بالأسباب الكونية، وكيفية الأخذ بها، وعدم الاعتماد عليها، والاعتماد على خالقها وموجدها، وجدنا أنها مرتبة على أحسن نظام، وأنها دالة على حكمة الله عز وجل، وقدرته، وإبقائه لنظام المخلوقات .

يقول ابن تيمية : «وكل ماخلقه الله فله فيه حكمة كما قال : ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ وقال : ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ وهو سبحانه غني عن العالمين .

فالحكمة تتضمن شيئين :

أحدهما : حكمة تعود إليه يحبها ويرضاها .

والثاني : إلى عباده هي نعمة عليهم يفرحون بها ويلتذون بها، وهذا في المأمورات وفي المخلوقات . . . »أ. هـ[1] .

ويقول أيضاً: « . . وجماهير المسلمين أيضا يقرون بالأسباب التي جعلها أسبابا في خلقه وأمره ويقرون بحكمة الله - التي يريدها - في خلقه وأمره . ويقولون : كما قال الله في القرآن حيث قال : ﴿وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ وقال : ﴿فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة، وجمهور المسلمين على ذلك يقولون : إن هذا فعل بهذا . . . »أ. هـ[2] .

فالله سبحانه وتعالى هو الحكيم القدير، المدبر لهذا الكون على هذا النظام . فحكمته اقتضت ترتب المسببات على أسبابها .

---

(١) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص٣٥-٣٨ .

(٢) المصدر نفسه، ج٨، ص٤٣٠ .

## ب - معرفة رحمته سبحانه وتعالى بعباده :

عندما ذكرنا الأسباب الكونية، والآيات والأحاديث الدالة عليها، وجدنا أن من ضمنها نزول المطر، وإنبات الزرع، وفي ذلك من أسباب التكسب، وأسباب الوقاية مايدل على رحمة الله عز وجل.

فالإنسان عندما يكون صاحب صنعة تحتاج إلى الماء، كالزرع، والرعي، والصناعات التي تحتاج إلى الماء في إتمامها، ففي نزول المطر، وتوفره رحمة لهذا الإنسان لعدم تعطيل صنعته.

وفي تقدم الرياح، وظهور السحب إشارة إلى نزوله، ليأخذ كل إنسان احتياطه من الاحتراز، أو الاستفادة.

كصاحب الفخار عندما يخاف المطر، لعدم فساد آنيته، فيحترز من عدم إصابتها به. فمعرفة أن تراكم السحاب سبب لهطول الأمطار فيه إشارة وتنبيه.

وماهذه إلا أمثلة على رحمة الله عز وجل بعباده في تسخير الأسباب الكونية لهم، ومافيها من مصالح ومنافع في دنياهم وأخراهم.

يقول ابن تيمية: «وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأئمة الإسلام كالفقهاء المشهورين وغيرهم ومن سلك سبيلهم من أهل الفقه والحديث والمتكلمين في أصول الدين وأصول الفقه فيقرون بالقدر، ويقرون بالشرع، ويقرون بالحكمة لله في خلقه وأمره، لكن قد يعرف أحدهم الحكمة وقد لايعرفها، ويقرون بما جعله الله من الأسباب، وما في خلقه وأمره من المصالح التي جعلها رحمة بعباده...» أ.هـ[١].

---

(١) المصدر السابق، ج١٧، ص٢٠١.

### جـ - معرفة علمه عز وجل :

وقد سبق ذكر هذه الصفة في علاقة الأسباب بالقدر[١] .

وهناك الكثير من الصفات التي تعرف من خلال معرفة الله عز وجل بآياته في الكون .

### ثانياً : معرفة مسخرات الكون، وكيفية استغلالها، ومايترتب على ذلك من تسخيرها وتطويرها، والإفادة منها في خدمة الإنسان، وغيرها :

من خلال دراستنا للأسباب الكونية ، عرفنا مسخرات الله عز وجل في هذا الكون ، وتعرفنا على فوائدها في بعض الأمور ، فالإنسان مخلوق عاقل جعل الله عز وجل له العقل ليميزه عن بقية الأحياء ، فإذا أخذ الإنسان المواد الطبيعية بحالتها التي هي عليها لم يستفد منها جميعا ، كالأكل مثلا . فبعض الخضروات ، والنباتات لاتصلح للأكل إلا بعد الطهي ، فاستخدم الإنسان المواقد ، واستخدم النار ، وهذه أسباب من ضمن أسباب استغلال المسخرات الكونية .

كذلك التقطيع أو التكسير أو الهدم ، لابد من مقاطع ، وسكاكين ، وهي من ضمن استخدامات الحديد وهو سبب من الأسباب المسخرة للإنسان .

ففي الصيد استخدم الإنسان السفن ، والمصائد وغيرها . وهكذا مسخرات الكون من أسباب ومسببات ، يأخذها الإنسان بحالتها الأولية ، البدائية فيضيف عليها بعض التطورات إذا احتيجت لذلك ، مما يجعلها أكثر سهولة في استخدامها وأخذها .

فالإنسان مخلوق يحب التطور في شتى المجالات المادية المحمودة ، ويحب التطلع إلى المزيد من العلم والتقنية والتكنولوجيا . يقول الدكتور أحمد سالم الأحمر[*] : «لايكاد

---

(١) راجع ص ٢١٨ من هذا البحث .

(*) أحمد بن سالم الأحمر : استاذ علم الاجتماع المساعد بكلية التربية بطرابلس الغرب «مجلة الباحث» .

يخلو مجتمع إنساني من شكل من أشكال التكنولوجيا . ومع ذلك فإن تحقيق مستوى تكنولوجي يشبه المستوى الذي وصلت إليه المجتمعات المعاصرة التي تدعى بالمجتمعات المتقدمة تكنولوجيا ، لايزال مطمح معظم دول عالم اليوم ، عالم عصر التكنولوجيا»أ . هـ[١] .

فعندما يدعونا الله عز وجل للأخذ بالأسباب الكونية ماهو إلا لمعرفة هذه المسخرات ، وهذه الثروات واستغلالها في كثير من الأمور الحضارية الصناعية ، والطبية ، والفلكية .

قال تعالى : ﴿**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس**﴾ «الحديد : ٢٥» .

فالله عز وجل ذكر في هذه الآية عظم فوائد الحديد ، فقال : فيه بأس شديد ؛ أي : في مواجهة الأعداء ، وفيه منافع للناس أي من صناعة ، وزراعة ، ومعدات كثيرة الاستخدامات . يقول ابن كثير : «وقوله تعالى : ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ أي : وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق وعاند بعد قيام الحجة عليه . . . »أ . هـ[٢] .

ويقول أيضاً : «فيه بأس شديد يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها . . »أ . هـ[٣] .

فهكذا يمكن الاستفادة من الحديد الخام ، الذي هو أحد الأسباب الكونية التي جعلها الله عز وجل سبباً لكثير من التطورات والمسخرات ، ففي مجال الصناعة الحربية استخدم الحديد كمادة لصناعة الدبابات ، والصواريخ ، والمدرعات ، وغيرها من وسائل الحرب ، والقتال .

---

(١) مجلة الباحث ، العلاقات بين التكنولوجيا والقيم الإجتماعية والقرابة والأسرة ، بقلم أحمد بن سالم الأحمر ، العدد الأول «١٩» أيلول - تشرين أول «سبتمبر - أكتوبر» ، عام ١٩٨١م ، ص٩ .

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص٣١٥ .

(٣) المصدر نفسه .

ثم قال ﴿ومنافع للناس﴾ أي : هناك فوائد غير الفوائد الحربية ، وهي منافع أخرى مثل استخدام الحديد في صناعة السكاكين كما أسلفنا ذكرها ، والفؤوس ، وغيرها . يقول ابن كثير : «﴿ومنافع للناس﴾ أي : في معايشهم كالسكة(*) ، والفأس والقدوم(**) ، والمنشار والأزميل(***) ، والمجرفة والآلآت التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوم للناس بدونه ، وغير ذلك . . »أ . هـ[1] .

وقد ذكرنا فوائد الحديد مسبقا[2] .

وكذلك عندما علم المسلم أن الله عز وجل أباح التداوي ، وجعل لكل داء دواء ، استغل ذلك في تطوير المجالات الطبية ، فشيدت المستشفيات ، وتطور الطب من ناحية معداته ، ومختبراته ، وتجاربه ، والكشف عن العلاج المناسب لكل حالة ، مما أدى إلى تطور حضاري ملحوظ في هذا المجال .

ونرى ونشاهد تطور وسائل المواصلات ، وغيرها ، وماهذا إلا لتسخير الله عز وجل للأنعام لركوبها ، مما أدى بالإنسان إلى التفكير في تطوير هذه السنة الكونية ، فصنعت السيارات ، والطائرات ، والقطارات ، والمراكب الفضائية وغيرها .

هكذا كان استغلال السنن الكونية في تطوير حضارة مدنية إيمانية تعتمد على أسباب كونية جعلها الله عز وجل للإنسان لراحته ، وإعانته على أداء أمانته الأساسية وهي عبادة الله عز وجل .

---

(*) السكة : حديدة قد كتب عليها يضرب عليها الدراهم وهي المنقوشة . «لسان العرب ، لابن منظور ، ج٦ ، ص٣١٠» .

(**) القدوم : أداة ينحت بها . «لسان العرب ، لابن منظور ، ج١١ ، ص٦٩» .

(***) الأزميل : مأخوذ من الأزم وهو شدة العض بالفم كله ، وهي أداة تشبه عض الفم والأسنان لنزع المسامير الحديدية وغيرها . «المصادر السابقة ، ج١ ، ص١٣٥» .

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص٣١٥ .

(٢) راجع الفصل الأول ، والثاني من هذا الباب .

## ثالثاً : معرفة مدى تأثير السبب في المسبب - أي : معرفة نظام الكون وتدبيره :

من خلال معرفة الآيات البينة، والأحاديث النبوية الشريفة، ومن كل التأملات في الكون، واستخدام مسخراته، وكذلك من خلال تجارب العلماء، عرفت العلاقة بين السبب والمسبب بعضها ببعض، فوجد أن السبب يحدث المسبب، والمسبب يحدث بالسبب، عند وجود الشروط، وانتفاء الموانع بإرادة الله عز وجل.

فمثلاً باستخدام الدواء المناسب للداء، برأ الإنسان بإذن الله تعالى، وكذلك بالأكل والشرب يحدث الشبع والري بإذن الله تعالى.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله» أ. هـ[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ماأنزل الله داء إلا أنزل له شفاء» أ. هـ[٢].

وهناك الكثير من الآيات والأحاديث الدالة على ترتب المسببات على أسبابها قد ذكرناها آنفاً[٣] كاستخدام السلاح لدفع العدو، واستخدام الدعاء لطلب الحوائج، وغيرها.

يقول ابن تيمية: «وذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ماهي عليه، وهو قد جعل للأشياء أسباباً تكون بها، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ امرأة فيحبلها، فلو قال هذا: إذا علم الله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطء كان

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب لكل داء دواء، واستحباب التداوي، ج٤، ص١٧٢٩.

(٢) سبق تخريجه ص٩٥ .

(٣) راجع الفصل الأول والثاني والثالث من هذا الباب.

أحمق : لأن الله علم أن سيكون بما يقدره من الوطء ، وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له الزرع بما يسقيه من الماء ويبذره من الحب ، فلو قال : إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر ، كان جاهلا ضالا ، لأن الله علم أن سيكون بذلك وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل ، وهذا يروى بالشرب ، وهذا يموت بالقتل ، فلابد من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها»أ . هـ[١] .

ويقول ابن القيم : «فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، . . . وفي الأحاديث الأمر بالتداوي ، وإنه لاينافي التوكل ، كما لاينافيه دفع الجوع ، والعطش ، والحر ، والبرد بأضدادها ، بل لاتتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً»أ . هـ[٢] .

وهذا ماقاله ابن الجوزي في صيد الخاطر[٣] .

فمذهب أهل السنة والجماعة في العلاقة بين السبب والمسبب إن الأسباب لها تأثير في حدوث مسبباتها ، وإن الله عز وجل خالق السبب والمسبب ، وحدوثهما يكون عند تحقق الشروط ، وانتفاء الموانع ، لأن كل سبب له سبب بعده ، أوسبب قبله ، يحدث به المسبب بعون الله عز وجل ، يقول ابن تيمية : « . . . ، ومجرد الأسباب لايوجب حصول المسبب ، فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافياً في حصول النبات بل لابد من ريح مربية بإذن الله ، ولابد من صرف الانتفاء عنه ؛ فلابد من تمام الشروط ، وزوال الموانع وكل ذلك بقضاء الله وقدره . . . »أ . هـ[٤] .

والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة كثيرة منها :

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوي ، ج٨ ، ص٦٨ .

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ، ج٤ ، ص١٥ .

(٣) ابن الجوزي ، صيد الخاطر ، ص٦٩ .

(٤) ابن تيمية ، الفتاوي ، ج٨ ، ص٧٠ .

قال تعالى : ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وماأنزل من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾ «البقرة : ١٦٤» .

هذا دليل على مبدأ السببية الكونية ، وهي ترتب المسببات الكونية على أسبابها الكونية ، بأن نزول المطر سبب لإحياء الأرض الميتة ، والسحاب سبب لنزول المطر ، والرياح سبب لتحريك تلك السحب وسوقها إلى البلد الميت .

وهكذا يقول ابن تيمية : «وذلك أنه مامن سبب من الأسباب إلا وهو مفتقر إلى سبب آخر في حصول مسببه ، ولابد من مانع يمنع مقتضاه ، إذا لم يدفعه الله عنه ، فليس في الوجود شيء واحد مستقل بفعل شيء . . »أ . هـ[١] ، وضرب على ذلك أمثلة بالنار والشمس فيقول : «فالنار التي خلق الله فيها حرارة لايحصل الإحراق إلا بها ، وبمحل يقبل الاحتراق ، فإذا وقعت على السمندل[*] ، والياقوت ونحوهما لم تحرقهما ، وقد يطلى الجسم بما يمنع إحراقه .

والشمس التي يكون عنها الشعاع لابد من جسم يقبل انعكاس الشعاع عليه ، فإذا حصل حاجز من سحاب أو سقف : لم يحصل الشعاع تحته . . »أ . هـ[٢] .

والأدلة من الكتاب والسنة في هذاالموضوع أكثر من أن تحصى .

## رابعاً : الإيمان باليوم الآخر ، وازدياد هذا الإيمان :

من خلال عرضنا السابق للأسباب الكونية وتأثيرها في مسبباتها ، وجدنا أن من ضمن الأسباب الكونية نزول المطر ، وإحياء الأرض الميتة به بإذن الله تعالى .

---

(١) المصدر السابق ، ج٣ ، ص١١٢ .

(*) السمندل : هو طائر يزعمون أنه يدخل النار فلا تحرقه . انظر : «لسان العرب ، لابن منظور ، ج٦ ، ص٣٧٦» .

(٢) ابن تيمية ، الفتاوي ، ج٣ ، ص١١٣ .

وهذا دليل على قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى. كذلك هناك دليل آخر وهوإنبات الزرع في هذه الأرض الميتة دليل على النشأة الأولى، والخلق، فهو دليل أيضاً على البعث ، لأنه أهون عند الله عز وجل.

يقول ابن القيم : «فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات. فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولاإرادة، . . . . ، ومافيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد، ومافيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد . . »أ. هـ[(١)].

ويقول في موضع آخر: « . . . . ثم دعاهم إلى التفكير في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه، حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه، مابين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض، وبين ذلك مع اختلاف منابعها وتنوع أجناسها، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها. ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لاتخفى على المتأمل: ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ ثم قال ﴿كذلك الخروج﴾، أي مثل هذا الإخراج من الأرض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب، خروجكم من الأرض بعد ماغيبتم فيها»أ. هـ[(٢)].

فالله سبحانه وتعالى كما سخر الأسباب الكونية للإنسان للاستفادة منها في الدنيا، كذلك ليتذكر الآخرة والمعاد.

---

(١) ابن القيم، الفوائد، ص٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٦.

والآيات الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة الدالة على ذلك كثيرة منها :

١ - قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج**﴾ «الحج : ٥»

هذه الآية دليل واضح على المعاد ، فإن المتأمل في الكون الواسع بما فيه من سنن كونية من أسباب ومسببات ، تدعو الإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر ، والتصديق به . يقول ابن كثير : «وقوله ﴿وترى الأرض هامدة﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لاينبت فيها شيء ، . . . ، فإذا أنزل الله عليها المطر أهتزت وربت أي : تحركت بالنبات وحييت بعد موتهاوربت أي : ارتفعت لما سكن فيها الثرى ، ثم أنبتت مافيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ، . . . . ، ﴿وأنه يحيي الموتى﴾ أي : كما أحيا الأرض الميتة وأنبت فيها هذه الأنواع ، . . . ﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾ أي : يعيدهم بعدما صاروا في قبورهم رمماً ويوجدهم بعد العدم . . . . »أ . هـ[1] .

٢ - وقال تعالى : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج**﴾ «ق : ٦-١١» .

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٣ ، ص٢٠٢ .

يقول ابن كثير : «فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث . . »أ. هـ[١] .

٣ - قال تعالى : ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى * الم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى**﴾ «القيامة : ٣٦-٤٠» .

هنا يضرب الله -عز وجل- بالأسباب الكونية مثلا يتعظ به الإنسان، ويذكره بالدار الآخرة، إنه كما كان عدماً فجعل له أسباب الحياة من نكاح الأبوين، والإنجاب، فكذلك قادر على أن يعيده من الموت الذي هوأهون عند الله من الخلق من العدم .

---

(١) المصدر السابق، ج٤، ص٢٢٤ .

## أحكام اتخاذ الأسباب الكونية :

من العرض السابق للأسباب الكونية[١] ، يتضح لنا أن الأسباب الكونية تدور في أحكامها مع الأحكام الخمسة الشرعية : واجب ، ومندوب ، ومباح ، ومكروه ، ومحرم ، لأن السبب إذا أمر به الشارع انقلب من كونه كونياً إلى كونه شرعياً . وهي كالتالي :

### أولاً : بالنسبة للوجوب :

هناك أسباب كونية مأمور بها في مواضع تستدعي الوجوب في الأمر باتخاذها ، كاستخدام هذه الأسباب في دفع المهلكات من عدو ، أو داء ، أوضرر محقق .

والأمثلة على ذلك كثيرة منها :

١ - استخدام السلاح ، وأخذ الحذروالحيطة في مواجهة العدو إذا كان مواجها مقابلاً لك . لأمر الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ وصحبه الكرام ؛ بأخذ السلاح والحذر والحيطة في مواجهة الأعداء .

قال تعالى : ﴿**وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أوكنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً أليما**﴾ «النساء : ١٠٢» .

يقول ابن كثير : « . . . . وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية وهو أحد قولي الشافعي . . . »أ . هـ[٢] .

---

(١) راجع الفصل الأول والثاني من هذا البحث .

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج١ ، ص٥١٨ .

٢ – استخدام الماء في الغسل والوضوء، أمر واجب على كل مسلم، لأنه لاتتم طهارته، ولا تقبل صلاته إلا بالطهارة.

قال تعالى: **﴿ياأيها الذين ءامنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾** «المائدة: ٦».

يقول ابن حجر: «... قوله «وقول الله تعالى: ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ قال الكرماني(*): غرضه بيان أن وجوب الغسل على الجنب مستفاد من القرآن...»أ. هـ(١).

ويقول: «.. وأشار بقوله «ماجاء» – باب ماجاء في قوله تعالى «إذا قمتم إلى الصلاة...– إلى اختلاف السلف في معنى الآية فقال الأكثرون: التقدير إذا قمتم إلى الصلاة محدثين. وقال آخرون: بل الأمر على عمومه من غير تقدير حذف، إلا أنه في حق المحدث على الإيجاب، وفي حق غيره على الندب..»أ. هـ(٢).

وهذا ماقاله ابن كثير في تفسيره(٣).

٣ – والأمثلة على الوجوب كثير غير ماسبق فمنها: اتخاذ الملابس للستر لقوله

---

(*) محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني، عالم بالحديث، اشتهر ببغداد، تصدى لنشر العلم ببغداد، وله عدة مصنفات منها «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري»، «ضمائر القرآن»، «شرح مختصر ابن الحاجب»، أصله من كرمان، ولد سنة ٧١٧هـ، وتوفي سنة ٧٨٦هـ وهو راجع من الحج في طريقه إلى بغداد، ودفن فيها. «انظر: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٩٤. – الأعلام، للزركلي، ج٧، ص١٥٣».

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الغسل، التمهيد، ج١، ص٤٢٨.

(٢) المصدر نفسه، كتاب الوضوء، باب ماجاء في الوضوء، ج١، ص٢٨٠.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٢١.

تعالى: ﴿**يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من ءايت الله لعلهم يذكرون**﴾ «الأعراف: ٢٦». وكذلك الأكل والشرب لدفع الجوع والعطش الهالك لقول الله تعالى: ﴿**يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين**﴾ «الأعراف: ٣١». وكذلك التدفئة من البرد، والتبريد من الحر لدفع الهلاك وغير ذلك.

## ثانياً: بالنسبة للندب والاستحباب:

هناك أسباب كونية مأمور بها، ولكن هذاالأمر أمر استحباب وندب، وليس أمر وجوب. وقد فعله النبي ﷺ وحث عليه، من ذلك:

١ - اتخاذ السواك لتنظيف الفم، ورضا الرب عز وجل. فالسواك سبب كوني مأمور به أمر استحباب، وهو من وسائل النظافة، والصحة، ومرضاة الرب عز وجل.

عن حذيفة(*) قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك»أ. هـ[١].

قال ابن دقيق العيد: «فيه استحباب السواك عند القيام من النوم لأن النوم مقتضى لتغير الفم لما يتصاعد إليه من أبخرة المعدة، والسواك آلة تنظيفه فيستحب عند مقتضاه...»أ. هـ[٢].

٢ - اتخاذ الملابس كما أسلفنا للستر أمر واجب، ولكن ألوانها وأشكالها ليست

---

(*) حذيفة بن حسل بن جابر العبسي، أبوعبدالله، صحابي، من الولاة الشجعان الفاتحين، كان صاحب سر النبي ﷺ في المنافقين، ولاه عمر المدائن، وهاجم نهاوند، وغزا الدينور، ثم غزا همدان والري، توفي في المدائن سنة ٣٦هـ، وله في كتب الحديث ٢٢٥ حديثه. «الاستيعاب، ج١، ص٢٧٧-٢٧٨. - انظر: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٣٦١. - الإصابة، ج١، ص٣١٧-٣١٨. - الأعلام، للزركلي، ج٢، ص١٧١».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب السواك، ج١، ص٦٦.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الوضوء، باب السواك، ج١، ص٤٢٤.

داخلة في الوجوب، فمنها المندوب، ومنه المحرم(*)، ومنه المكروه(**). وهنا يهمنا المندوب، والمسنون، والمستحب لكون رسول الله ﷺ يحبه. مثل لباس الثوب الحبرة.

عن أنس رضي الله عنه سئل «أي اللباس كان أحب إلى رسول الله ﷺ، أوأعجب إلى رسول الله ﷺ؟ قال: الحبرة.»أ. هـ[1].

وهي ثياب من كتان أو قطن محبرة، أي: مزينة.

كذلك يستحب لبس البياض. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض. فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم»أ. هـ[2].

وكذلك يستحب القميص من الثياب. عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان أحب الثياب إلى النبي ﷺ القميص »أ. هـ[3].

وغيرها من الأسباب الكونية المستحبة.

## ثالثاً: بالنسبة للإباحة:

هناك أسباب كونية مأمور بها على سبيل الإباحة، وقد تساوى فيها الطرفان: الأخذ والترك.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

١ - اتخاذ البحر وسيلة للعيش، من أكل طعامه، ولبس حلية، وركوبه للتجارة، والسفر، والترحال. قال تعالى: **﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً**

---

(*) من المحرم: جر الثوب خيلاء، والحرير للرجال في غير ضرورة. « انظر: صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، ج٣، باب إباحة لبس الحرير للرجل إذا كان به حاجة، ص١٦٤٦، وباب تحريم جر الثوب خيلاء، ص١٦٥١».

(**) المكروة: لبس المعصفر من الثياب. وهي الثياب المصبوغة بالعصفر، وهو نبات يصبغ به «لسان العرب، لابن منظور، ج٩، ص٢٤٢».

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب فضل لباس ثياب الحبرة، ج٣، ص١٦٤٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الجنائز، باب مايستحب من الأكفان، ج٣، ص٣٢٠. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) المصدر نفسه، كتاب اللباس، باب ماجاء في القميص، ج٤، ص٢٣٧. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

**وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مؤاخر فيه لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾** «النحل : ١٤».

هذه الآية دليل على جواز اتخاذ الأسباب الكونية المسخرة في البحر، ولكن كما سبق أن ذكرنا أن في حالة الضرورة والخوف من الهلاك ينتقل الحكم من الجواز إلى الوجوب. ولكن في الأحوال العادية يكون حكمها الجواز والإباحة.

٢ - استخدام الدواب، للركوب، والجلود للدفء، وللاستعانة بها بعد الله عز وجل في السفر، والتجارة.

قال تعالى: **﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون﴾** «النحل : ٥-٨».

وغير ذلك من المباحات.

## رابعاً : بالنسبة للكراهة :

هناك أسباب كونية حكمها الكراهة في الاتخاذ. ومن الأمثلة على ذلك:

١ - اتخاذ التداوي للعلاج مأمور به، ولكن الكي وهو سبب كوني مكروه في العلاج به[١].

٢ - اتخاذ الملابس للستر مأمور به، ولكن لبس الثياب المعصفرة سبب كوني مكروه في اللباس. عن علي رضي الله عنه قال: نهاني النبي ﷺ عن لبس القسى(*) والمعصفر» أ. هـ[٢].

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث ص ٢٠٣. والحكم وأقوال العلماء راجع ص٢٠٣ من هذا البحث.

(*) القسي: ثياب مضلعة أو مخططة.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب اللباس، باب ماجاء في كراهية المعصفر للرجال، ج٤، ص٢١٩، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن لبس الرجل الثوب المعصفر، ج٣، ص١٦٤٨ بزيادة في الرواية.

## خامساً : بالنسبة للتحريم :

هناك أسباب كونية حكمها تحريم اتخاذها ، ومن الأمثلة على ذلك :

١ - اتخاذ الخمر للتداوي وهومحرم بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة والجماعة.

قال تعالى: ﴿**يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما..الآية**﴾ «البقرة: ٢١٩».

وقال تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ «المائدة: ٩٠».

وقد سبق ذكر الحديث من السنة[١] .

٢ - وأكل الربا، وأموال الناس بالباطل للتكسب، والشرب في آنية الذهب والفضة ظناً أنها من الأسباب الكونية ، وهي محرمة.

٣ - اتخاذ جميع الأسباب الكونية، والاعتماد عليها بالكلية، وأن كانت مأموراً باتخاذها فهو شرك في التوحيد، وهو محرم[٢] .

وهناك بعض الأسباب تدور فيها الأحكام الخمسة كالتداوي[٣]، والنكاح . كذلك فحكمه الوجوب لمن خاف على نفسه العنت، وحكمه الأباحة لمن لا شهوة له، وحكمه التحريم لمن هو بدار حرب إلا لضرورة، وحكمه الندب لذي شهوة، وهو من سنة المرسلين عليهم السلام[٤] .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٠٩ .

(٢) راجع الفصل الثاني، والثالث.

(٣) راجع ص ١٩٩ - ٢٠٩ من هذا البحث .

(٤) عثمان النجدي الحنبلي، هداية الراغب، ص٤٤٩-٤٥٠ .

# المبحث الثاني

## الآثار المترتبة على اتخاذ الأسباب الشرعية وأحكامها

قد ذكرنا فيما سبق الأسباب الشرعية، وكيفية الأخذ بها مع الاعتماد على الله عز وجل، فوجدنا أن هناك آثاراً لاتخاذ هذه الأسباب في نفوس المؤمنين على حسب اعتبارهم، وتدبرهم، وتأملهم لها، وطريقة الأخذ بها، فظهرت لنا عدة آثار من ضمنها :

## أولاً : معرفة الغاية من خلق الإنسان :

من خلال عرضنا السابق للأسباب الشرعية ، عرفنا مدى تأثير الأسباب الشرعية في مسبباتها، وكيف يكون الجزاء عليها في الآخرة.

فالدنيا دار رحيل وسفر، والآخرة دار بقاء.

فالإنسان عندما يقوم بالأسباب الشرعية، ويتخذها، على اعتبار أنها وسائل للوصول إلى مسبباتها من دخول الجنة، والنجاة من النار.

فمن هنا نعرف أن الإنسان ماخلق إلا ليأخذ بهذه الأسباب الشرعية، أي: عابداً لله عز وجل مطبقاً لشرعه، متبعا لرسله عليهم السلام، للفوز بالآخرة.

فيجتهد في الأسباب الشرعية في هذه الدنيا الفانية ، الزائلة للوصول إلى الآخرة الباقية، فيعرف أنه ماخلق إلا ليعبد الله عز وجل، ويلتجيء إليه بالعبادة. ويسخر كل ماحوله لهذا الغرض المنشود الذي خلق من أجله وهو العبادة لله عز وجل، والإعانة عليها(*).

يقول ابن القيم: «ولما أهبطه سبحانه - أي آدم من الجنة - وعرضه وذريته لأنواع المحن والبلاء أعطاهم أفضل مما منعهم، وهو عهده الذي عهد إليه وإلى بنيه، وأخبر أنه من

---

(*) كل عمل موافق للشرع، ويعمله الإنسان يصبح عبادة حتى ولو كان أكلاً وشرباً، إذا قصد به العبادة، وكانت نيته لله عز وجل. وكان موافقاً لسنة المصطفى ﷺ ، ولم يحدد بوقت أو زمن معين يخرجه من العبادة إلى البدعة.

تمسك به منهم صار إلى رضوانه ودار كرامته . قال تعالى عقب إخراجه منها : ﴿**قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ . . . . ، فلما كسره سبحانه بإهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد الذي عهده إليهم»أ . هـ[١] .

ويقول في موضع آخر : « . . . ، والمقصود أن جواب الشرط في الآية المذكور جملة شرطية وهي قوله : ﴿**فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ وهذا الشرط يقتضي ارتباط الجملة الأولى بالثانية ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب فيكون الشرط الذي هو ملزوم علة ومقتضياً للجزاء . . . »أ . هـ[٢] .

فهذان النصان دليلان على الغاية والغرض من خلق الإنسان وهو العبادة ، لحصول المطلوب وهو دخول الجنة ، والنجاة من النار .

١ - قال تعالى : ﴿**من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون**﴾ «النحل : ٩٧» .

فقد رتب الله عز وجل الحياة الطيبة في الآخرة على العمل الصالح ، وهو دليل على أن الدنيا دار عمل وعبادة ، والآخرة دار جزاء .

وفي المقابل من ذلك قال تعالى : ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾ «طه : ١٢٤» .

فقد رتب الخسران على الإعراض عن العمل .

٢ - قال تعالى : ﴿**وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ «الذاريات : ٥٦» .

ذكر الله عز وجل هذه الآيات بعد أن ذكر أحوال الأنبياء مع أقوامهم ، وحال نبينا محمد ﷺ مع قومه ، وما لقوه من إعراض ، فذكرهم بالغرض من خلقهم وهو عبادته والاستجابة لنداء الحق .

---

(١) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ، ج١ ، ص٥٥-٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٥٦ .

يقول عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ : «قال العماد بن كثير : وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور وذلك هو حقيقة دين الإسلام . لأن الإسلام : الاستسلام لله تعالى ، والمتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع . انتهى .

وقال أيضاً في تفسير هذه الآية : ومعنى الآية : أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لاشريك له . فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء . ومن عصاه عذبه أشد العذاب . . . »أ . هـ[١] .

٣ - وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : «كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي : «يامعاذ ، أتدري ماحق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله : أن لايعذب من لايشرك به شيئا . قلت : يارسول الله ، أفلا أبشر الناس؟ قال : لاتبشرهم فيتكلوا»أ . هـ[٢] .

هذا الحديث حق يترتب عليه حق ، أي سبب يترتب عليه مسبب ، فإن الله -عز وجل- له حق وهو عبادته التي من أجلها خلق الإنسان ، والإنسان عندما يقوم بهذه الأمانة يكون له حق وهو دخول الجنة ، ولايعذب .

**مسألة :**

هل هذا الجزاء الأخروي تفضل وإنعام ، أم استحقاق ؟

الجزاء الأخروي تفضل وإنعام ، وماذاك إلا لحقارة عمل الإنسان بجانب ماأعطاه الله عز وجل من النعم ، فالإنسان لايستطيع أن يبلغ منزلة المكافأة لربه على ماأعطاه فهو عاجز عن ذلك .

---

(١) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ، فتح المجيد ، ص١٤ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التوحيد ، باب ماجاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، ج٨ ، ص١٦٤ .

قال تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم**﴾ «النحل: ١٨».

وقال ﷺ: «لن ينجي أحداً منكم عمله. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا يتغمدني الله برحمته - وفي رواية - إلا أن يتغمدني الله برحمة وفضل»أ. هـ[١].

يقول ابن تيمية: «وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي سبب، ولهذا قال النبي ﷺ: «إنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» وقد قال: ﴿**ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾ فهذه باء السبب، أي بسبب أعمالكم، والذي نفاه النبي ﷺ باء المقابلة كما يقال: اشتريت هذا بهذا، أي: ليس العمل عوضاً وثمناً كافياً في دخول الجنة، بل لابد من عفو الله وفضله ورحمته فبعفوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف البركات»أ. هـ[٢].

ويقول: «كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق من إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوق على المخلوق...»أ. هـ[٣].

وقد فصل ابن تيمية هذا الموضوع في كتابه جامع الرسائل[٤].

## ثانياً: الازدياد من الطاعة، وترك المعصية، لمعرفة تأثير ذلك على الفلاح أو الخسران:

فالإنسان عندما يعرف تأثير السبب في المسبب، ويعرف الغرض من وجوده، ويعرف أنه لم يخلق عبثاً، وأن المجازي هو أعدل العادلين، وأحكم الحاكمين، كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم.

---

(١) سبق تخريجه، وشرحه، ص ١٥٩.

(٢) ابن تيمية، الفتاوي، ج٨، ص٧٠.

(٣) عبدالرحمن آل الشيخ، فتح المجيد، ص٢٧.

(٤) ابن تيمية، جامع الرسائل، ص١٣٥-١٥٢.

قال تعالى: ﴿**إن الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون**﴾ «يونس: ٤٤».

وقال تعالى: ﴿**اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب**﴾ «غافر: ١٧».

وقال تعالى: ﴿**فاليوم لاتظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ماكنتم تعملون**﴾ «يونس: ٥٤».

فالآيات أتت بلفظ «لايظلم»، «لاظلم»، «لاتظلم»، نافية الظلم عن الله عز وجل، بل لكل نفس ماكسبت، فعند معرفة ذلك يزداد الإنسان تقرباً إلى الله عز وجل، وبعداً عن معاصيه.

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «ياعبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، ياعبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، ياعبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، ياعبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئاً، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله عز وجل، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» أ. هـ[1].

هذا الحديث دليل على العدل الإلهي، في الجزاء الأخروي من عدة أوجه:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ج٤، ص١٩٩٤. - زين الدين المناوي، الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية، ص٣٨-٣٩.

أولاً : قوله : « إني حرمت الظلم »

ثانياً : قوله : « فاستغفروني أغفر لكم » .

ثالثاً : قوله : « إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» .

قوله : «من وجد خيراً فليحمد الله عز وجل» لأنه زيادة في الخير ، وفضل ، ومنّة ، منه سبحانه وتعالى . ليس استحقاقاً للعبد .

وقوله : «ومن وجد غير ذلك» أي من الشر ، والمعاصي ، والعذاب . «فلا يلومن إلا نفسه» لأنه جزاء بما اقترفت يداه «ولا يظلم ربك أحدا» .

كل هذه النصوص وغيرها دالة على عدل الله عز وجل ، وحكمته ، وحكمه بالعدل ، مما يجعل المؤمن عند معرفة ترتب المسببات من دخول الجنة والفوز بها ، على أسبابها من عبادة الله عز وجل ، والتزود بالطاعات زيادة في إيمانه بالله عز وجل(*) ، والمضي قدماً نحو الطاعة ، وترك المعصية لمعرفة تأثير ذلك على الفلاح والخسران .

والأدلة على ذلك كثيرة :

١ - قال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم**﴾ «الصف : ١٠-١٢» .

عند التعبير في هذه الآية بقوله «تجارة» ، إثارة للانتباه ، ماهي هذه التجارة إما الفوز ، وإما الخسران؟!

---

(*) مذهب أهل السنة والجماعة على إن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية . «ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب الريمان ، ج١ ، ص١٦٠-١٦٦» .

يقـول تجارة مع الله عـز وجل بالإيمان به وبرسـوله، وجـهـاد في سـبـيله، بالمال والنفس، يكون مقابلها: غفران الذنوب، ودخول جنات تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة في جنات عدن. وذلك هو الفوز، والخسران يكون بترك ذلك كله.

٢ - قـال تعـالى: **﴿قـد أفلح المؤمنون * الذين هم في صـلاتهم خـاشـعـون * والذين هم عن اللغـو مـعرضـون * والذين هم للزكـاة فـاعلون * والذين هم لفـروجـهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فـأولئك هم العـادون * والذين هم لأمـانتـهم وعـهـدهم راعـون * والذيـن هم على صلواتهم يحـافظون * أولئك هم الوارثون * الذيـن يرثون الفردوس هم فـيـهـا خـالدون﴾** «المؤمنون: ١-١١».

في هذه الآيات قـال **﴿قد أفلح المؤمنون﴾** ليتسـاءل القارئ من أول لحظة لماذا؟!! فيأتيه الرد بالأعمال التي يفعلها المؤمنون، الذين يرثون الفردوس الأعلى.

فمن عرف هذه الآيات وغيرها ممن سبق ذكرها، عرف أن عمله وعبادته لن تذهب سدى، بل رتب الله عز وجل المثوبة على العمل الصالح، فكلما زاد العمل زاد الأجر.

وهذا فيه رفع للهمم والطاقات في بذل العبادة بجميع أنواعها لله عز وجل. يقول ابن رجب: «. . . . وقـال: «ومن يعـمل من الصـالحـات وهو مـؤمن فـلا يخـاف ظلمـا ولا هضـمـاً. والهـضـم: أن ينقص من جزاء حسناته، والظلم: أن يعاقب بذنوب غيره، ومثل هذا كثير في القرآن. . .»أ. هـ[١].

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «إن الله تعـالى قال: من عـادى لي وليا فقـد آذنته بالحرب، ومـا تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولايزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع

---

(١) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، ص٢٢٢.

به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»أ. هـ[1].

هذا الحديث يدل على الفلاح في الدنيا قبل الآخرة بسبب الأعمال الصالحة وهو أن يصبح العبد ولياً لله -عز وجل- بعمله الصالح.

يقول ابن حجر: «المراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته. . .»أ. هـ[2].

فإذا زاد عمله يرتقي من درجة الإسلام إلى درجة الإيمان، ومن درجة الإيمان إلى درجة الإحسان وهكذا حتى يصل إلى حالة يكون معها بالحالة التي وصفت في الحديث في قوله: «ولايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل، حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، . . . .» يقول ابن حجر: «وقال الخطابي: أمثال - أي ماسبق من المشي والبطش وغيرها- والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة مايكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى مانهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله. . .»أ. هـ[3].

## ثالثاً: الإيمان بدار الآخرة، «بدار الجزاء»:

من خلال العرض السابق للأسباب الشرعية، تدعو الإنسان إلى التفكير لماذا أعمل؟ لماذ أعبد؟ متى هذا الجزاء المترتب على هذه الأعمال وهذه العبادات؟!!

تساؤلات تخطر على قلب وفكر وعقل الإنسان، لكن لا حيرة في الإسلام، فقد جاء الرسول ﷺ بالدين الكامل، الذي يجيب عن جميع التساؤلات بالنصوص من الكتاب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، ج٧، ص١٩٠.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الرقاق، باب التواضع، ج١١، ص٣٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٥٢.

والسنة. قال تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾** «المائدة: ٣». فمادام كملت الرسالة، فلابد من إجابة لهذه التساؤلات.

يقول تعالى: **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم ولكم فيها ماتدعون﴾** «فصلت: ٣٠-٣١». هذه الآية خطاب للذين أخلصوا العمل لله عز وجل، وعملوا بطاعة الله تعالى على ماشرع لهم. يخاطبهم بأنهم إذا حضرتهم ساعة الموت تتنزل عليهم الملائكة تهدئ من روعهم بأن لايخافوا مما هم مقدمون عليه من الآخرة، ولايحزنوا على مافاتهم من متاع الدنيا الفانية، وتبشرهم بالجنة التي كانوا يوعدون بها في الدنيا، وتخبرهم الملائكة بأنهم كانوا أولياءهم في الحياة الدنيا، يسددونهم، ويوفقونهم، ويحفظونهم بأمر الله، وكذلك في الآخرة نكون معكم نؤنس وحشتكم في القبور، وعند النفخة، وعند البعث والنشور[١].

فهذه الآية تجيب عن التساؤلات السابقة. اعمل، لأجزيك على ذلك خير الجزاء، متى؟ يوم القيامة. قال تعالى: **﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين. وماكان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾** «آل عمران: ١٤٦-١٤٨».

فالله عز وجل في هذه الآية يذكر حال المجاهدين في سبيله مع الأنبياء، ومايلقونه في سبيل ذلك من الأذى، والثبات والصبر عليه، وسؤال الله عز وجل المغفرة، والثبات، والنصر على الأعداء.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص١٠١.

قال تعالى: «فآتاهم» أي: فأثابهم، وجزاهم بما قالوا، وبما دعوا، ثواب الدنيا، بالنصر، والثبات، والغنائم. وحسن ثواب الآخرة من الثواب العظيم، ورفع الدرجات، ودخول الجنات.

فالله -عز وجل- يبين للمتسائل أن السابقين من المجاهدين، والعاملين بشرع الله عز وجل، كان جزاؤهم في الدنيا والآخرة. والآخرة خير وأبقى.

فهذه الآيات الكريمات وغيرها دليل على الجزاء وترتبه على أسبابه من الاعمال الصالحة، وأن هذا الجزاء يكون في الدنيا والآخرة. والدار الآخرة هي الدار الباقية، ذات النعيم المقيم، والأفضلية.

قال تعالى: ﴿**وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون**﴾ «الأنعام: ٣٢». فالله عز وجل يحرض المؤمنين على الأعمال الصالحة، وترك الدنيا بما فيها من لعب ولهو زائل، والتوجه إلى الآخرة الباقية، التي فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثم يقول: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون**﴾ «المؤمنون: ١١٥». فهل تظنون أنَّا خلقناكم عبثا، من غير غاية، ولا سبب، وأن الطائع مثل العاصي، بل هناك رجعة، وهناك دار جزاء وحساب.

وقال تعالى: ﴿**أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين ءامنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون**﴾ «الجاثية: ٢١». ويخبرهم بأن التسوية بين المتناقضين مستحيلة، فكيف إذا كانت تقتضي ظلماً، وهضماً. أيكون الكافر كالمؤمن، العامل كالقاعد؟! بل لابد من جزاء وحساب، ولابد من دار لذلك الحساب.

فالإيمان بالأسباب الكونية والشرعية يدعو للإيمان باليوم الآخر، فالأسباب الكونية قد سبق أن بينا وجه دعوتها للإيمان باليوم الآخر، والأسباب الشرعية من ناحية العدل الإلهي، وعدم عبثية الخلق. فإلى متى العمل، ومتى الجزاء؟

فالأسباب الشرعية جعلها الله عز وجل لتجيب، العمل إلى اليوم الآخر، للتطلع إليه، ويكون فيه الجزاء. فالدنيا دار كد وعمل، والآخرة دار جزاء.

وعن المقداد بن الأسود(*) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى الشمس، يوم القيامة، من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل» قال سليم بن عامر(**): «فوالله! ماأدري مايعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين. قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق. فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه. ومنهم من يكون إلى حقويه. ومنهم من يلجمه العرق إلجاما. «قال وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه.»أ. هـ[1].

فهذا الحديث يجيب عن تساؤل من يقول: «أخذنا بالأسباب الشرعية، خوفاً من الوقوع في الهلاك، ومنه إلجام العرق لنا، ولكن متى يكون الجزاء؟.

فهذا الحديث يقول: إن هذا يكون يوم القيامة، وهو اليوم الآخر، يوم الجزاء والحساب. فالشمس تقرب من الأرض، وكلاً يلجم على حسب عمله، فكلما زاد العمل قل العرق، وكلما زادت المعاصي زاد العرق، والعياذ بالله من ذلك.

وهناك العديد من الأحاديث قد رواها اللالكائي في أصوله[2].

وكذلك مشاهد الحياة، فترك الظالم العاتي على الفقراء والمساكين، والمتجبر في الأرض، يموت وهو مازال في سعادة، وهناء في الدنيا. كذلك ترى المؤمن، المجاهد في

---

(*) المقداد بن عمرو، ويعرف بابن الأسود، الكندي البهراني الحضرمي، أبومعبد، أو أبوعمرو، صحابي من الأبطال، هو أحد السبعة الذين أظهروا الإسلام، وهو أول من قاتل على فرس، وشهد بدراً وغيرها. ولد سنة ٣٧ ق. هـ في حضرموت. وتوفي سنة ٣٣هـ بالقرب من المدينة المنورة. «الاستيعاب، ج٣، ص٤٧٢-٤٧٦. - الإصابة، ج٣، ص٤٥٤-٤٥٥. - الأعلام، للزركلي، ج٧، ص٢٨٢».

(**) سليم بن عامر الكلاعي الجنابري الحمصي، حدث عن المقداد بن الأسود، ويجوز روايته عن المقداد ونحوه مرسلة، وثقه أحمد بن عبدالله العجلي، وقال أبوحاتم: لا بأس به، روى شعبة عن يزيد بن حمير قال: سمعت سليم بن عامر، وكان قد أدرك النبي ﷺ، قال يحيى بن معين: سليم بن عامر الكلاعي زعم أنه قرأ عليهم كتاب عمر رضي الله عنه، وقال أبوقاسم بن عساكر: شهد فتح القادسية، وقال محمد بن سعد والخياط: أنه مات سنة ١٣٠هـ. «سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج٥، ص١٨٥-١٨٦».

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، ج٤، ص٢١٩٦.

(٢) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج٦، ص١٢٥٤.

السجون، وفي الفقر، والتعاسة، يموت كلا الاثنين، ويدفنان في قبورهما.

يسأل الإنسان هل يترك ذاك الظالم بدون حساب، ولا عتاب؟!!

وهل يحرم المؤمن من سعادة الحياة الدنيا، ويموت، ولم يجز على عمله؟!!

يجيب القرآن عن ذلك:

قال تعالى: ﴿ **وماخلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار * أم نجعل الذين ءامنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾ «ص: ٢٧-٢٨».

ويتعجب الله عز وجل، ويستنكر على أهل العقول، أتعتقدون أننا سوف نعامل هذا مثل هذا؟ ساء مايحكمون.

وقال تعالى: ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ «القيامة: ٣٦».

وأيضاً يستفهم الله عز وجل، استفهام تعجب واستنكار، أيحسب الإنسان أن يترك بلا حساب ولا عقاب؟! أيحسب أن موته نهاية الحياة فلا جزاء ولا انتقام؟!!

سبحان الله عما يصفون!

**مسألة:**

ماعلاقة الأسباب بالسنن الكونية؟

الأسباب الكونية ماهي إلا جزء من السنن الكونية

ما الفرق بين السنن الكونية، والسنن الشرعية، من حيث الثبات، والتغير، وما نتيجة ذلك على اختلاف الأمة؟

السنن الكونية ليست ثابتة بل هي متغيرة من وقت لآخر، تابعة لقدرة الله عز وجل. أما بالنسبة للسنن الشرعية فهي ثابتة.

قال تعالى: ﴿ **سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا** ﴾ «الإسراء: ٧٧».

قال تعالى: ﴿ **ماكان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ «الأحزاب: ٣٨»، وقال: ﴿ **ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا * سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾

«الأحزاب: ٦١-٦٢». وقال: ﴿ **فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾ «فاطر: ٤٣». وقال: ﴿ **سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون** ﴾ «غافر: ٨٥». وقال: ﴿ **ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون ولياً ولا نصيرا سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ «الفتح: ٢٢-٢٣»، وغيرها من الآيات.

فهذه كلها تتعلق بأوليائه، وأعدائه. فسنته في أوليائه إكرامهم، وسنته في أعدائه إهانتهم وعقوبتهم[(١)]. يقول ابن تيمية: «وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته في الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من العادات، فإن هذه السنة ينقضها إذا شاء بما شاءه من الحكم، كما حبس الشمس على يوشع، وكما شق القمر لمحمد ﷺ . . . .»أ. هـ[(٢)].

ويثبت بعد ذلك بالأدلة كيفية تغيير السنن الكونية. أي: السنن المتعلقة بالأسباب الكونية الطبيعية.

فيقول: «وأما بيان الدلالة فمن وجوه:

أحدها: أن يقال: العادات الطبيعية ليس للرب فيها سنة لازمة، فإنه قد عرف بالدلائل اليقينية أن الشمس والقمر والكواكب مخلوقة بعد أن لم تكن، فهذا تبديل وقع. قال تعالى: ﴿**يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات**﴾ «إبراهيم: ٤٨».

أيضاً: فقد عرف انتقاض عامة العادات، فالعادة في بني آدم ألا يخلقوا إلا من أبوين، وقد خلق المسيح من أم، وحواء من أب، وآدم من غير أم ولا أب، وإحياء الموتى متواتر مرات متعددة، وكذلك تكثير الطعام والشراب لغير واحد من الأنبياء والصالحين عليهم السلام.

وأيضاً: فعندكم تغيرات وقعت في العالم كالطوفانات الكبار فيها تغيير العادة.

وهذا خلاف عادته التي وعد بها وأخبر أنها لاتتغير لنصرة أوليائه وإهانة أعدائه فإن هذا علم بخبره وحكمته.

---

(١) ابن تيمية، جامع الرسائل، ص ٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٢.

أما خبره فإنه أخبر بذلك ووعد به، وهو الصادق الذي لايخلف الميعاد، وهذا يوافق طرق جميع طوائف أهل الملل، ويقولون: مقتضى حكمته أن يكون العاقبة والنصر لأوليائه دون أعدائه، كما قد بسط ذلك في مواضع.»أ. هـ[١].

نتيجة ذلك على اختلاف الأمة :

١ – أن المعتزلة جعلوا السنن الشرعية ، والسنن الكونية الطبيعية ثابتة لاتتغير، حتى وصلوا إلى درجة الوجوب على الله عز وجل في جعل هذه السنن ثابتة لمصلحة العباد[٢].

٢ – لكن الأشاعرة عكسهم تماماً جعلوا السنن الشرعية، والسنن الكونية الطبيعية متغيرة دائماً. لا ثبات لها، واقعة تحت المشيئة الإلهية[٣].

٣ – أهل السنة والجماعة كانت الطائفة الوسط بين هؤلاء . بأن السنن الكونية متغيرة واقعة تحت قدرة ومشيئة الله عز وجل يغيرها متى ماشاء.

أما بالنسبة للسنن الشرعية فهي ثابتة لاتتغير لخبره، وحكمته.

يقول ابن تيمية : «وأما الأمور الطبيعية فإما أن تقع بمحض المشيئة على قول، وإما أن تقع بحسب الحكمة والمصلحة على قول. وعلى كلا التقديرين فتبديلها وتحويلها ليس ممتنعاً كما في نسخ الشرائع وتبديل آية بآية، فإنه إن علق الآية بمحض المشيئة فهو يفعل مايشاء، وإن علقها بالحكمة مع المشيئة، فالحكمة تقتضي تبديل بعض ما في العالم، كما وقع كثير من ذلك في الماضي وسيقع في المستقبل. . .»أ. هـ[٤].

---

(١) ابن تيمية، جامع الرسائل ، ص ٥٣-٥٤ .

(٢) سيأتي شرح مذهب المعتزلة في الباب الثاني إن شاء الله تعالى.

(٣) سيأتي شرح مذهب الأشاعرة في الباب الثاني إن شاء الله تعالى .

(٤) ابن تيمية، جامع الرسائل ، ص ٥٤ .

## أحكام اتخاذ الأسباب الشرعية :

من العرض السابق للأسباب الشرعية، يتضح لنا أن الأسباب الشرعية تدور في أحكامها مع الأحكام الخمسة؛ واجب، ومندوب، ومباح، ومكروه، ومحرم، وهي كالتالي :

**أولاً : بالنسبة للوجوب** : هناك أسباب شرعية مأمور بها، وحكم هذا الأمر باتخاذها الوجوب.

ومن الأمثلة على ذلك :

١ - الأمر بالصلاة، والزكاة. فهي من الأسباب الشرعية الموصولة إلى الغاية وهي دخول الجنة، وهي أحد الأركان الخمسة للإسلام. وحكمها الوجوب. قال تعالى : ﴿**وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير**﴾ «البقرة : ١١٠».

٢ - الأمر بالصيام له نفس الحكم، ونفس العلة السابقة. قال تعالى : ﴿**ياأيها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾ «البقرة : ١٨٣».

وغيرها كثير كالحج، والسعي في العمرة، والحج، والإيمان بالله، وملائكته، ورسله، وغيرها من أركان الإيمان.

**ثانياً : بالنسبة للندب** : هناك أسباب شرعية مأمور بها، وحكم هذا الأمر باتخاذها الاستحباب، والندب.

ومن الأمثلة على ذلك :

١ - كتابة الدين سبب شرعي مأمور به أمر استحباب، قال تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه...الآية**﴾ «البقرة : ٢٨٢».

٢ - ومن الأسباب الشرعية المندوب إليها صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتا الضحى،

والوتر قبل النوم[*] . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث : صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتي الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام»أ. هـ[١] .

والمندوبات من الأسباب الشرعية كثيرة جداً كصيام عاشوراء ، والاثنين والخميس ، وصلاة التطوع ، والصدقة ، والإصلاح بين الناس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغيرها كثير .

**ثالثاً : بالنسبة للإباحة** : هناك أسباب شرعية حكمها الإباحة ، قد تساوى فيها الفعل والترك .

ومن الأمثلة على ذلك :

١ - تقديم رمي الجمار على الحلق أو التقصير أو تأخيره عنهما . أو عن الذبح . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سئل رسول الله ﷺ عمن حلق قبل أن يذبح ونحوه فقال : لاحرج ، لا حرج»أ. هـ[٢] ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال رجل للنبي ﷺ : زرت قبل أن أرمي . قال : لاحرج . قال : حلقت قبل أن أذبح . قال : لاحرج . قال : ذبحت قبل أن أرمي . قال : لاحرج . »أ. هـ[٣] .

٢ - وغيرها .

السبب الشرعي هو السبب المأمور به شرعاً ، وما كان مكروهاً أو محرماً فهو خارجاً عن أن يكون شرعياً .

---

(*) النووي ، رياض الصالحين ، تحقيق : عبدالله أحمد أبوزينة ، ص٣٦٩ .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الصيام ، باب صيام البيض ، ج٢ ، ص٢٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، كتاب الحج ، باب الذبح قبل الحلق ، ج٢ ، ص١٨٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١٨٧ .

# المبحث الثالث

# الآثار المترتبة على اتخاذ

# الأسباب الوهمية ومنها :

١ - الكهانة .

٢ - التطير .

٣ - التشاؤم .

٤ - الاستشفاء بآثار الصالحين وقبورهم .

# وأحكامها .

## تمهيـــد :

قد تكلمنا فيما سبق عن الأسباب الشرعية، وعلمنا أن الطاعات أسباب موصلة إلى الجنة، والثواب. والمعاصي موصلة إلى النار، والعقاب. وكذلك تكلمنا أيضاً عن الأسباب الكونية ، وبينا أن هناك أسباباً كونية عديدة تنتج مسبباتها، كالعلاج، وإنبات الزرع، وحصول دفء، وراحة، وغيرها. وكل هذه الأسباب سواء كانت الشرعية أو الكونية فهي ثابتة بالكتاب والسنة، وأقوال العلماء كما سبق أن ذكرنا.

يقول ابن عثيمين : «وطريق العلم بأن الشيء سبب : إما عن طريق الشرع، وذلك كالعسل فيه شفاء للناس من القرآن، وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس.

وإما عن طريق القدر : كما إذا جربنا هذا الشيء فوجدناه نافعاً في هذا الألم، أو المرض، ولكن لابد أن يكون أثره ظاهراً مباشراً كما لو اكتوى بالنار فبرئ بذلك مثلاً، فهذا سبب ظاهر بين، وإنما قلنا هذا لئلا يقول قائل: أنا جربت هذا وانتفعت به، وهو لم يكن مباشراً كالحلقة ، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنها نافعة، فينتفع لأن للانفعال النفسي للشيء أثراً بيّنا . . . »أ. هـ[١].

فمن النص السابق يتضح لنا نوع ثالث للأسباب لم نتكلم عنه مسبقاً، وإنما هو موضوع بحثنا الآن وهو الأسباب الوهمية، وهو ماعبر عنه الشيخ ابن عثيمين بالانفعال النفسي للشيء. فهذه الأسباب لم تثبت بالكتاب، ولا بالسنة، ولا بأقوال العلماء في تأثيرها، وإنتاج مسبباتها، بل هي من وهم الإنسان، وعقله القاصر.

---

(١) ابن عثيمين، القول المفيد، ج١، ص١٦٣.

فلما بعد الإنسان عن شرع الله عز وجل من كتاب، وسنة، اجتالته الشياطين، فاتخذ أسباباً وهمية لا أساس لها من الصحة، ولا حقيقة لها في حصول مسببها عنها، بل يظن الإنسان ذلك، وإذا حصل له ماأراد بها ظنها هي الفاعلة، مثل الطيرة، والتشاؤم، والكهانة، والاستشفاء بآثار الصالحين. وماهذه إلا بعض الأمثلة عليها.

يقول ابن تيمية: «إن الإنسان إذا فرغ قلبه من كل خاطر فمن أين يعلم أن ماحصل فيه حق؟... وإن الذي عُلم بالسمع والعقل إنه إذا فرغ قلبه من كل شيء حلت فيه الشياطين، ثم تنزلت عليه كما كانت تتنزل على الكهان، فإن الشيطان إنما يمنعه من الدخول إلى قلب ابن آدم مافيه من ذكر الله الذي أرسل به رسله، فإذا خلا من ذلك تولاه الشيطان...»أ.هـ[١].

ويقول ابن القيم: «فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لا مارآه وسمعه فأوضح ﷺ لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دليل دلالة، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه؛ لتطمئن قلوبهم؛ ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى...»أ.هـ[٢].

ففارغ القلب من ذكر الله عز وجل، يكون عرضة للشيطان وإغوائه، وتيهان العقل حتى يظن أن ماليس بسبب سبب لدفع شر، أو جلب نفع.

فالأسباب الوهمية لا حقيقة لها، بل هي من وهم الإنسان، وانفعاله النفسي، وتأثير الاعتقاد في الأشياء على غير ماهي عليه أصلاً.

وسنتعرض هنا لبعض الأمثلة من الأسباب الوهمية لتتضح أكثر:

---

(١) ابن تيمية، مجموعة الرسائل والمسائل، ج٥، ص٨٨.

(٢) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج٢، ص٢٧٠-٢٧١.

## أولاً : الكهانة :

### معنى الكهانة في اللغة :

قيل : الكاهن . معروف . كهن له يكهن وكهن كهانة وتكهن تكهنا وتكهينا ، والأخير نادر . قضى له بالغيب .

الكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعى معرفة الأسرار ، ومنهم من كان يزعم أن له تابعاً من الجن ورئيا يلقى إليه الأخبار ، ومنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله ، وهذا يخصونه باسم العراف . أ . هـ[(١)] .

### وفي الاصطلاح :

يقول ابن حجر : « . . . والكهانة - بفتح الكاف ويجوز كسرها - ادعاء علم الغيب ، كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب ، والأصل فيه استراق الجنى السمع من كلام الملائكة ، فيلقيه في أذن الكاهن »أ . هـ[(٢)] .

وقال أيضاً : «وقال في المحكم : الكاهن القاضي بالغيب»أ . هـ[(٣)] .

ويقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب[(*)] : «والكاهن : هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل ، وقيل : الذي يخبر عما في الضمير»أ . هـ[(٤)] .

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة كهن ، ج١٢ ، ص١٨٠-١٨١ . - الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، باب النون ، فصل الكاف ، ج٤ ، ص٢٦٤ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري ، كتاب الطب ، باب الكهانة ، ج١٠ ، ص٢٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٢٢٧ .

(*) محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي النجدي ، زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في جزيرة العرب ، له عدة مؤلفات منها : «كتاب التوحيد» ، «كشف الشبهات» ، «تفسير الفاتحة» . تعرض لكثير من المحن أثناء رحلته في الدعوة السلفية . ولد سنة ١١١٥هـ بالعينية بنجد . وتوفي سنة ١٢٠٦هـ بالدرعية . له مناقب كثيرة رحمه الله . «الأعلام ، للزركلي ، ج٦ ، ص٢٥٧» .

(٤) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لمحمد بن عبدالوهاب ، ص٢٩٨ .

فالكهانة سبب وهمي لمعرفة الأمور الغيبية، لأن الكهان يعتمدون على الجن في استراق السمع من السماء، وهذا قد أبطل في زمن نبينا محمد ﷺ بوضع الشهب رجوماً لهم. فلا يستطيع الاستماع إلا لكلمة أو لكلمتين، ثم يكذب عليها سبعين كذبة. يقول تعالى حكاية عن الجن: ﴿**وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا**﴾ «الجن: ٨-٩».

## ثانياً: التطير:

### معنى التطير في اللغة:

«التطير مأخوذ من الطيرة وهو مايتشاؤم به من الفأل الرديء كما قال الصنعاني. وقيل: تطير به ومنه، وفي الصحاح: تطيرت من الشيء وبالشيء والاسم منه الطيرة. وقيل للشؤم: طائر، وطير، وطيرة؛ لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطير ببارحها، ونعيق غرابها، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها، فسموا الشؤم طيراً وطائراً، وطيرة؛ لتشاؤمهم بها. وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم.»أ. هـ[١].

### في الاصطلاح:

يقول ابن حجر: «وأصل التطير أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها...»أ. هـ[٢].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، باب الطاء، ج٨، ص٢٣٧-٢٤٢. - الزبيدي، تاج العروس، فصل الطاء مع الراء، ج١٢، ص٤٤٩-٤٦٠.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب الطيرة، ج١٠، ص٢٢٣.

فمن هذا التعريف يتضح لنا أن جعل الطيرة سبب للمضي، أو الرد سبب وهمي لم يجعله الله عز وجل سببا، ولم تثبت التجارب العلمية صحته، بل هو من وهم الإنسان، وتفكيره القاصر.

## ثالثاً : التشاؤم :

### تعريفه في اللغة :

قد سبق أن عرفنا الطيرة[١]، ومن خلال التعريف وجدنا أن الطيرة هي : مايتشاؤم به من الفأل الرديء كما قال الصنعاني.

وكذلك وجدنا أن الشؤم : يقال له : طائر، وطير، وطيرة.

### في الاصطلاح :

يقول ابن حجر : «والتطير والتشاؤم بمعنى واحد . . . »أ. هـ[٢].

إذن فهي سبب وهمي كالتطير. من وهم الإنسان، لا حقيقة له.

## رابعاً : الاستشفاء بآثار الصالحين وقبورهم :

### تعريفه في اللغة :

معنى الاستشفاء : طلب الشفاء، والسين للطلب .

«الشفاء : دواء معروف، وهو مايبرئ من السقم.

واستشفى فلان : طلب الشفاء. »أ. هـ[٣].

---

(١) راجع ص ٣٠٩ من هذا البحث.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب الطيرة، ج١٠، ص٢٢٢.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص١٥٧، باب شفاء.

## في الاصطلاح :

طلب الشفاء والعلاج والعون من قبور الصالحين، أو آثارهم من ملبس، ومجلس، وغير ذلك، والتبرك بها.

الاستشفاء بآثار الصالحين سبب وهمي، لم يجعله الله عز وجل سبباً، ولم يعرف عنه أنه ينتج مسبب إلا من وهم ذلك - بأن يعتقد الإنسان تأثير هذا الاستشفاء أو التبرك فيحدث له مايريد في ذلك الوقت بتقدير الله عز وجل فتنة وابتلاءً فيظن أنه من هذه البدعة والعياذ بالله - ولا حقيقة له أصلاً.

فبعد أن عرضنا بعض أنواع الأسباب الوهمية، وعرفنا ماهيتها، فما هي الآثار المترتبة، أو التي ستترتب على الأخذ بهذه الأسباب ؟ ! . . .

## الآثار المترتبة على ذلك :

**أولاً : المخالفة لأمر الله عز وجل باستحداث أسباب لا أصل لها في الشرع، والاعتماد عليها، والوقوع في الشرك بالله عز وجل، وعدم الاعتماد عليه سبحانه:**

عند عرضنا للأسباب الوهمية من كهانة، وتطير، وتشاؤم، واستشفاء بآثار الصالحين وقبورهم وطلب العون منهم، وجدناها أسباباً لا أساس لها من الصحة.

فهذه الأسباب فيها ادعاء علم الغيب الذي لايعلمه إلا الله عز وجل، فالكاهن يخيل لمن حوله أنه يعلم مستقبله، وماسيحدث له، وكذلك التطير، فإنه يظن في الطائر الشر والخير، والتشاؤم من نفس القبيل. يقول ابن حجر: «وليس في شيء من سنوح(*) الطير وبروحها(**) مايقتضي مااعتقدوه، وإنما هو تكلف بتعاطي مالا أصل له، إذ لانطق

---

(*) فالسانح : ماولاك ميامنه بأن يمر عن يسارك إلى يمينك. «ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب الطيرة، ج١٠، ص٢٢٣».

(**) البارح: عكس السانح. «نفس المصدر».

للطير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه، وطلب العلم من غير فطانة جهل من فاعله»أ. هـ[١].

أما الاستشفاء بآثار الصالحين وقبورهم، وطلب العون منهم، والدعاء، والتقرب إليهم فهو شرك واضح، لأنه صرف لأنواع العبادات مثل الدعاء، والتوكل، والاستعانة، والاستغاثة لغيره سبحانه وتعالى إلى مخلوقاته. يقول ابن تيمية: «وقد زين الشيطان لكثير من الناس سوء عملهم، واستنزلهم عن إخلاص الدين لله إلى أنواع من الشرك، فيقصدون بالسفر والزيارة الرجاء لغير الله، والرغبة إليه ويشدون الرحال: إما إلى قبر نبي أو صاحب أو صالح. أو من يظن أنه نبي، أو صاحب أو صالح. داعين له راغبين إليه. . .»أ. هـ[٢].

فبهذه الأسباب يبتعد الإنسان عن ربه أشد البعد، ويلتجيء بالمخلوق الضعيف الذي لاحول له ولا قوة، ويترك من هو على كل شيء قدير. قال تعالى: ﴿**قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكراً كبارا * وقالوا لاتذرن ءالهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا * وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا**﴾ «نوح: ٢١-٢٤».

هذه الآية وضح فيها كيفية وصول الدعاء عند القبور، وطلب العون منها، والاستشفاء بآثارها، أو بآثار من فيها إلى الشرك بالله عز وجل. فضرب لنا مثلاً بقوم نوح عليه السلام، عندما اتخذوا قبور صالحيهم للذكرى، ثم جيل بعد جيل أصبحت آلهة تعبد.

يقول ابن تيمية: «وقد نهى النبي ﷺ عما هو أقرب من ذلك من اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك، ولعن على ذلك من فعله تحذيراً من الفتنة باليهود، فإن ذلك هو أصل

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب الطيرة، ج١٠، ص٢٢٣.

(٢) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج٢، ص٨٥١.

عبادة الأصنام أيضاً ، فإن وداً وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا كانوا قوماً صالحين في قوم نوح عليه الصلاة والسلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم اتخذوا الأصنام على صورهم كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره من العلماء . . . »أ. هـ[(١)] .

فالحذر الحذر من التمادي في الأسباب الوهمية حتى الوصول إلى مالا يحمد عقباه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ . »أ. هـ[(٢)] .

فالكهانة توصل إلى الكفر والعياذ بالله .

وعن ابن مسعود مرفوعاً : «الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، وما منا إلا[(*)] ولكن الله

---

(١) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل ، ج١ ، ص٢٤ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الطهارة ، باب ماجاء في كراهية إتيان الحائض ، ج١ ، ص٢٤٢ . - وأخرجه أبوداود في سننه ، كتاب الطب ، باب في الكاهن ، ج٤ ، ص٢٢٥-٢٢٦ . - وأخرجه الحاكم في مستدركه ، كتاب الإيمان ، باب التشديد في إتيان الكاهن وتصديقه ، ج١ ، ص٨ . وقال الترمذي : لانعرف هذا الحديث إلا من حديث حكيم الأثرم عن أبي تميمة ، عن أبي هريرة . وقال أيضاً : وضعف محمد بن إسماعيل يعني البخاري هذا الحديث من قبل إسناده ، هذا آخر كلامه . - وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(*) قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : يريد - والله تعالى أعلم - الطيرة شرك على ماكان أهل الجاهلية يعتقدون فيها ، ثم قال : «ومامنا إلا» يقال هذا من قول عبدالله بن مسعود وليس من قول النبي ﷺ وقوله : ومامنا إلا وقع في قلبه شيء عند ذلك على ماجرت به العادة ، وقضت به التجارب ، لكنه لايقر فيه بل يحسن اعتقاده أن لا مدبر سوى الله تعالى فيسأل الله الخير ويستعيذ به من الشر ، ويمضي على وجهه متوكلاً على الله عز وجل . «شعب الإيمان ، للبيهقي ، ج٢ ، ص٦٢» .

يذهبه بالتوكل»أ. هـ[(١)] يقول ابن حجر: «. . . . . وإنما جعل ذلك شركاً لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعا أو يدفع ضراً، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى»أ. هـ[(٢)].

فمن هذا العرض السابق يتضح أن هذه الأسباب ليست جالبة للسعادة، أو النجاة بل هي أسباب جالبة للشقاء والوعيد، والعياذ بالله، لأنها مخالفة لأمر الله عز وجل ورسوله ﷺ، وخاصة هذه الأسباب المزعومة التي حذر الله عز وجل منها ورسوله ﷺ.

ويقول عبدالرحمن بن ناصر السعدي: «. . . وهذا ينافي التوحيد لما فيه من فساد العقل، لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان. . »أ. هـ[(٣)].

ويقول الشيخ ابن عثيمين: «ولبس الحلقة[(*)] ونحوها إن اعتقد لابسها أنها مؤثرة بنفسها دون الله فهو مشرك شركاً أكبر في توحيد الربوبية، لأنه اعتقد أن مع الله خالقاً غيره. وإن اعتقد أنها سبب، ولكنه ليس مؤثراً بنفسه، فهو مشرك شركاً أصغر، لأنه اعتقد أن ماليس بسبب سبباً، فقد شارك الله تعالى في الحكم لهذا الشيء بأنه سبب، والله تعالى لم يجعله سببا»أ. هـ[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب السير، باب ماجاء في الطيرة، ج٤، ص١٦١. - وأخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان، باب التشديد في إتيان الكاهن وتصديقه، ج١، ص١٨. قال الترمذي: هذا الحديث حسن صحيح لانعرفه إلا من حديث سلمة بن كهيل. - وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب الطيرة، ج١٠، ص٢٢٢.

(٣) عبدالرحمن بن ناصر السعدي، القول السديد شرح كتاب التوحيد، ص١٠٥.

(*) لبس الحلقة: من حديد، أو ذهب، أو فضة، أو ماأشبه ذلك. والخيط معروف. ونحوهما: كالمرصعات لرفع البلاء، وكمن يصنع شكلاً معيناً من النحاس، أو غيره لدفع البلاء، وغيرها كثير، وهي سبب وهمي لم يجعله الله سبباً شرعياً، ولا قدرياً. فهو شرك. «ابن عثيمين، القول المفيد، ج١، ص١٥٩-١٦٤».

(٤) ابن عثيمين، القول المفيد، ج١، ص١٦٣.

فقول ابن عثيمين دليل على حكم الأسباب الوهمية، بضربه مثلاً عليها وهو لبس الحلقة فهو سبب وهمي لم يجعله الله عز وجل سببا. قسم الحكم إلى قسمين :

١ - إذا وهم الإنسان أن الأسباب الوهمية مؤثرة بنفسها فقد أشرك شركاً أكبر.

٢ - وإذا وهم الإنسان أن الأسباب الوهمية أسباب حقيقية ليست مؤثرة بنفسها، فهو مشرك شركاً أصغر.

لأن الأول جعلها ضارة، نافعة بنفسها دون الله عز وجل، فأشركها في العبادة. والثاني جعلها سبباً، ولم يجعلها الله عز وجل سبباً، فقد جعل نفسه حاكماً مع الله عز وجل.

## ثانياً : التيه والخسران في الدنيا والآخرة :

من خلال العرض السابق للأسباب الوهمية وجدنا أنها أسباب لا أساس لها من الصحة، بل هي من وضع الإنسان المحدود العقل، الذي لايعرف مصلحة نفسه.

فعندما يذهب الإنسان إلى الكاهن، أو للاستشفاء والاستعانة بالمخلوقات من الصالحين وقبورهم، والطيور وحركاتها، فقد سلّم نفسه للأوهام، والضعف، والخوف، والإهانة لغيره، مما هو ليس أهلاً لهذا الخضوع والخوف.

فإن الأسباب الوهمية تُحدث للإنسان أمرين خطيرين :[١].

١ - تعلق الإنسان بأسباب لا أساس لها من الصحة، بل هي من وهم النفس، كالطيرة، والاستشفاء بآثار الصالحين، أو من كذب كاذب كالكاهن، والساحر، مما يؤثر على تصرفاته، من تغيير ماكان عازماً على فعله، فغلب على قلبه وإرادته وعمله، نفع أو ضر ذلك السبب عليه، مما أوقعه في نسبة الضر والنفع لغير الله عز وجل، مما يؤثر ويخل

---

(١) عبدالرحمن ناصر السعدي، القول السديد شرح كتاب التوحيد، ص١٠٢-١٠٣.

بإيمانه وتوحيده لله عز وجل وتوكله. وخسر بذلك الآخرة، بما صرفه لغير الله عز وجل.

أما بالنسبة لخسران الدنيا، والتيه النفسي فإنه يؤدي إلى ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين، وسيطرة الأوهام من كل حركة وسكنة من طير، أو ريح، أو كوكب ما.

الخسارتان ناتجة عن ضعف الإيمان، وضعف التوحيد، وضعف التوكل بالله عز وجل، والتعلق بأسباب لا صحة لها أصلاً، وهي من الخرافات الفاسدة للعقل.

٢ - ولو فرضنا جدلاً أنه لم يأخذ بهذه الأسباب، مع اعتقاده بضرها ونفعها، فلم تؤثر على تصرفاته، ولكنه عند حصول ضرر ما له بسبب تركه لهذه الأسباب الوهمية يتحسر في نفسه ويندم على عدم أخذه بها، وإن كان هذا أهون من الأول، ولكن يؤثر على ثقته بالله عز وجل، وتفويض أمره إليه، والإيمان بقدره وقضائه على وفق ماجاء به الكتاب والسنة، فيؤدي به إلى الوقوع في الأمر الأول.

فالأسباب الوهمية تؤثر على الإيمان والتوحيد، والتوكل، وتؤثر على العقل بالهموم، والأحزان، والارتياب من مخلوقات الله عز وجل، مما يؤدي إلى الجنون في بعض الأحيان. والعياذ بالله من ذلك.

فمع حصول التيه والخسران في الدنيا والآخرة كما أسلفنا سابقاً، فإنها مدخل للشيطان إلى الأنفس الضعيفة[1]. فإذا خلا القلب من الإيمان والتوحيد، والتوكل على الله عز وجل حق التوكل، وضعف القلب، ووهن، وسيطرت عليه الأسباب الوهمية فهو فريسة سهلة للشيطان، وأعوانه.

فيصبح الإنسان في تيه عن الطريق الحق، خسر دينه بما ضيعه من التوحيد،

---

(١) راجع ص ٣٠٧ من هذا البحث.

والتوكل على الله عز وجل . وخسر دنياه لما سلّم نفسه للأوهام ، حتى أدى به ذلك إلى الأمراض النفسية ، وخسران المال لهؤلاء الدجالين .

## أحكام الأخذ بالأسباب الوهمية :

من خلال عرضنا السابق للأسباب الوهمية ، وآثارها . وجدنا أن الأخذ بالأسباب الوهمية شرك بالله عز وجل .

١ - شرك أكبر ، إذا أخذ بها ، واعتمد عليها اعتماداً كلياً ، واعتقد أنها النافعة ، الضارة من دون الله عز وجل(١) .

٢ - شرك أصغر ، إذا أخذ بها ، ولم يعتمد عليها بالكلية ، بل جعلها سبباً لدفع البلاء كلبس الحلقة ، أو التمائم ، أو تعليق بعض أجزاء الحيوانات لدفع العين . وهكذا(٢) .

أو جعلها سبباً للمضي أو الرد كالطيرة ، أو جعلها سبباً لمعرفة مستقبله ، والأمور الغيبية كالكهانة ، وغير ذلك . يقول ابن عثيمين : « . . . ولبس هذه الأشياء قد يكون أصغر ، وقد يكون أكبر بحسب اعتقاد لابسها وكان لبس هذه الأشياء من الشرك : لأن كل من أثبت لله سبباً لم يجعله الله سبباً شرعياً ، ولا قدرياً فقد أشرك بالله . مثلاً : قراءة الفاتحة : سبب للشفاء شرعي(*) . وأكل المسهل : سبب لانطلاق البطن ، وهو قدري ، لأنه يعلم بالتجارب .

والناس في الأسباب طرفان ووسط :

الأول : من ينكر الأسباب ، وهم كل من قال بنفي حكمة الله كالجبرية والأشعرية .

---

(١) راجع ص ٣١٢ - ٣١٣ من هذا البحث .

(٢) راجع ص ٣١٤ من هذا البحث .

(*) راجع ص ٢٠١ من هذا البحث .

الثاني : من يغلون في إثبات الأسباب حتى يجعلوا ماليس بسبب سبباً، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية، ونحوهم.

الثالث: من يؤمن بالأسباب وتأثيرها، ولكنهم لايثبتون من الأسباب إلا ماأثبته الله سبحانه ورسوله سبباً شرعياً أو كونياً.»أ.هـ[1].

بعد هذا العرض لأحكام الأسباب الوهمية عامة، نريد أن نعرف حكم بعض الأمثلة من الأسباب الوهمية كالطيرة، والكهانة، والتشاؤم، والاستشفاء بآثار الصالحين بالتفصيل:

## أولاً : الكهانة :

من خلال تعريفنا للكهانة، وبعض آثارها، عرفنا وضعها في الشرع، وتأثيرها على الإنسان، فكل ذلك مع الدليل الصريح من السنة يدل على أن حكمها كفر من أتى كاهناً وصدقه، فكيف من كان كاهناً؟!.

يقول النووي : «قال القاضي[*] رحمه الله : كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضرب:

أحدها: يكون للإنسان ولي من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء، وهذا القسم بطل من حيث بعث الله نبينا ﷺ[2].

الثاني : أن يخبره بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض، وما خفي عنه مما قرب أو بعد، وهذا لايبعد وجوده....، لكنهم يصدقون ويكذبون، والنهي عن تصديقهم والسماع منهم عام.

---

(١) ابن عثيمين، القول المفيد، ج١، ص١٥٩-١٦٠.

(*) القاضي عياض رحمه الله.

(٢) راجع ص ٣٠٩ من هذا البحث.

الثالث : المنجمون وهذا الضرب يخلق الله تعالى فيه لبعض الناس قوة ما ، لكن الكذب فيه أغلب ، ومن هذا الفن العرافة ، وصاحبها عراف ، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات ، يدعي معرفتها بها ، وقد يعتضد بعض هذا الفن ببعض في ذلك بالزجر والطرق والنجوم ، وأسباب معتادة ، وهذه الأضرب كلها تسمى كهانة ، وقد أكذبهم كلهم الشرع ، ونهى عن تصديقهم وإتيانهم ، والله أعلم . . . »أ . هـ[١] .

فالنووي بيّن أنواع الكهانة المعروفة في الجاهلية ، واليوم ، ويبين أن :

١ - ماكان باستراق السمع قل ، أو بطل بعد بعثة النبي ﷺ ، لحراسة السماء بالشهب . فكيف نصدق الكاهن في هذا النوع ، وهو قد بطل ، وحتى ولو استرق الجني كلمة ، زاد عليها الكاهن مائة كذبة لقوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها عندما قالت : يارسول الله إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشيء فنجده حقا قال : تلك الكلمة الحق يحفظها الجني فيقذفها في إذن وليه ويزيد فيها مائة كذبة»أ . هـ[٢] .

فهذا النوع الأول باطل ، ونهى الشرع عنه لما فيه من الكذب على الناس ، وادعاء علم الغيب .

٢ - النوع الثاني : وهو الإخبار عن حوادث تحدث في أقطار الأرض ، فلا يمكن معرفتها لبعد ، أو خفاء ، ويحصل معرفتها بالوصول إلى ذلك المكان من الأرض .

ونحن نعلم أن الجن يتميزون بقدرات خاصة من السرعة ، وقطع المسافات في زمن يسير . يقول ابن تيمية : « . . . والجن تقدر على الطيران في الهواء ، . . . ، وكذلك المشي على الماء ، وطي الأرض - وهو قطع المسافة البعيدة في زمان قريب - هو من هذا الجنس هو مما تفعله الجن ببعض الناس وقد أخبر الله عن العفريت أنه قال لسليمان عن عرش بلقيس

---

(١) النووي ، صحيح مسلم بالشرح ، كتاب السلام ، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان ، ج٥ ، ص٨٢ .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الطب ، باب الكهانة ، ج٧ ، ص٢٨ .

وهو باليمن وسليمان بالشام «أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك». ولهذا يوجد كثير من الكفار والفساق والجهال تطير بهم الجن في الهواء وتمشي بهم على الماء وتقطع بهم المسافة البعيدة في المدة القريبة وليس شيء من ذلك من آيات الأنبياء ولله الحمد والمنة. . »أ. هـ[1].

فهو أمر ممكن، ولكن الكهان يكذبون عليها كذبات أخرى.

يقول ابن تيمية: «. . . فإنهم تارة يرون الغائب فيخبرون به، وتارة يسترقون السمع من السماء فيخبرون به، وتارة يسترقون وهم يكذبون في ذلك كما أخبر النبي ﷺ عنهم. . . . وأخبار الكهان وغيرهم كذبها أكثر من صدقها، وكذلك كل من تعود الإخبار عن الغائب فإخبار الجن لابد أن تكذب فإنه من طلب منهم الإخبار بالمغيب كان من جنس الكهان وكذبوه في بعض مايخبرون به وإن كانوا صادقين في البعض. . . »أ. هـ[2].

فابن تيمية يحذر من تصديقهم، لأن كذبهم أكثر من صدقهم. والرسول ﷺ نهى عن تصديقهم، وإتيانهم. عن معاوية بن الحكم السلمي(*) قال قلت يارسول الله: أموراً كنا نصنعها في الجاهلية. كنا نأتي الكهان. قال: «فلا تأتوا الكهان» قال قلت: كنا نتطير. قال: «ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه، فلا يصدنكم»أ. هـ[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ »أ. هـ[4].

---

(١) ابن تيمية، النبوات، ص٢٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٥٩.

(*) معاوية بن الحكم السلمي، قال البخاري له صحبة، يعد في أهل الحجاز، روى عن النبي ﷺ حديثاً. وسكن المدينة. «الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ج٣، ص٤٣٢».

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهان وإتيان الكهان، ج٤، ص١٧٤٩.

(٤) سبق تخريجه ص٣١٣.

فهذا الحديث دليل على النهي، وأوصله إلى درجة الكفر بما أنزل على محمد ﷺ .

يقول عبدالرحمن آل الشيخ(*) : «وفيه دليل على كفر الساحر والكاهن، لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً»أ. هـ(١) .

وهناك حديث آخر يدل على حكم آخر للكهانة وهو: عن صفية(**)، عن بعض(***) أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال «من أتى عرافاً(****) فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»أ. هـ(٢) .

هذا دليل ثان على النهي، والعقوبة الدنيوية وهي حرمانه من قبول صلاته أربعين ليلة أو يوماً، فتصور من يموت في هذه الفترة وهو غير مقبول الصلاة، فكيف يقابل ربه عز

---

(*) عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب، فقيه حنبلي، من علماء نجد، وهو حفيد العلامة ابن عبدالوهاب، تفقه بنجد ثم بمصر، تولى قضاء الرياض أيام الإمام تركي، ثم مع ابنه فيصل، ثم انصرف إلى الحوطة والحريق، ثم عاد إلى الرياض، له عدة مصنفات منها «فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد»، «الإيمان والرد على أهل البدع»، «مجموعة رسائل وفتاوي»، ولد بالدرعية سنة ١١٩٣هـ، وتوفي بالرياض سنة ١٢٨٥هـ. «الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٣٠٤».

(١) عبدالرحمن آل الشيخ، فتح المجيد، ص٢٩٧.

(**) صفية بنت حيي بن أخطب، من الخزرج، من أزواج النبي ﷺ كانت في الجاهلية من ذوات الشرف. تدين باليهودية، من أهل المدينة، تزوجها سلام بن مشكم القرظي، ثم فارقها فتزوجها كنانة بن الربيع النضري، وقتل عنها يوم خيبر، وأسلمت، فتزوجها رسول الله ﷺ. لها في كتب الحديث ١٠ أحاديث، توفيت في المدينة سنة ٥٠هـ. «الاستيعاب، ج٤، ص٣٤٦-٣٤٩. - شذرات الذهب، ج١، ص١٢، ٥٦. - وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٢٣١. - الإصابة، ج٤، ص٣٤٦-٣٤٨. - الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٢٠٦».

(***) يقصد ببعض أزواج النبي ﷺ حفصه رضي الله عنها. «فتح الباري، ابن حجر، كتاب الطب، باب الكهانة، ج١٠، ص٢٢٧، ٢٢٨».

(****) عرافا: العراف من جملة أنواع الكهان. قال ابن الأثير: العراف المنجم أو الحازي الذي يدعي علم الغيب، وقد استأثر الله تعالى به. وقال الخطابي وغيره: العراف هو الذي يتعاطى معرفة مكان المسروق ومكان الضالة ونحوهما. «صحيح مسلم، تعليق محمد فؤاد عبدالباقي، ج٤، ص١٧٥١».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ج٤، ص١٧٥١».

وجل، وإن كان قال بعض العلماء تجزي عن الفرض ولا تجزي عن الثواب. يقول النووي: «... وأما عدم قبول صلاته فمعناه أنه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه، ولا يحتاج معها إلى إعادة»أ. هـ[١].

قال النووي قياساً على الأرض المغصوبة. ثم أعقب يقول: «فإن العلماء متفقون على أنه لايلزم من أتى العراف إعادة صلوات أربعين ليلة، فوجب تأويله. والله أعلم»أ. هـ[٢].

**مسألة:**

قد ذكرنا فيما سبق حديثين في حكم إتيان الكهان، فمنها مايدل على الكفر وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»أ. هـ[٣].

ومنها مايدل على عدم قبول الصلاة أربعين يوماً، وهو عن صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة.»أ. هـ[٤].

فللجمع بين هذين الحديثين:

١ - يقول ابن حجر: «... ورد في ذم الكهانة ماأخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبي هريرة رفعه «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر

---

(١) النووي، صحيح مسلم مع الشرح، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ج٥، ص٨٦.

(٢) نفس المصدر.

(٣) سبق تخريجه ص٣١٣.

(٤) سبق تخريجه ص٣٢١.

بما أنزل على محمد» وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين أخرجهما البزار بسندين جيدين ولفظهما «من أتى كاهناً» وأخرجه مسلم من حديث أمرأة من أزواج النبي ﷺ - ومن الرواة من سماها حفصة - بلفظ «من أتى عرافاً» وأخرجه أبويعلي من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه، ومثله لايقال بالرأي، ولفظه «من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً» واتفقت ألفاظهم على الوعيد بلفظ حديث أبي هريرة، إلا حديث مسلم فقال فيه «لم يقبل لهما صلاة أربعين يوماً». ووقع عند الطبراني من حديث أنس بسند لين مرفوعاً بلفظ «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد برئ مما أنزل على محمد، ومن أتاه غير مصدق له لم تقبل صلاته أربعين يوماً». والأحاديث الأول مع صحتها وكثرتها أولى من هذا، والوعيد جاء تارة بعدم قبول الصلاة وتارة بالتكفير، فيحمل على حالين من الآتي، أشار إلى ذلك القرطبي...»أ.هـ[1].

فابن حجر وضح الجمع بين الروايتين على حال الآتي، فهناك حالة يكفر بها وهي التصديق، وحالة يستحق عليها حرمان قبول صلاته أربعين يوماً وهي عدم التصديق به.

٢ - يقول عبدالرحمن آل الشيخ: «.. قوله «من أتى كاهناً» قال بعضهم: لاتعارض بين هذا وبين حديث «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» هذا على قول من يقول: هو كفر دون كفر، أما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين. وظاهر الحديث: أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان...»أ.هـ[2].

فعبدالرحمن آل الشيخ وضح أن الكفر لمن اعتقد صدقه - أي الكاهن - بأي وجه كان.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب الكهانة، ج١٠، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٢) عبدالرحمن آل الشيخ، فتح المجيد، ص٢٩٥-٢٩٦. - سليمان بن عبدالرحمن الحمدان، الدر النضيد على أبواب التوحيد، ص١٨١.

٣ - يقول حمد بن عتيق(*) : « . . . . الحديث الذي فيه الوعيد بعدم قبول الصلاة ليس فيه تصديقه، والأحاديث التي فيها الكفر مقيدة بتصديقه . . . . »أ. هـ(١) .

٤ - يقول ابن عثيمين : «قوله «مسألة لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يوماً، ولكنه ليس على إطلاقه فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام :

القسم الأول : أن يسأله سؤالاً مجرداً فهذا حرام، لقول النبي ﷺ «من أتى عرافاً . . . » فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه، إذ لا عقوبة إلا على محرم.

القسم الثاني : أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله، فهذا كفر؛ لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن.

القسم الثالث : أن يسأله ليختبره، هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله فهذا لا بأس به، ولايدخل في الحديث.

. . . . . .

القسم الرابع : أن يسأل ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور، وهذا قد يكون واجباً أو مطلوباً . . . »أ. هـ(٢) .

فنخرج من جميع هذه الأقوال أن التصديق حكمه الكفر، والسؤال المجرد يوجب عدم قبول صلاته أربعين يوماً. والسؤال من أجل الامتحان والتعجيز مأمور به .

---

(*) حمد بن علي بن محمد بن عتيق، قاض حنبلي من علماء نجد، تفقه في الرياض، وولي قضاء الحلوة، ثم قضاء الأفلاج، له عدة مصنفات منها «إبطال التنديد باختصار كتاب شرح التوحيد»، «الدفاع عن أهل السنة والاتباع»، «بيان النجاة والفكاك، من موالاة المرتدين وأهل الأشراك»، ولد بالزلفى سنة ١٢٢٧هـ، وتوفي بالأفلاج سنة ١٣٠١هـ. «الأعلام، للزركلي، ج٢، ص٢٧٢».

(١) حمد بن عتيق، إبطال التنديد، ص١٦٩ . - سليمان آل الشيخ، تيسير العزيز الحميد، ص٤١٠».

(٢) ابن عثيمين، القول المفيد، ج٢، ص٤٩ .

**شبهة ورد :**

يظن بعض الناس من العامة أن العلوم التي تدرك بالحساب، كظهور الكسوف، والخسوف، وتحديد موعد ظهور مذنب هالي، وأحوال الطقس، إنها من الكهانة، ولا يصدقون بها، ويعتبرونها من الكهانة ؟

نقول إن ماله سبب يعرف من الحساب، أو المشاهدة فهو ليس بكهانة؛ لأن الكهانة -كما سبق ذكرها- الإخبار بما في المستقبل، بالاعتماد على الشياطين في استراق السمع، فيلقي الشيطان على الكاهن، فيكذب الكاهن فوقها مائة كذبة[١].

أما الاعتماد على الحساب، وعلى العلوم الحديثة من معرفة جهات الرياح في العالم، والمنخفضات الجوية، وتحرك الكواكب، وكسوف الشمس، وخسوف القمر، وظهور بعض النجوم، والمذنبات، ماهو إلا تطور علمي بسبب اختراع التلسكوب، والمراكب الفضائية، وتطور وسائل علم الحساب، وكل ذلك من فضل الله عز وجل ونعمته، فاستخدامها في نفع الإنسان فيه الخير الكثير، فهو من مسخرات الله عز وجل التي جعلها سبباً لراحة الإنسان، وتعلم مالا يعلم. يقول ابن تيمية: «وما أخبر به النبي ﷺ -أي اخباره بأن الشمس والقمر لايخسفان لموت أحد ولا حياته[*]- لا ينافي لكون الكسوف له وقت محدود يكون فيه، حيث لايكون كسوف الشمس إلا في آخر الشهر ليلة السرار، ولايكون خسوف القمر إلا في وسط الشهر وليالي الإبدار. ومن ادعى خلاف ذلك من المتفقهة أو العامة فلعدم علمه بالحساب، ولهذا يمكن المعرفة بما مضى من الكسوف وما يستقبل كما يمكن المعرفة بما مضى من الأهلة وما يستقبل؛ إذ كل ذلك بحساب، كما قال تعالى: ﴿ **جعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا** ﴾ «الأنعام: ٩٦». وقال تعالى:

---

(١) راجع ص ٣٠٨ ومابعدها من هذا البحث.

(*) زيادة من الباحث، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الكسوف، باب لاتنكسف الشمس لموت أحد ولا حياته، ج٢، ص٢٩.

**﴿والشمس والقمر بحسبان﴾** «الرحمن: ٥». وقال تعالى: **﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾** «يونس: ٥». وقال: **﴿يسئلونك عن الأهلة؟ قل هي مواقيت للناس والحج﴾** «البقرة: ١٨٩». . . »أ. هـ[١].

فعلم الحساب، علم يؤخذ به؛ لأنه يعتمد على حسابات معينة، ولا يدخل في الكهانة التي هي ادعاء علم الغيب، فهذا وإن كان في المستقبل حدوث الكسوف، والخسوف، وظهور مذنبات، أو أهلة، إلا أنه يعتمد على علم صحيح في الحساب. يقول ابن تيمية: «وأما علم الحساب من معرفة أقدار الأفلاك والكواكب، وصفاتها، ومقاديرها، فهذا في الأصل علم صحيح لا ريب فيه، كمعرفة الأرض وصفاتها. . . »أ. هـ[٢].

وكذلك بالنسبة لليوم الحاضر من أحوال الطقس، وظهور مذنب هالي، فهي أمور حسابية، وحسية. اعتماداً على بعض الأقمار الصناعية، والكاميرات في رصد السحب، وتحركاتها، والمنخفضات. يقول الشيخ ابن عثيمين عندما سئل هل من الكهانة مايخبر به الآن من أحوال الطقس في أربع وعشرين ساعة أو ماأشبه ذلك ؟!!.

الجواب: لا، لأنه أيضاً يستند إلى أمور حسية، وهي تكيف الجو؛ لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم، فيكون صالحاً لأن يمطر، أو لا يمطر.

ونظير ذلك في العلم البدائي إذا رأينا السماء، وتجمع الغيوم، والرعد، والبرق. وثقل السحاب، نقول يوشك أن ينزل المطر.

فالمهم أن ما استند إلى شيء محسوس فليس من علم الغيب، وإن كان بعض العامة يظنون أن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون: إن التصديق بها تصديق بالكهانة. . . »أ. هـ[٣].

---

(١) ابن تيمية، الفتاوي، ج٣٥، ص١٧٥.

(٢) ابن تيمية، مختصر الفتاوي المصرية، ص١٥٥.

(٣) ابن عثيمين، القول المفيد، ج٢، ص٤٧-٤٨. - فتاوي اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب: أحمد بن عبدالرزاق الدويش، ج١، العقيدة، ص٤٢٥-٤٣١.

## ثانياً : التطير والتشاؤم :

نريد هنا أن نعرف حكم السبب الثاني من الأسباب الوهمية، وهو التطير. فالتطير قد عرفناه من قبل وهو اعتقاد الخير والشر في حركات الطيور وغيرها من الدواب، وهو نسبة النفع والضر لغير الله عز وجل، مما يجعل تعلق القلب بهذه الأمور أكثر من التعلق بالله عز وجل. عن ابن مسعود مرفوعاً: «الطيرة شرك، الطيرة شرك. ومامنا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»أ. هـ[١]. فهذا الحديث دليل على حكم الطيرة، وأنها شرك بالله عز وجل، لأنها صرف لبعض العبادات من اعتقاد النفع والضر من غير الله عز وجل. يقول ابن حجر: «... وإنما جعل ذلك شركاً لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضراً، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى»أ. هـ[٢]. ويقول ابن القيم: «.... فالطيرة باب من الشرك وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، يكبر ويعظم شأنها على من أتبعها نفسه واشتغل بها وأكثر العناية به، وتضمحل عمن لم يلتفت إليها ولا ألقى إليها باله ولا شغل بها نفسه وفكره...»أ. هـ[٣]. ويقول ابن القيم أيضاً: «... فإن الطيرة نوع من الشرك...»أ. هـ[٤]. ويقول الشيخ عبدالرحمن آل الشيخ: «قال في شرح السنن: إنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم النفع أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبها، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى...»أ. هـ[٥].

---

(١) سبق تخريجه ص ٣١٣.

(٢) راجع ص ٣١٤ من هذا البحث.

(٣) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج٢، ص٢٦٥.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٧٠.

(٥) عبدالرحمن آل الشيخ، فتح المجيد، ص٣١٤.

فهذه النصوص لابن حجر، وابن القيم، والشيخ عبدالرحمن آل الشيخ، تثبت دخول الطيرة الشرك لعلة وهي صرف شيء من أنواع العبادات- وهي النفع والضر واعتقادهما- لغير الله عز وجل.

وقد سبق أن ذكرنا أن الطيرة والتشاؤم بمعنى واحد، فحكم التشاؤم حكم الطيرة.

يقول ابن حجر: «... والتطير والتشاؤم بمعنى واحد...» أ.هـ[1]. ويقول الشيخ عبدالرحمن آل الشيخ: «... أن الطيرة هي التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع، فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها كإرادة السفر ونحوه، فمنعه عما أراد وسعى فيه مارأى وماسمع تشاؤما، فقد دخل في الشرك. كما تقدم فلم يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ماسواه، فيكون للشيطان منه نصيب....» أ.هـ[2].

فالتطير من خلال هذه النصوص يظهر حكمة الشرك بالله عز وجل، كما سبق أن وضحناه أنه نسبة جلب الخير، ودفع الضر بأسباب لم يجعلها الله عز وجل أسباباً لا شرعاً ولا قدرا، وكذلك الاعتماد عليها دون توكل على الله عز وجل. يقول القرطبي: «قال علماؤنا: وأما أقوال الطير، فلا تعلق لها بما يجعل دلالة عليه، ولا لها علم بكائن فضلاً عن مستقبل فتخبر به، ولا في الناس من يعلم منطق الطير، إلا ماكان الله خص به سليمان ﷺ من ذلك، فالتحق التطير بجملة الباطل....» أ.هـ[3].

وبين الرسول ﷺ لمن وجد في نفسه شيئاً من الطيرة، أن يمضي حيث أراد، وكفارة ذلك قوله: «اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك». عن ابن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك». قالوا: فما

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الطب، باب الطيرة، ج١٠، ص٢٢٢.

(٢) عبدالرحمن آل الشيخ، فتح المجيد، ص٣١٤.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٧، ص٢٦٦.

كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»أ. هـ[(١)].

**شبهة ورد :**

قلنا فيما سبق أن التشاؤم من الطيرة الشركية[(٢)]، فكيف الجمع بين النصوص الدالة على تحريم الطيرة وبين الأحاديث التي تثبت ظاهرها التشاؤم ؟

قد بحث الشيخ الدميجي[(*)] في كتابه[(**)] هذه القضية، وذكر النصوص من الكتاب والسنة، وأقوال العلماء، وجمع بين هذه النصوص والأقوال مايغني عن الإعادة هنا، ولكن خرج بالجواب الصحيح إن شاء الله تعالى لهذه الشبهة :

فيقول: «. . . والذي يبدو - والله أعلم - أنه ليس في هذه الأحاديث إثبات للشؤم المنهي عنه، وإنما بعض الأعيان، وخاصة هذه الثلاث المذكورة[(***)] - قد يجعلها

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ج٢، ص٢٢٠، وابن السني، ص٢٩٣، عن عبدالله بن عمرو، وعزاه الهيثمي للطبراني أيضاً، ج٥، ص١٠٥، وقال: «فيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات». وصحح إسناده الشيخ الألباني وتابعه ابن وهب، وهو ممن رووا عن ابن لهيعة قبل اختلاطه، وقد صرح ابن لهيعة بالتحديث، فانتفت شبهة التدليس. انظر: السلسلة الصحيحة، ح: ١٠٦٥، ج٣، ص٥٤، والنهج السديد ص١٦٣، «التوكل على الله تعالى، وعلاقته بالأسباب، للدميجي، ص٢١٩».

(٢) راجع ص٣١٠ ومابعدها من هذا البحث .

(*) عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجي، الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، له عدة مؤلفات منها «الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة»، «التوكل على الله تعالى، وعلاقته بالأسباب»، «تحقيق كتاب الشريعة للإمام الآجري». أمد الله في عمره ونفع به المسلمين إن شاء الله تعالى.

(**) كتابه : هو التوكل على الله تعالى وعلاقته بالأسباب .

(***) الثلاث المذكورة : هي الفرس، المرأة، الدابة. عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الشؤم في ثلاثة: في الفرس، والمرأة، والدابة» أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب مايذكر من شؤم الفرس، ج٣، ص٢١٧».

الله تعالى سبباً في وقوع البلاء والضرر على الإنسان، وليس الشؤم في ذواتها، وإنما ماقد يجده العبد في نفسه تجاهها، لذا فأجاز له الشارع مفارقتها حين يجد مضرة عند الاستمرار في مصاحبتها.

أما الشؤم والتطير المنهي عنه فهو محاولة الاستدلال ببعض الأحوال والأعيان والأصوات على أمر غيبي لم يقع بعد، أما عند وقوع الضرر وتحققه فالإنسان مأمور بترك مايضره والبحث عما ينفعه، وليس للقلب في مثل هذه الحالة تعلق بغير الله تعالى أو اعتماد عليه، الذي هو أصل التشاؤم المنهي عنه. والله تعالى أعلم.»أ. هـ[١].

---

(١) الدميجي، التوكل على الله وعلاقته بالأسباب، ص٢٢٨-٢٤١.

## ثالثاً : الاستشفاء بآثار الصالحين وقبورهم :

السبب الثالث من الأسباب الوهمية هو الاستشفاء بآثار الصالحين وقبورهم، وجعل ذلك سبباً للعلاج والشفاء، وهذا فيه محذور عظيم وهو الشرك بالله عز وجل.

فمن أعظم الاعتداء على حق الله عز وجل صرف شيء من العبادات إلى غيره، فطلب الحوائج يكون من الله عز وجل.

فالاستغاثة، والاستعانة في الأمور كلها، والاستشفاء، والدعاء، يكون من الله عز وجل وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿**ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولايضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين * وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم**﴾ «يونس: ١٠٦-١٠٧».

هذه الآية بدأت بقوله تعالى ﴿**ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولايضرك...**﴾ فهي نهي من الله عز وجل عباده عن دعاء غيره، وبين مباشرة ضعف المخلوق عن نفع أو ضر غيره ليدعا، أو يلتجأ إليه من دون الله عز وجل. سواء كان هذا المخلوق صنماً، أو بشراً، حياً(*)، أوميتاً، نبياً(**)، أو إنساناً عادياً. يقول ابن تيمية: «... أن الدعاء لغير الله سواء كان المدعو حياً أو ميتاً وسواء كان من الأنبياء عليهم السلام وغيرهم فيقال

---

(*) وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته، فالمراد به: استجلاب دعائه وليس خاصاً به ﷺ، بل كل حي صالح يرجى أن يستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة....، وأما الميت: فإنما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك. وهذا هو المشروع في حق الميت. «فتح المجيد، لعبدالرحمن بن آل الشيخ، ص٥٠٣».

(**) والصحابة رضوان الله عنهم، لاسيما السابقون منهم كالخلفاء الراشدين، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم: أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبي ﷺ بعد وفاته. «المصدر نفسه».

ياسيدي فلان أغثني أو أنا مستجير بك ونحو ذلك فهذا هو الشرك بالله . والمستغيث بالمخلوقات قد يقضي الشيطان حاجته أو بعضها . وقد يتمثل له في صورة الذي استغاث به فيظن أن ذلك كرامة لمن استغاث به وإنما هو شيطان أضله وأغواه لما أشرك بالله . . . »أ . هـ[1] . ويقول أيضاً : «ومن هذا الباب قول أبي يزيد البسطامي[*] : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق . وقول الشيخ أبي عبدالله القرشي[**] المشهور بالديار المصرية : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون . . . »أ . هـ[2] .

فالآية السابقة تحكم على صرف هذه العبادة لغير الله عز وجل شرك به ، وهنا نص ابن تيمية يدل أيضاً على حكم هذا العمل بالشرك .

وقال ﷺ : «من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار»أ . هـ[3] .

المقصود بالدعاء في هذا الحديث العبادة ، وإذا جاء الدعاء والعبادة في موضع

---

(١) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل ، ج١ ، ص٢٢ .

(*) طيفور بن عيسى البسطامي ، أبويزيد ، ويقال : بايزيد ، زاهد مشهور ، له أخبار كثيرة ، كان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر ، قال المناوي : وقد أفردت ترجمته بتصانيف حافلة ، وفي المستشرقين من يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود ، وأنه ربما كان أول قائل بمذهب الفناء ، ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية ، ولد سنة ١٨٨هـ ببسطام بين خراسان والعراق ، وتوفى سنة ٢٦١هـ فيها . «شذرات الذهب ، ج٢ ، ص١٤٣ . - حلية الأولياء ، ج١٠ ، ص٣٣-٤٢ . - وانظر : سير أعلام النبلاء ، ج١٣ ، ص٨٦ . - الأعلام ، للزركلي ، ج٣ ، ص٢٣٥» .

(**) محمد بن أحمد بن إبراهيم ، أبوعبدالله القرشي الهاشمي ، زاهد ، أقام بمصر مدة ، سكن القدس ، له كلمات وجمل في آداب المعاملات ، وطرائق أهل الرياضيات ، جمعها بعض تلاميذه في كتاب «الفصول» . ولد سنة ٥٤٤هـ ، أندلسي الأصل ، من الجزيرة الخضراء ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ بالقدس ، ودفن بماملا «مقبرة القدس القديمة» . «الأعلام ، للزركلي ، ج٥ ، ص٣١٩ .

(٢) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل الكبرى ، ج١ ، ص٤٨٥ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ ، ج٥ ، ص١٥٣ .

واحد يدل على المغايرة في المعنى، وإذا جاء كلٌّ منهما على حدة، أو كلٌّ منهما في موضع يدل على الموافقة. فهنا الدعاء جاء لوحده فيدل على العبادة، وعلى الدعاء.

والعبادة تشمل الاستعانة، والدعاء، والاستشفاء، والاستغاثة، والذبح، وغيرها. كما سبق أن قلنا. فهنا نهي صريح عن الاستشفاء بآثار الصالحين أو قبورهم. يقول عبدالرحمن آل الشيخ: «الند: المثل والنظير. وجعل الند لله: هو صرف أنواع العبادة - أو شيء منها لغير الله - كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم، ويشفع لهم...»أ.هـ[١].

ودعاء أهل القبور من قبيل عبادة الأوثان، ونظيرها. يقول عبدالرحمن بن ناصر السعدي: «والنوع الثاني: شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا الشرك أكبر، وهو عين مايفعله عباد الأصنام مع أصنامهم...»أ.هـ[٢].

وطلب الشفاء من الصالحين وقبورهم - وهم أموات - شرك بالله؛ لأنه طلب شيء لايقدر عليه إلا الله عز وجل.

أما طلب الدعاء منهم وهم أحياء بالشفاء بقصد أن يدعو لهم فلا شيء عليه، مع الاعتقاد أن ذلك كله سيحدث بمشيئة الله عز وجل، فإن شاء قبل دعائهم، وإن شاء لم يحدث ذلك.

---

(١) عبدالرحمن آل الشيخ، فتح المجيد، ص٤١٠-٤١١.

(٢) عبدالرحمن ناصر السعدي، القول السديد، ص٧٨-٧٩.